جامعة سعد دحلب البليدة

كلية الآداب و العلوم الاجتماعية

قسم اللغة العربية و آدابها

مذكرة ماجستير

التخصص : الصوتيات العربية و المعجمية

البحث الصوتي عند الكوفيين في ضوء

الصوتيات العربية الحديثة

دراسة وصفية تحليلية

من طرف

نجوة خــالفي

أمام اللجنة المشكلة من:

بن لعلام مخلوف	أستاذ التعليم العالي، جامعة البليدة	رئــيســـــــاً
ساسي عمّـــــار	أستاذ التعليم العالي، جامعة البليدة	مشرفاً ومقررًا
بن زروق نصر الدين	أستاذ محاضر- أ-، جامعة الجزائر	عـضوًا مناقشًا
بودينة نصيرة	أستاذة مساعدة – أ- ،جامعة البليدة	عضواً مناقشاً

البليدة ،جوان 2012

ملخص

يعتبر" المستوى الصوتي" المستوى الأولي الذي تقوم عليه باقي المستويات اللغوية (الإفرادية، و التركيبية)، و مع نزول القرآن تحول اهتمام العرب من لغة الشعر إلى لغته،فأولوه عناية فائقة ، وراحوا يعلمون أبناءهم قبل غيرهم من الأعاجم تلاوة القرآن ، و النطق الصحيح للأصوات وإخراجها من مخارجها ، فكانت بداية الدرس الصوتي مع القراء وعلماء التجويد. ليكون له نصيب بعد ذلك في مؤلفات اللغويين والنحاة الذين كانوا يشكلون مجموعة من المدارس، ارتبط كلٌ منها بإقليم معين ، أشهرها مدرستا البصرة و الكوفة.

ورغم تأخر ظهور مدرسة الكوفة عن مدرسة البصرة إلا أنهـــا بلغت من الصيت و الشهرة بحيث لا تذكر البصرة إلا وتذكر معها الكوفة ، خاصة في مسائل النحوية، وغيرها من المسائل اللغوية،ومن أعلامها أبو جعفر الرؤاسي الذي يعتبر مؤسس المذهب الكوفي، والكسائي وتلميذه الفراء اللذان يشكلان البداية الحقيقية لهذه المدرسة،وثعلب... وغيرهم.

ولقد كان لها باع في الدراسات اللغوية ، ومنها الدراسات الصوتية والتي سوف نخصها بدراستنا هذه، خاصة مع الاتجاهات التي ارتفعت أصواتها في العصر الحديث ،و التي منها ما يرى أنّ الدراسات القديمة بلغت من الدقة ما يغنينا عن المصطلحات و التسميات الحديثة ،ومنها ما يرى ضرورة مواكبة العصر ، و ما هو معروف الدرس الصوتي عند العرب مرّ في نشأته بمرحلتين، حيث مثل القراء المرحلة الأولى ،و كانت الظواهر الصوتية عندهم تضبط بالمشافهة و السّماع ، وتكتسب بالمران و التكرار، أما المرحلة الثانية فقد مثّلها اللغويون و النحاة ، وشهدت تطوراً ملحوظاً في البحث الصوتي حيث توسعت مصادره ليشمل إلى جانب القرآن لغات العرب ، كما قاموا بوصف مختلف الظواهر المتعلقة بالأداء عند القراء ، ودليل ذلك ما ذكره الفراء في ثنايا كتابها"معاني القرآن" والذي خصه لتفسير معاني القرآن ، وبعض التفسيرات اللغوية و وجوه الإعراب، لذلك اعتمدناه في دراستنا .

ولقد ركزنا على مخارج الحروف وصفاتها وكذا الإدغام لأنها من أهم القضايا التي شغلت الباحثين منذ القديم، فتناولناها من منظور الكوفيين و المحدثين ، لنخلص إلى جملة من النتائج تبين موافقة المحدثين لبعض آراء الكوفيين .

شكـــــر

الحمد و الشكر المنَّة أولا وآخرًا للمولى عز وجلَّ؛ الذي أمدَّنا يدَ العون لإنجاز هذا العمل، ويسَّر لنا طريقَ البحث، و سخَّر لنا أشخاصًا كرماء طيبين متعاونين .

إلى أستاذي المشرف الدكتور ساسي عمّــــار ، أتقدم بخالص الشكر والامتنان والعرفان لإرشاداته وتوجيهاته ونصائحه ، وإخلاصه وتفانيه في العمل.

إلى كلّ الأستاذة اللذين ساعدوني و وقفوا إلى جانبي و دعموني .

إلى كل من ساعدني في هذا العمل : بكتاب ، أو فكرة ، أو تشجيع ، أو دعاء، أو أمنية بالتوفيق .

إلى عائلتي الكريمة التي صبرت علي وساندتني في أحنك الظروف خاصة أبي الغالي.

إلى زملائي في الدراسة خاصة فاطمة و أمينة.

وجزيل الشكر و التقدير إلى الأساتذة الأفاضل ، أعضاء لجنة المناقشة ، على صبرهم وتحمُلهم عناء وعبء قراءة المذكرة وتقييمها و تقويمها .

إلى كل هؤلاء أقول :

لو كنتُ أعرف فوق الشكر منزلة

أعلى من الشكر عند الله في الثمن

إذًا منحــــتها لكم مني مهـــــــذبة

حذوًا على حذو ما أوليتم من حَسَن

قائمة الجداول

الرقم		الصفحة
01	نماذج من مصطلحات السماع المرتبطة بالفصاحة في كتاب " معاني القرآن"	58
02	نماذج من مواضع استخدام مصطلح "الحرف " في كتاب "معاني القرآن"	108
03	مخارج الحروف عند المحدثين	132-131
04	صفات الأصوات عند المحدثين	145
05	نماذج من الإدغام الكبير في قراءة الكسائي	153

قائمة الأشكال

الرقم		الصفحة
01	تطور مفهوم الفصيح عند النحويين و اللغويين في القرن الأول و الثاني للهجرة	59
02	تطور مفهوم الفصيح عند النحويين و اللغويين في القرن الثالث للهجرة	60
03	مواطن الفصاحة عبر العصور	65
04	خريطة القبائل العربية في الفترتين الأولى و الثانية من زمن الفصاحة	68
05	مخطط يبين أنواع القياس	94
06	مخطط مخارج الحروف عند الفراء	118
07	شكل هندسي يوضح مخارج الحركات المعيارية	135
08	شكل هندسي يوضح كيفية نطق الصوامت القصيرة	137
09	شكل هندسي يوضح مخارج الصوائت الطويلة	138
10	رسم يوضح وضع الوترين الصوتيين عند الهمس و الجهر	141
11	رسم يوضح وضع الوترين عند النطق بالهمزة	142

الفهرس

ملخص

شكر

قائمة الجداول و الأشكال

مقدمة..10.

تمهيد 15

1.التعريف بمدرسة الكوفة و منهجها في الدراسات اللغوية.........................26

1.1. نشأة مدرسة الكوفة و أشهر أعلامها 30

1.1.1. نشأتها 30

2.1.1. من أعلام المدرسة الكوفية...32

1.2.1.1. الكوفيون و القرآن الكريم..32

2.2.1.1. الكوفيون و النحو العربي..37

3.2.1.1. الكوفيون و فن الرواية...46

2.1. منهجها في الدراسات اللغوية...51

1.2.1. الاستقراء..55

1.1.2.1. تعريفه..55

2.1.2.1. مفهوم الفصاحة...55

3.1.2.1. الفصاحة و الجنس العربي..60

4.1.2.1. تحديد رقعة الفصاحة زماناً و مكاناً....................................61

2.2.1. السماع..69

1.2.2.1. تعريفه..69

2.2.2.1. مصادر السماع 70

1.2.2.2.1. القرآن الكريم...70

2.2.2.2.1. القراءات القرآنية...72

3.2.2.2.1. الحديث النبوي الشريف...77

4.2.2.2.1. الشعر...81

5.2.2.2.1. النثر...82

3.2.2.1. طرق السماع...83

3.2.1. القياس..85

1.3.2.1. مفهوم القياس...85

2.3.2.1. أوجه القياس...87

3.3.2.1. أركان القياس...89

1.3.3.2.1. المقيس عليه..89

2.3.3.2.1. المقيس...90

3.3.3.2.1. الحكم...90

4.3.3.2.1. العلة الجامعة...91

4.3.2.1. أقسام القياس...92

1.4.3.2.1. قياس العلة...92

2.4.3.2.1. قياس الشبه...92.

3.4.3.2.1. قياس الطرد...93

5.3.2.1. منهج القياس عند الكوفيين..95
6.3.2.1. نماذج من القياس الكوفي..98
7.3.2.1. القياس الكوفي في نظر المنتقدين..100
8.3.2.1. القياس الكوفي في نظر اللمدافعين..102
2. الدراسة الصوتية..104
1.2. الدراسة الفوناتيكية..106
1.1.2. حروف العربية ومخارجها و صفاتها عند الكوفيين..107
1.1.1.2. تعريف الحرف..107
2.1.1.2. أصالة الحروف و فرعيتها..110
3.1.1.2. مخارج الأصوات عند الكوفيين..114
1.3.1.1.2. تعريف المخرج..114
2.3.1.1.2. عدد المخارج..115
4.1.1.2. صفات الأصوات عند الكوفيين..119
2.1.2. مخارج الأصوات و صفاتها عند المحدثين..122
1.2.1.2. أصناف الأصوات..123
1.1.2.1.2.القسم الأول..123
2.1.2.1.2. القسم الثاني..124
3.1.2.1.2. القسم الثالث..124
2.2.1.2. مخارج الأصوات الصامتة عند المحدثين..125
3.2.1.2. مخارج الأصوات الصائتة عند المحدثين..133

4.2.1.2. صفات الأصوات العربية عند المحدثين...140
2.2. الدراسة الفونولوجية..147
1.2.2. الإدغام عند الكوفيين..148
1.1.2.2. تعريف الإدغام...148
2.1.2.2. أسباب الإدغام..149
3.1.2.2. أنواع الإدغام...152
4.1.2.2. مواضع الإدغام...154
2.2.2. المماثلة عند المحدثين..162
1.2.2.2. مفهوم المماثلة..162
2.2.2.2. أنواع المماثلة..164
1.2.2.2.2. بحسب اتجاه التأثر...164
2.2.2.2.2. بحسب درجة التأثر...165
3.2.2.2.2. بحسب الاتصال و الانفصال...166
خاتمة..168.
قائمة المصادر و المراجع...171

مقـــدمـــــــــة:

لغة الضاد لغة ثرية ذات جلباب واسعٍ ،وخيال مبحر، ذات ينبوع أبدي زلال، جعلنا لا نزال نتذوق قصيدة امرئ القيس و نستلهم معانيها ،بالرغم من أنها قيلت منذ أكثر من ألف وخمس مئة عام ، وكذلك الحال بالنسبة لعيون الأدب و روائعه فهي لغة القرآن و نبع البيان، ولقد اهتم أهلها بها و حافظوا عليها ،وعملوا على صيانتها من كل ما قد يشوبها فقعَّدوا لها ، وقاموا بدراستها من مختلف الجوانب.

و إن كان هناك من الباحثين من يرى أنّ الدرس اللغوي عند العرب؛كان منحصراً في النحو والصرف، و ما عدا ذلك فهو رافد من الروافد ،إلا أن المتصفح لمؤلفات القدامى يجد أنها تتعدى ذلك ، فهي حافلة بمختلف العلوم والمعارف لها من الدقة والموضوعية العلمية ما ترقى به إلى نتائج الأبحاث العلمية الحديثة . و منها الدرس الصوتي الذي نشأ في أحضان الدراسات اللغوية و النحوية، و التي يمكن أن يؤرّخ لها بنزول القرآن الكريم ، وتدوينه،وتلاوته ، وتعليم قراءته.

إذ يعتبر" المستوى الصوتي" المستوى الأولي الذي تقوم عليه باقي المستويات اللغوية (الإفرادية ، و التركيبية)، و مع نزول القرآن تحول اهتمام العرب من لغة الشعر إلى لغته،فأولوه عناية فائقة ، وراحوا يعلمون أبناءهم قبل غيرهم من الأعاجم تلاوة القرآن ، و النطق الصحيح للأصوات وإخراجها من مخارجها ، فكانت بداية الدرس الصوتي مع القراء وعلماء التجويد. ليكون له نصيب بعد ذلك في مؤلفات اللغويين والنحاة الذين كانوا يشكلون مجموعة من المدارس، ارتبط كلٌ منها بإقليم معين ، أشهرها مدرستا البصرة و الكوفة.

ولقد اشتهر من البصرة أبو الأسود الدؤلي الذي يعود إليه الفضل في وضع اللبنات الأولى للدرس الصوتي العربي، وكذا الخليل بن أحمد الفراهدي في مقدمة معجمه "العين" ، وسيبويه في كتابه ...وغيرهم.

أما مدرسة الكوفـــــة التي وإن تأخر ظهورها عن مدرسة البصرة إلا أنهـــــا بلغت من الصيت و الشهرة بحيث لا تذكر البصرة إلا وتذكر معها الكوفة ، خاصة في مسائل النحوية، وغيرها من المسائل اللغوية،ومن أعلامها أبو جعفر الرؤاسي الذي يعتبر مؤسس المذهب الكوفي،والكسائي وتلميذه الفراء اللذان يشكلان البداية الحقيقية لهذه المدرسة،وثعلب... وغيرهم.

ولقد كان لها باع في الدراسات اللغوية ، ومنها الدراسات الصوتية والتي سوف نخصها بدراستنا هذه، خاصة مع الاتجاهات التي ارتفعت أصواتها في العصر الحديث ،و التي منها ما يرى أنّ الدراسات القديمة من الدقة ما يغنينا عن المصطلحات و التسميات الحديثة ،منها ما يرى ضرورة مواكبة العصر، وفتح باب التعريب على مصراعيه حيث نفوا قدرة المصطلح التراثي على التعبير عن المفاهيم الصوتية الحديثة .

أما أنصار الاتجاه الثالث فقد أولوا المصطلحات التراثية عناية كبيرة ، ونظروا إليها نظرة نقدية تقويمية ، فاكتشفوا مطابقة بعضها لما استقر عليه البحث الصوتي الحديث كما تركوا بعضها بحجة عدم الدقة. وسنحاول من خلال هذا الموضوع ضبط هذه المسألة ، ومعرفة مكانة البحث الصوتي العربي القديم في الصوتيات الحديثة ، لأن المبادئ التي وضعها اللغويون العرب كانت وما زالت مناط إعجاب كثير من المهتمين بالدراسات الصوتية في العالم ، وسنخصص دراستنا لمدرسة الكوفة نظراً لمكانتها في الدرس اللغوي قديماً، ولقلة البحث في اجتهادات علمائها مقارنة بعلماء المدرسة البصرية .

ويقوم بحثنا هذا على إشكالية رئيسة تتجسد في التساؤلات التالية:

- ما هي جهود الكوفيين في الدرس الصوتي؟ - ما الجديد الذي أتى به الكوفيون ؟

- ما قيمة تلك الجهود من منظور الصوتيات العربية الحديثة ؟ .

و تتفرع عن هذه الإشكالية جملة من الإشكاليات الثانوية نذكر منها :

- هل توجد مدرسة اسمها الكوفة ؟ - و ما منهجها في الدراسات اللغوية؟

- ما هو عدد الحروف العربية عند الكوفيين ؟ - هل حدد الكوفيون مخارج الحروف و صفاتها؟

- ماذا ذكر الكوفيون في الإدغام ؟ - كيف تناول المحدثون مسألة الإدغام أو ما يعرف بالمماثلة؟ .

ولقد انطلقنا في بحثنا من فرضيات سنحاول إثبات صحتها ، و قد نصل إلى إثبات عكسها وهي:

- الكوفة تشكل مدرسة لغوية مستقلة .

- الكوفيون درسوا الأصوات اللغوية،وإن لم يفردوا لها مؤلفات،لأنهم اهتموا بالقرآن الكريم وقراءاته، حيث كان منهم ثلاثة من القراء السبعة المشهورين، و نحن نعلم أن بدايات الدرس الصوتي كانت عند القراء و علماء التجويد.

أما اختيارنا لهذا الموضوع فقد كان لدواع، فربّ سائل يقول: لماذا الدرس الصوتي ؟ و لماذا مدرسة الكوفة بالذات ؟

لقد تعددت الأسباب وتنوعت بين الذاتية و الموضوعية، ومنها :

- كون علم الأصوات رغم قدمه إلا أنه يعتبر من العلوم الحديثة التي توجه إليها الدارسون في عصرنا، وذلك إما بترجمة الأبحاث الصوتية الغربية ، أو بدراسة أبحاث القدامى .

- ندرة البحث في الدراسات الصوتية الكوفية ، إذ توجهت معظم الدراسات وجهة البصرة ودرست جهود أعلامها كالخليل و سيبويه...الخ. في الوقت الذي لم نعثر فيه على دراسات معتبرة لجهود الكوفيين الصوتية ، فالحضارة اللغوية ليست بصرة فقط ؛ بل بصرة و كوفة ،إذ تعتبر الكوفة قلعة علمية كان لها دورها في إثراء الرصيد اللغوي و تنميته مشافهةً وتدويناً .

- ما قلناه سابقاً عن اختلاف الدارسين المحدثين في نظرتهم للتراث الصوتي دفعنـــــــا إلى محاولة ضبط ذلك من خلال دراسة التراث الكوفي من منظور الصوتيات الحديثة.

- بالإضافة إلى رغبتنا في أن يكون بحثنا هذا محاولة لرد الاعتبار لجهود الكوفـــــــــة في المسائل الصوتية علماً بأن أبحاثاً قليلة و اجتهادات نيرة أثبتت تفوقها وجدارتها، في الدراسات اللغوية.

- وكذا لأن هذا الموضوع يميل إلى الجانب العلمي ، وهو المجال الذي أرتاح فيه ، وأجد نفسي أقوم بشيء أحبه.

- و أخيراً لأن هذا الموضوع يتماشى مع التخصص.

و تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه محاولةً للبحث في مجال مازال في رأينا بحاجة ماسة إلى دراسات معمقة،خاصة أمام التطور الكبير الذي يشهـــــده الدرس الصوتي في الحضارات الغربية ،مما جعل دراسته ضرورةً ملحةً لمواكبتها ، وانطلاقاً من إيماننا بأن أول التجديد هو قتل القديم دراسة ، اخترنا الدراسة الصوتية عند الكوفيين في ضوء الصوتيات العربية الحديثة . ونحن نبتغي جملةً من الأهداف نرجو تحقيقها ، وهي:

* التعريف بمدرسة الكوفة ، و بأشهر أعلامها، و بمنهجها في الدراسات اللغوية.

*التعريف بحروف العربية و مخارجها و صفاتها عند الكوفيين و المحدثين.

*التعرف على الإدغام عند الكوفيين ، وما يعرف بـــ" المماثلة عند المحدثين.

يمكن لدارس اللغة أن يسلك أياً من مناهج البحث اللغوية الأربعة: الوصفي ، المقارن، التاريخي، و المعياري ، ولكننا في دراستنا هذه سنتناول المنهج الوصفي التحليلي ، فهو الأكثر مناسبة لتحقيق ما نرجو من أهداف ،كما نسعى من خلاله إلى تأكيد صحة فرضياتنا، حيث سنقوم بوصف جهود الكوفيين في الدرس الصوتي من ناحية المصطلحات و ضبطها ، بالإضافة إلى صفات الأصوات و مخارجها ، وكذلك الأمر بالنسبة للإدغام ، كما سنقوم بتحليل هذه المسائل على ضوء الصوتيات العربية الحديثة.

و بما أنه ينبغي أن يكون لكل بحث مساحة يدور في فلكها ، وأن تكون هذه المساحة محددة عن طريق ضوابط تقيّده عند حدّ معين، فلا يتجاوزها من خلال خطة تؤطّره و تضبطه، ليقدم نفسه للمتلقي في رؤية واضحة، وسبل كاشفة .

قسمنا بحثنا إلى فصلين، بعد الفراغ من المقدمة،والتمهيد خصصنا الفصل الأول للحديث عن : " مدرسة الكوفة و منهجها في الدراسات اللغوية" ، " و الذي مهدنا له بالحديث عن مفهوم المدرسة ، و تطرقنا فيه إلى المباحث التالية:

المبحث الأول المعنون ب"نشأة مدرسة الكوفة وأشهر أعلامها" ، و الذي تحدثنا فيه عن نشأة المدرسة الكوفية، وأشهر أعلامها في القراءات القرآنية و النحو و الرواية.

أما المبحث الثاني: فقد تناولنا فيه التعريف بالمنهج ، وأنواع المناهج اللغوية ، ثم منهج الكوفة في الدراسات اللغوية من استقراءِ، و سماع، و قياس.

و خصصنا الفصل الثاني للدراسة الصوتية ، وقد اشتمل هذا الفصل على مبحثين و هما :

المبحث الأول : و الذي عنوناه بالدراسة الفونيتيكية ؛ تطرقنا فيه إلى عنصرين أساسيين، تناولنا في العنصر الأول مخارج الحروف وصفاتها عند الكوفيين، و تناولنا في العنصر الثاني نفس الموضوع ولكن عند المحدثين.

ليشمل المبحث الثاني: الدراسة الفونولوجية و التي خصصناها لدراسة الإدغام عند الكوفيين والمماثلة عند المحدثين.

وذيلنا هذه الدراسة بخاتمة حاولنا من خلالها الوقوف على أهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث.

و لأن حلاوة العمل تكمن في مواجهة الصعوبات التي تعترضه ، فكانت سعادتنا كبيرة في محاولة مواجهتها ، ولقد لعب التحدي دوراً كبيراً في بحثنا هذا، ومن الصعوبات التي واجهتنا

نذكر:

* قلة البحوث و الدراسات الأكاديمية فيما اطلعنا عليه في هذا الموضوع .

*توزع المادة في مختلف المصادر النحوية و اللغوية و القرآنية.

* الدقة التي يتميز بها موضوع البحث .

*و لا ننكر خوفنا منذ بداية البحث ،لأننا كنا نرى أنفسنا كمن يعيد غزل الصوف و يريد بيعه في شارع الغزالين، ولَكَمْ خفنا أن نصل في نهاية البحث إلى حال من قال:

و لم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل و قالوا

لذلك حاولنا قدر المستطاع إبراز شخصيتنا وسط ما قيل .

ولقد اعتمدنا على جملة من المصادر و المراجع في مقدمتها "معاني القرآن" للفراء، و كتب القراءات القرآنية ، وكتب اللغة و النحو، و كتب الصوتيات الحديثة .

ونحن لا ندعي لهذا البحث كمالاً ، فالنقص من سمات البشر ،و الكمال لله وحده، و حسبنا أننا أخلصنا الجهد، و ما توفيقنا إلا بالله العلّي القدير، و لا يفوتنا أن نرسل شكرنا العميق و الخالص، لأستاذنا المشرف : الدكتور عمّار ساسي ، إذ نسأل الله أن يجزيه عنَّا خير الجزاء، ويجعل علمه ذخراً له لبلوغ أعلى درجات الفردوس.

و أخيراً لا يفوتنا أن نعرب عن خالص الشكر و الامتنان للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة ونأمل أن نصيب الغاية المرجوة من البحث ، ولنا من انتقاداتهم و توجيهاتهم ما يرشدنا إلى بلوغ ذروة النجاح و الفلاح في خدمة لغتنا الغالية.

و الحمد لله أولاً و آخراً

تمهيد:

دوافع الدرس الصوتي و بواكيره

نشأت اللغة العربية في أحضان الجزيرة العربية خالصة لأبنائها نقية سليمة،فأولوها أهمية بالغة، وعملوا على الحفاظ عليها وصيانتها منذ العصر الجاهلي، فبلغوا بها غاية الكمـــال، وقد ســــــاعدهم على ذلك تلك التجمعات و المنتديات الأدبية التي كانوا يعقدونها على مدار السنة ، مثل: سوق "ذو المجاز" ،وسوق"مجنة" ،وسوق"عكاظ" الذي كان يعتبر (ملكة مواسم العرب ، ومنتداهم الاجتماعي، ومجمعهم اللغوي) [1] ص:147 ،حيث يلتقي فيه العرب للتجارة و التنافس في اللغة ،و المفاخرة في البيان، وتناشد الأشعار، وبذلك استطاعوا المحافظة«على الصوت المنطوق و صيانته من حيث موقع حدوثه و كمياته و تلويناته، وبهذا استقرت المفردات على معانيها، و التراكيب على قوالبـــــها، و الأساليب على أشكالها، و تحصلت اللغة على قانون اجتماعي طبيعي عرفي متفق عليه»[2] ص:05.

وبهذا امتلك العرب ناصية لغتهم ،وتحكموا في أساليبها، وتكونت ملكتها.هذا في المرحلة الأولى لتأتي بعد ذلك مرحلة الدراسة و التقعيد لهذه اللغة ، والتي كانت لدوافع معينة دفعتها قدماً إلى الأمام، و من بين هذه الدراسات : الدرس الصوتي الذي توفرت له دوافع انبثقت من الظروف التي مرَّ بها المجتمع العربي الإسلامي، و التي انتهت بظهور بوادر كانت في البداية بسيطة ساذجة ، نمت شيئاً فشيئاً إلى أن وصلت إلى علم في غاية الدقة، أبهر مختلف الشعوب و الأمم .

1- دوافع الدرس الصوتي :

لقد ارتبط ظهور الدرس الصوتي عند العرب بجملة من الدَّواعي في مقدمتها اللّحن الذي شاع وانتشر بسبب الانقلاب الذي أحدثه الإسلام في المجتمع العربي،فبتوسع الفتوحات الإسلامية ودخول الأعاجم في الإسلام بحضارتهم و لغاتهم وجدوا صعوبة كبيرة في نطق الأصوات العربية بشكل صحيح ،وبدأ اللحن بعدما « كان اللسان العربي عندهم – أي العرب– صحيحاً محروساً لا يتداخله الخلل ولا يتطرّق إليه الزّلل. إلى أن فتحت الأمصار وخالط العرب غير جنسهم(...) فاختلطت الفرق و امتزجت الألسن»[3] ص:05. و اللّحن حسب ابن فارس هو: « إمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية. يقال لحن لَحْناً و هذا عندنا مــــن الكلام المولّـــد ، لأنّ اللّحن مُحْدَث لم يكن فـــي العرب العـــاربة الذين تكلّموا بطبـــــائعهم السَّليمة»[4] 239/5.

ومنه فإن العرب لم تعرف اللَّحن بمعنى الخطأ و الميل عن أصل الأداء العربي إلا بمخالطتها الأمم الأخرى التي جمعها الإسلام في شعبٍ واحد ، دينه الإسلام ،و كتابه القرآن ،و لغته العربية ،فكان لزاماً على الأعجمي أن يتكلم العربية ،كما كان لزاماً على العربي أن يترفق به ، ويسمع منه ، وبما أن السمع سبيل الملكات اللسانية فقد تسرب اللحن إلى سليقة العربي ، أما الأعجمي فقد كان ينزع دون قصد إلى بني جلدته، وخير مثال على ذلك ما رواه الجاحظ عن صهيب بن سنان الذي اختطفه الرومان في طفولته،فشبّ بينهم وتربى على عاداتهم النطقية، فكان يصعب عليه النطق بالحروف العربية ، حيث رُوِي أنه كان يبدل "الحاء" "هاءً" ، في مثل قوله: "إنّك لهائن" يريد:"لحَائِن" ، أي : هالك [5] 32/1.

ولقد مس اللّحن مختلف المستويات اللغوية و منها المستوى الصوتي ،حيث اقتصر اللحن – في هذا المستوى- في البداية على الأعاجم إذ استعصى عليهم نطق بعض الأصوات العربية خاصة أصوات الحلق وأصوات الإطباق ،فاستبدلوها بأصوات أخرى أسهل، مثلما رُوِي عن صهيب بن سنان الذي كان يتكلم الرومية ، وسلمان الفارسية، وبلال وسحيم عبد بنى الحسحاس الحبشية[6] ص:15. كما أن هناك من الأعاجم من كان يميل إلى التفخيم المحض لسائر الأصوات العربية، وهذا«لا يجوز في القرآن، بل هو معدوم في لغة العرب، وإنما يوجد في لفظ عجم الفرس، ولاسيما أهل خراسان» [7] 30/2.

لتنتقل بعد ذلك عدوى اللحن -من العجم - وتتسرب إلى ألسنة العرب بسبب الاختلاط المستمر في البيوت والأسواق و المساجد....، و الأدهى من ذلك وقوع قراء الذكر الحكيم فيه، حيث يقول ابن الجزري : « أصل الخلل الوارد على ألسنة القراء في هذه البلاد و ما التحق بها هو إطلاق التفخيمات و التغليظات على طريق أَلِفتها الطباعات ،تلقيت من العجم، واعتادتها النبط و اكتسبها بعض العرب » [7] 215/1،و لقد هال هذا الأمر العلماء و ولاة الأمر وأيقنوا أن هذا اللّحن قد يؤدي إلى تصدع بنيان العربية وضياع أصواتها لذلك لا بُدَّ من التصدي له،وهذاما قام به علماؤنا الأجلاء.

- كما يمكن اعتبار الاختلافات الصوتية التي كانت بين القراء من الدوافع التي مهدت لظهور الدرس الصوتي،والتي يمكن تفسيرها باختلاف اللهجات العربية ، وذلك تيسيراً من الرحمـــٰـــن على عباده ، حيث قال - صلى الله عليه وسلم- :«إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسَّر منه » [8] 100/6. ولم يكن صلى الله عليه وسلم يقصد بالسبعة عدداً محددًا، وإنما قصد بذلك كثرة الوجوه التي رخص الله لعباده القراءة بها .[9] ص:10.

ولقد شملت الفروق الصوتية بين اللهجات الصوائت والصوامت ، سواء كانت الصوائت قصـــــيرة في مثل قول ابن فارس:« اختلاف لغات العرب من وجوه أحدها الاختلاف في الحركات ،كقولنا: "نَستعين " و"نِستعين" بفتح النون وكسرها، قال الفراء: هي مفتوحة في لغة قريش،و أسد وغيرهم يقولونها بكسر النون» [10] ص:25، أم طويلة مثل إشباع الحركة،نحو ما أنشد الفراء:

الله يعلـــــمُ أنَّـــــــا فـــي تلفتنا يوم الفراق – إلى جيراننا- صُورُ

وأنَّني حيث ما يَثْني الهوى بصري - من حيث ما سلكوا- أدنوا فأنظور [11] 42/1

فقد أشبع ضمة "الظاء" فأصبحت "واوا".

أما الاختلاف في الصوامت فمثل إبدال صوت بآخر ، ف"الثاء" عند أهل تميم تقابل الفاء عند أهل الحجاز[12] 465/1 ، و قد نزلت الآية الكريمة: « .. **فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا..**»[البقرة :61] على لغة أهل الحجاز.

كما كانت تعرية المصحف من النقط سبباً آخر في ظهور الاختلافات الصوتية، حيث تقرأ الكلمة الواحدة بكل الوجوه التي يحتملها الرسم،وذلك إما في الحركات بلا تغيير في المعنى و الصورة،نحو:

قوله تعالى: «**وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ..** »[النساء:37] "البخل" قرئت بأربعة أوجه. وإما في الحروف بتغيير المعنى لا الصورة، نحو(تبلوا ،و تتلوا) [7] 26/1.

ولقد كانت كثرة هذه الاختلافات الصوتية و تنوعها حافزاً قوياً لدراسة الأصوات العربية، فقد أولى القراء الأصوات عناية كبيرة، وأجمعوا على عدم صحة الصّلاة وراء من لا يحسن القراءة، كما «عد العلماء القراءة بغير تجويد لحناً وعدوا القارئ بها لحاناً،و قسموا اللحن إلى جلي و خفي» [7] 211/1.

و رغم العناية الكبيرة التي أولاها القراء لعلم الأصوات ، إلا أن عملهم ظلَّ مجرد صور سمعية يتوارثها قارئ عن آخر .

ومن دوافع الدرس الصوتي عند العرب إدراك العلماء أهمية هذا الدرس بالنسبة إلى كل فروع علم اللغة الأخرى، فقد تنبه علماء المعاجم إلى أنّه لا يمكن حصر كلام العرب، إلا باستثمار معطيات علم الأصوات، ويظهر هذا جلياً عند رائد هذا الميدان ،و هو الخليل بن أحمد الفراهدي حيث يقول: «بدأنا في مؤلفنا هذا بالعين وهو أقصى الحروف ، ونضم إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب الواضح

و الغريب » [13] 60/1. ويؤكد هذا أيضاً تلميذه الليث بن المظفر ، حيث يقول: « لو أن إنساناً قصد و ألّف حروف : الألف و الباء و التاء و الثاء على ما أمثّله لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب» [14] ص:43، ليتبع الخليل في تصدير المعاجم بدراسة للأصوات مجموعة من العلماء ، منهم الأزهري في تهذيب اللغة.

أما بالنسبة للنحاة ففي دراساتهم صادفوا ظواهر لا تفسر إلا في ضوء علم الأصوات ، فكان لا بدَّ من التمهيد لها بدراسة للأصوات ، ومن أبرز هذه الظواهر ظاهرة الإدغام، ومثال ذلك سيبويه في كتابه لما تناول موضوع الإدغام تعرض للأصوات ، حيث يقول: « هذا باب عدد الحروف العربية،ومخارجها ومهموسها و مجهورها وأحوال مجهورها و مهموسها واختلافها..»[15] 431/4 . و بعدما ينهي وصفه لمخارج الأصوات و ما يتعلق بها يقول مبيِّناً الغرض من ذلك:«إنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام، و ما يجوز فيه، و ما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه » [15] 436/4، و لقد سار على نهج سيبويه كل من جاء بعده من النحاة.

هذه أهم الدوافع التي دفعت علماءنا إلى دراسة الأصوات ، إلا أن عملهم هذا ظلَّ مجرد ملاحظات منثورة في أبواب النحو و الصرف، حتى أنهم لم يضعوا مصطلحاً لعلم يشمل ما توصلوا إليه من ظواهر صوتية، فقد ظلَّ المصطلح علم الأصوات غائباً طيلة القرون الثلاثة الأولى .

2- بواكير الدرس الصوتي:

نشأت الصوتيات العربية في أحضان القرآن الكريم ،وقد سمي القرآن قرآنا كونه متلواً بالألسن، كما أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم تلقاه مشافهة عن الروح الأمين جبريل عليه السلام، قال تعالى: (**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآَنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآَنَهُ**) [القيامة:16-17] ، و لقد كانت الآيات القرآنية تأمر النبي صلى الله عليه وسلم وعامة المسلمين بالعناية بجانب القراءة والتلاوة الصحيحة، فكما أن القرآن مُتَعبّدٌ بأحكامه، متعبّدٌ بتلاوته ، لقوله عز وجل (**....وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا**)[المزمل:04]، ومعنى ذلك « تلبث في قراءته وتمهل فيها، وافصل الحرف من الحرف الذي بعده، و لم يقتصر سبحانه على الأمر بالفعل حتّى أكده بالمصدر اهتماماً به وتعظيماً له »[7] 208/1 ،لذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم بحاجة إلى تعلّم قراءة القرآن الكريم مباشرة بالاستماع إلى قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنّ الآيات القرآنية جوهر هذا الدين، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان للحرف الواحد من القرآن

الكريم أهمية كبيرة، فالحرف بحسنة والحسنة بعشر أمثالها والله يضاعف لم يشاء، قال صلى الله عليه وسلم : " من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها "[7] 208/1.

وبهذا أدرك الصحابة رضوان الله عليهم أهمية الحرف فكانوا يهتمون به،ويتحرون الدقة في النطق به،لذلك كانوا يعتبرون من ينطق بغيره مخطئا،فقد رُويَ عن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- أنه قال :« سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها – و في رواية : على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم – فقلت :يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:" أرْسلْه، اقرأ"فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ،فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-:"هكذا أنزِلَتْ"،ثم قال لي:

" هكذا أنزِلَتْ ،إنّ هذا القرآن أنزلَ على سبعة أحرف ؛ فاقرؤُوا ما تَيسّر منه" »[16] 211/1، وبهذا أدركوا أنّ قراءة النبي صلى الله عليه وسلم تأخذ أوجها عديدة تيسيرا على الأمة في قراءة كتاب ربّها جلّ وعلا.

وقد تولى كتابة القرآن الكريم جماعة مباركة من الصحابة رضوان الله عليهم بإشراف منه صلى الله عليه وسلم ،وقد بلغ عددهم أربعة عشر رجلا وقيل أكثر ،وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب. قال عثمان بن عفان رضي الله عنه في حديث أخرجه أبو داود والترمذي: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، وكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب ،فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، فإذا نزل عليه الآيـــة فيقول ضعـــوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا »[17] ص:69.

وهكذا كتب القرآن الكريم قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليجمع في مصحف واحد في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ،و الذي أوكل إلى زيد بن ثابت هذه المهمة ، ومع اتساع رقعة الفتوحات الإسلامية وتفرق المسلمين في مختلف الأقطار والأمصار، واشتهار كل بلد بقراءة صحابيّ - أهل الشام كانوا يقرؤون بقراءة أبّي بن كعب، وأهل الكوفة بقراءة عبد الله بن مسعود....- جعل عدد القراء يزداد ،والقراءات تتشعب ،فسبب هذا الاختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءات النزاع والشقاق بينهم، وكاد بعضهم يكفّر بعضا بسبب اختلاف القراءة ،فأمر عثمان بن عفان كلاً من: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بنسخ

الصحف التي كانت عند السيدة حفصة - رضي الله عنها - فنسخوا سبعة مصاحف، أرسلت إلى: (مكة-الشام-البصرة-الكوفة-اليمن-البحرين-المدينة) ،أمّا ما وجد في سواها من القرآن سواء في صحيفة أو مصحف فقد أمر أن يحرق[16] 233/1-240 .

وقد حاولوا جاهدين أن يعكس رسم المصحف الأوجه المختلفة للقراءات،حيث تميز المصحف العثماني بمراعاة الجوانب المتعلقة بالقراءة ، فكثير من ألفاظ القرآن الكريم دوّنت بطريقة خاصة تختلف عما ألفه الناس من طرائق التدوين، فالكتابــة التي اعتمدوها تشبه الكــتابة الصوتية العالمــية في عصرنا الحالي، فهي لا تعبّر إلاّ عن المنطوق فقط، حيث يرمز لكل صوت بإشارة خطية واحدة لا تتغير، وكل رمز خطي فيها له قيمة صوتية واحدة عند الكتابة، فقد تمَّ فيه مراعاة جوانب الأداء الصوتي، فالكلمة الواحدة قد ترسم عند علماء القراءات بصورتين مختلفتين، لأنّها تُؤدي صوتيا بطريقتين مختلفتين،يقــول أبو عمــرو الداني:«واتّفقت المصـــاحف على حذف الواو التي في صورة

الهمزة دلالة على تحقيقها في قوله : "الرُّءْيَا"و"رُءْيَاك"و"رُءْيَايَ" في جميع القرآن » [18] ص:43، فلم تثبت صورة الواو في الأمثلة دلالة على أنّها همزة لا تُؤدى إلاّ كاملة بإخراجها من الحلق، في حين كُتبت الهمزة بصورة الواو في (المؤمنون) مثلا دلالة على أنّها يمكن أن تخفف وتُليّن أي تُسهل في النطق إلى واو ،ولا نعتمد في إخراجها كلية على الحلق. فهذا النوع من الكتابة ساعد في تسجيل القراءة وضبطها.

وقد أثرت القراءات القرآنية في الدراسات الصوتية تأثيرا كبيرا ، ذلك أنّها في حقيقة الأمر ليست إلاّ وجوه أداء وتنوع في الصوت تؤول إلى ما كانت عليه لهجات العرب قديما [19] مجلد2،52/72، ومن هنا كانت على اختلاف رواياتها سجلا دقيقا لما كان يجري في كلام العرب من تصرفات صوتية ولغوية،« وبهذا كان القرآن – في قراءاته- خير حافظ للغات واللهجات،بفضل عناية القراء ، وتدقيقهم في الضبط ،وتخريجهم في التلقي ،حتى إنّهم ليراعون اليسير من الخلاف »[20] ص:77،فالقراءات تعتمد أساسا على النطق المجود والسماع الدقيق والتلقي الصحيح وهي بذلك وجوه صوتية كاملة تزخر بالظواهر التي تحتاج إلى إتباع نهج العرب الفصحاء في النطق، بما في ذلك الاختلافات التي عرفت بينهم فيه،والتي جوزها القراء ، عند توفر القراءة على كامل شروطها[21]ص:66.

وقد أولى القراء صحة النطق بالأصوات العربية عناية كبيرة خاصة في الترتيل القرآني، فحذروا المتعلمين من الزلل في النطق بها وأبانوا لهم الأخطاء الشائعة في لهجات الكلام بغية اجتناب الوقوع فيها ، كما أقروا أصول التلاوة ، و نصوا على وجوب اتباعها ، لأن «حسن الأداء فرض في القراءة»[7] 211/1 . ونذكر من أصول الأداء : الإظهار، و الإدغام، و الإشمام، و التفخيم، والترقيق، والمد،و القصر ،و الإمالة، والفتح، و التحقيق، و التسهيل و الإبدال.[7] 26/1..الخ .

ومن هذه الأصول ما روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – و الصحابة بمصطلحه العلمي الذي استقر عليه ،نحو: الهَمْز، و الإمالة،والوقف، و المَدّ . ومنها ما رُوِيَّ عنهم استعمالاً دون أن يكون له مصطلح يعرف به كالإدغام،و الرُّوم، و الإشمام ....

وهكذا كان للقراءات القرآنية ووجوهها الصوتية فضلٌ كبيرٌ، ودورٌ مهمٌ في انبعاث الدرس الصوتي الذي بُنِيَّ أساسا عليها (وهو علم وإن كان متأخرا من حيث الوضع النظري عن العلوم العربية الأخرى كالنحو فإنه أسبق منها من حيث الواقع العملي، وقد كان علماء النحو القدماء أئمة في القراءة على ما نعرف عن أبي عمرو بن العلاء والكسائي ،فقراءة القرآن هي التي جعلت علماء العربية القدماء يتأملون أصوات اللغة ،ويلاحظونها هذه الملاحظة الذاتية التي أنتجت في وقت مبكر جدا دراسة طيبة للأصوات العربية لا تبتعد كثيرا عما يقرره المحدثون)[22] ص:129-130.

وخير ما يمكن الاستشهاد به فيما يخص الملاحظة الذاتية للأصوات ،والتي كانت في فترة مبكرة هي ملاحظة أبي الأسود الدؤلي (ت 69هـ) لحركة الشفتين من أجل ضبط القرآن الكريم بالنقط ، حيث قال لكاتبه الذي رافقه؛ وهو رجل من "عبد القيس" :«خُذِ المصحف وصِبْغاً يخالف لون المِداد فإذا فتحتُ شفتيَّ فانْقُط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتهما فانقط بين يديْ الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله، فإذا أتبعتُ شيئا من هذه الحركات غنّة فانقط نقطتين »[23]ص:04، وكان أبو الأسود الدؤلي يقرأ المصحف بالتأني، والكاتب يضع النقط، واستمر على ذلك حتى أعرب المصحف كله، و كلما أتمّ الكاتب صحيفة، أعاد أبو الأسود نظره فيها. وكانت هذه أول خطوة علمية لصيانة اللغة العربية و تحصينها من اللّحن النحوي، بناها أبو الأسود الدؤلي على أساس صوتي .

فقد تفطن أبو الأسود إلى دور الشفتين في النطق بهذه الأصوات (الفتحة، الضمة، الكسرة) ، كما أشار إلى التّنوين ، وإن لم يطلق عليه هذا المصطلح، إلا أنه أدرك صفة من صفاته وهي : "الغنة".

ومن هنا انتشر نقط المصاحف على هذا الشكل، وشاع في الأمصار تحت اسم "رسم المصحف" .

وجاء تلاميذ أبي الأسود بعده، وتفننوا في شكل النقطة: فمنهم مَن جعلها مربعة، ومنهم من جعلها مدورة مطموسة الوسط، ومنهم من جعلها مدورة خالية الوسط . وكانوا لا يضعون شيئًا أمام الحرف الساكن، أما إذا كان منونًا فيضعون نقطتين فوقه، أو تحته،أو عن شماله؛واحدة للدلالة على أن النون مدغمة أو مخفاة، وفي تطور لاحق وضعوا للسكون جرة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه، وجعلوا علامة الحرف المشدد كالقوس، ولألف الوصل جرة متصلة بها في أعلاها، إذا كان قبلها فتحة، وفي أسفلها إذا كان قبلها كسرة، وفي وسطها إذا كان قبلها ضمة وهكـــــذا، وذلك باللون الأحمر. وكان هذا النقط يُسمى شكلا أو ضبطًا؛ لأنه يدل على شكل الحرف وصورته، وما يعرض له من حركة، أو سكون، أو شد، أو مد، ونحو ذلك[23] ص:05-06.

لقد كان عمل أبي الأسود الدؤلي من أجل صيانة اللسان العربي من اللّحن ، إلاّ أنه سرعان ما ظهر مشكل آخر – خاصة عند غير العرب- و هو مشكل التمييز بين الحروف المتشابهة في الرسم، نحو: الباء، والتاء، والثاء، والياء/ الجيم ،والحاء ،والخاء/ الراء ،والزاي/ السين، والشين/ العين، الغين/ الفاء والقاف، ونحوها مما يتفق في الرسم ويختلف في النطق، فكثر التصحيف في لغة العرب، فكان لا بدّ من التصدي لذلك ، فظهر ما يعرف "بنقط الإعجام "؛ وهو ما يدل على ذات الحرف ، ويميز المتشابه منه لمنع العجمة أو اللبس.

وقد اختلفت الآراء في أول من أخذ بهذا النقط، أهو نصر بن عاصم أو يحيى بن يَعْمَر، حيث ذهب الجاحظ إلى أنّ نصر بن عاصم هو أول من وضع نقط الإعجام ،وذهب أبو بكر الزبيدي إلى أن هذا عمل يحيى بن يعمر[24] 7/17-18 ، لذلك نجد مِن المحدثين مَن اكتفى بالقول أن هذا عمل تلامذة أبي الأسود الدؤلي دون تحديد [25] ص:20،و منهم من يرى أنه عمل مشترك بين نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر»[26] ص:79. ولهذا نقول أن ما قام به نصر بن عاصم أو يحيى بن يعمر يعتبر خطوة مهمة لصيانة اللّسان العربي من الخطأ الصوتي .وذلك باعتماد الإهمال والإعجام، مثلا الدال والذال، تهمل الأولى وتعجم الثانية بنقطة واحدة فوقية، وكذلك الراء والزاي، والصاد والضاد، والطاء والظاء، والعين والغين .أما السين والشين، فأهملت الأولى وأعجمت الثانية بثلاث نقط فوقية؛ لأنها ثلاث أسنان، فلو أعجمت الثانية واحدة لتوهم متوهم أن الحرف الذي تحت النقطة نون والباقي حرفان مثل الباء والتاء تم التساهل في إعجامهما.

أما الباء والتاء والثاء والنون والياء، فأعجمت كلها، والجيم والحاء والخاء، أعجمت الجيم والخاء، وأهملت الحاء، أما الفاء والقاف، فإن القياس أن تهمل الأولى وتعجم الثانية، إلا أن المشارقة نقطوا الفاء

بواحدة فوقية، والقاف باثنتين فوقيتين أيضًا، أما المغاربة فذهبوا إلى نقط الفاء بواحدة تحتية، والقاف بواحدة فوقية.. وهكذا كان نَقْطُ الإعجام في بقية الأحرف،و ذلك باستخدام لون مداد المصحف.

ولكن المشاكل لم تنته بهذا ، فقد ظهرت مشكلة جديدة ألا وهي كثرة النقاط في المصحف ، وإن كانت بألوان مختلفة فقد أحدثت التباساً، وكان لابُدَّ من إيجاد حلٍّ جذريٍّ لها ، فأتى الخليل بن أحمد الفراهدي وابتكر للإعراب علامات بدلا من النقط (الشكل) بمداد الكتابة نفسه تيسيرًا على الناس؛ فجعل الفتحة ألفًا صغيرة مضطجعة فوق الحرف، والكسرة ياء صغيرة تحته، والضمة واوًا صغيرة فوقه. وإن كان الحرف منوّنًا كـــرر الحرف ، وجعل ما فيه إدغام من السكون الشديد رأس

شين بغير نقط (ســ)، وما ليس فيه إدغام من السكون الخفيف رأس خاء بلا نقط (حــ)، والهمزة رأس عين (عــ)، وفوق ألف الوصل رأس صاد (صــ)، وللمد الواجب ميمًا صغيرة مع جزء من الدال (مد)، وقد استعار أسماءها من أبي الأسود الدؤلي حين قال: (فتحت، ضممت، كسرت) فجعلها الخليل (الفتحة، الضمة، الكسرة). لهذا قيل أن " الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل"[23] ص:40.

وظهر في القرن الثاني للهجرة على يديه أول مصنف يشمل دراسةً صوتيةً دقيقةً ،وهو معجم "العين " ،على الرغم من وجود بعض الآراء التي تشكك في حقيقة نسبة "كتاب العين" للخليل، كذلك في مادة الكتاب ونسخه وتمامه وروايته و ما يتصل بمحتواه.إلاّ أنّ معظم الدارسين يجمعون على أن فكرة الكتاب هي "للخليل " , و أنّ ما حُشِي به هو من وضع تلميذه " اللّيث بن المظّفر"[27] ص:30، فلا يسعنا سوى الاعتراف بما قدمه الخليل للغة العربية ،فقد أجاد في هذا العلم إضافة إلى علوم لغوية أخرى، فهو مؤسس علم العروض عند العرب.

وأكثر ما تتميز به دراسات الخليل، ذلك الجانب الموسيقي الذي يلاحظ:«**في علاجه للعروض**

والموسيقى وترتيبه المعجم على حسب المخارج ، فالخليل و لا شك كان مرهف الأذن، دقيق الحس بالأصوات ... وأعتمد الخليل في وصفه للأصوات على ما يحسه بنفسه من اختلاف في أوضاع أعضاء النطق معها، وعلى العملية العضلية التي يقوم بها المرء لدى صدور كل صوت، وعلى وقع هذا الصوت في أذن السامع ، دون أن يكون لديه شيء من الإمكانيات الحديثة من آلات التسجيل و التصوير أو معرفة بنظريات التشريح »[28] ص:104-105.

وتتجلّى الدراسة الصوتية عند الخليل في مقدمة معجمه "العين" ،حيث يقول محقق المعجم :

«في هذه المقدمة بواكير المعلومات الصوتية لم يدركها علم فيما خلا العربية من اللغات إلاّ بعد قرون عدّة من عصر الخليل»[13] 10/1.وقد سار في تصنيفه للأصوات حسب " موضع النطق" أو حسب "الأحياز و المخارج". وتصنيفه للأصوات جعله يتوصل إلى تقسيمها إلى الأصوات الصحيحة أو " الحروف الصحاح"، و الأصوات "اللينة أو الهوائية" و هو ما يطابق تصنيف المحدثين إلى الأصوات الصامتة و الأصوات الصائتة أو المصوتة [22] ص:130 .

فهو يقول في هذا الصدد **:« في العربية تسعة و عشرون حرفا : منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا لها أحيازا ومدارح، وأربعة أحرف جوف و هي : الواو و الياء و الألف اللينة و الهمزة،**

وسميت جوفا لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان ، ولا من مدرج الحلق، و لا من مدرج اللهــاة، وإنما هي لهويـــة في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف ،

وكان يقول كثيرا الألف اللينة،والواو و الياء هوائية أي أنها في الهواء...

فهذه صورة الحروف التي ألفت منها العربية على الولاء ، وهي تسعة وعشرون حرفا : ع،ح،هــ،خ،غ ،ق ،ك،ج، ش، ض،ص ، س ،ز،ط ،د، ت،ظ ،ث ،ذ،ر،ل ،ن ،ف،ب ،م.

فهذه الحروف الصحاح،وايء فهذه تسعة وعشرون حرفا منها أبنية كلام العرب"[13] 1/57-58.

كما أن الخليل كان سباقا لمعرفة مخارج الحروف وكيفية الوصول إليها، وظهر ذلك في ترتيبه لمعجمه العين الذي نظم مادته على أساس مخارج الأصوات ، إذ يقول عنه تلميذه الليث بن المضفر: «**و إنما كان ذوقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف نحو ابْ ،اتْ ،احْ ، اعْ، أغْ، فوجد العين أدخل الحروف في الحلق فجعلها أول الكتاب ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم »**[13] 1/47.

ومعنى هذا أنه تفطن إلى أنّ النطق بالصوت ساكناً يبعده عن الاختلاط بغيره، وهكذا لا يلتبس الناطق في معرفة كيفية صدوره ومخرجه الدقيق ،وهذه الطريقة تتقارب مع ما وصل إليه المحدثون.[29] ص:15

وقد تنبه الخليل أيضا إلى العلاقة بين الحركات القصار و الحركات الطوال،فجعل :للفتحة ألفاً صغيرة ،مضطجعة، فوق الحرف ، وللكسرة ياء صغيرة تحت الحرف، وللضمة واوا صغيرة فوقه.

و يرى الخليل أنّ:« **الألف في اسحنكك و اقشعرّ واسحنفر واسبكرّ ليست في أصل البناء ، وإنّما أدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عمادا أو سلما للسان إلى حرف البناء، لأنّ اللسان لا ينطق بالساكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل..»**[13] 49/1.

كما أشار الخليل إلى بعض النواحي التي تُراعَى في تأليف الكلمات وأنّ الكلمات الرباعية و الخماسية لا بد أن تشمل على أحد حروف الذلاقة (م،ن،ف،ر،ل، ب) ، وإلا كانت الكلمة أعجمية [13] 52/1

ومثلما ذكرنا سابقاً فقد رتب الخليل معجمه –العين- بحسب مخارج الأصوات في جهاز النطق حيث بدأ بالحروف الحلقية (ع،ح،هـ،خ،غ) وهي أعمق الحروف، ثم الحروف اللهوية (ق،ك)، ثم الشجرية (ج،ش،ض) ، ثم الأسلية (ص،س،ز) ،فالنطعية (ط،د،ت) ، بعدها اللثوية(ظ،ذ،ث) ،

فالذلقية (ر،ل،ن)، ثم الشفوية (ف،ب، م) وأخيرا الحروف الهوائية (و،أ،ي) [13] 58/1 .

ليتبع الفراهدي بعد ذلك تلميذه سيبويه في إهتمام بمختلف الظواهر الصوتية في كتابه ، و سار على نهجهما اللغويون و النحاة .

ونخلص بهذا إلى أن الدرس الصوتي عند العرب مرّ في نشأته بمرحلتين، حيث مثل القراء المرحلة الأولى ، و كانت الظواهر الصوتية عندهم تضبط بالمشافهة و السّماع ، وتكتسب بالمران و التكرار. أما المرحلة الثانية فقد مثّلها اللغويون و النحاة ، وشهدت تطوراً ملحوظاً في البحث الصوتي حيث توسعت مصادره ليشمل إلى جانب القرآن لغات العرب ، كما قاموا بوصف مختلف الظواهر المتعلقة بالأداء عند القراء ، وتسجيلها في كتب اللغة و النحو ، وتعود الريادة الحقيقية لدّرس الصوتي في هذه المرحلة إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي .

الفصل الأول:التعريف بمدرسة الكوفة ومنهجها في الدراسات اللغوية.

تمهيد

قبل الحديث عن الكوفة وأعلامها ومنهجها ارتأينا أن نمهد لذلك بتوضيح أمر في غاية الأهمية، ألا وهو مصطلح "المدرسة" الذي سنستخدمه في بحثنا والذي كان مثار جدل و نقاش بين الدارسين. فالمدرسة كما عرفها مجمع اللغة العربية بالقاهرة هي «جماعة من الفلاسفة أو المفكرين أو الباحثين تعتنق مذهباً معيناً , أو تقول برأي مشترك(مج) و يقال:هو من مدرسة فلان:على رأيه ومذهبه»[30] ص:209.

و يمكن للدارس أن يلاحظ أن مصطلح المدرسة بهذا المفهوم حديث، لم يكن معروفا لدى القدماء ، إذ كانت اللفظة تعني عندهم : مكان الدراسة مثل المدرسة النظامية ببغداد والمدرسة المستنصرية وغيرها. وبما أنه اتفق على اعتبار المدرسة مجموعة من الباحثين يعتنقون مذهبا معينا، أطلق المحدثون هذا المصطلح على ما كان يعرف عند القدماء بالمذاهب النحوية، حيث يقول في هذا إبراهيم السمرائي: «لم يطلق القدماء على "مسائل الخلاف" في النحو القديم كلمة "مدرسة"،فلم يؤثر عنهم مصطلح "المدرسة البصرية" ولا مصطلح "المدرسة الكوفية" ولا "مدرسة بغداد" ولكننا كنا نقرأ من قوله: مذهب البصريين ومذهب الكوفيين ومذهب البغداديين»[32] ص:12 . وذهب إلى أن المعاصرين استعاروها من الغربيين و وضّفوها في المسائل الأدبية حيث أطلق على العقاد والمازني وشكري "مدرسة الديوان"........إلخ ،كما استعارها الباحثون في تاريخ النحو[32] ص:12.

ولقد اختلف الدارسون في وجود المدارس النحوية فمنهم من رفض ذلك ،ومنهم من أقر وجود مدرستين ــ البصرية والكوفيةــ ومنهم من جعل في كل مصرٍ مدرسةً نحويةً،ونحن لا يَهمّنا في بحثنا هذا عدد المدارس وإنما ما يهمنـــــــــا هو: هل توجد مدرسة كوفية مستقلة؟ وللإجابة عن هذا السؤال قمنا برصد آراء الدارسين فوجدنا هناك اتجاهين:

الاتجاه الأول: ذهب أنصاره إلى وجود مدرسة كوفية لها منهج مستقل عن المدرسة البصرية وهـــــو الرأي الغالب عند أكثر الباحثين ومنهم الدكتور شوقي ضيف في كتابه "المدارس النحوية" والدكتور مهدي المخزومي في: "مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة ونحو"، والشيخ محمد الطنطاوي في كتابه:"نشأة النحو والتاريخ أشهر النحاة"،والدكتور تمام حسان في كتابه:"الأصول"،محمد حسين آل ياسين في كتابة:"الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث "والأستاذ:أحمـــــــد

أميــن في كتابه "ضحى الإسلام" الجزءالثاني.

أما **الاتجاه الثاني:**فقد ذهب أنصاره إلى إنكار وجود مدرسة كوفية مستقلة،و«أول من شكَّ في وجود مذهب مكتمل للكوفيين، هو "جوتلد فايل" ثم حكاه في رأيه المترجم لثعلب من الكوفيين في دائــرة المعارف الإسلامية،و"بروكلمان"،كما يشير إليه كلامه في كتابه: "تاريخ الشعوب الإسلامية"[32] ص:351.

وممن أنكروا المدرسة الكوفية أيضا الدكتور علي أبو المكارم في كتابه " تقويــم الفكر النحـــوي " و الدكتور إبراهيم السمرائي في كتابه "المدارس النحوية أسطورة وواقع" ، والذي يقول فيه «قد أغفل المعنيون بتــأسيس المدارس النحويــة المزعومة حقيقة أن النحاة بصريين وكوفيــين قد التقــوا في مسائل كثيرة،و تداخل علم هؤلاء بعلم أولئك ،فقد وافق الكسائي البصريين في مسائل كثيرة كما وافق الفراء البصريين في مسائل عدة ؛(.....)كما وافق الأخفش الكوفيين في مسائل معروفة، وكذلك كان ابن السراج في موافقته للكوفيين، فإذا كان هذا فهل يجترئ أحدنا و يزعم أن للكوفيين "مدرسة" ودلالة "المدرسة" في كل علم معروفة ، وهي في جملتها تتجاوز الخلاف على الفروع »[31] ص:36. ومن هذا القول يمكننا أن نستنتج أن نقطة الخلاف تكمن في اختلافهم في تحديد مفهوم المدرسة، وكذا نظرتهم للأصول و الفروع .

ولقد تطرقنا سابقا إلى المفهوم الذي وضعه مجمع اللغة العربية للمدرسة، والذي يشترط وجود مجموعة من الدارسين يتبعون مذهبا معيننا، ويشتركون في الرأي،كما يعرفها الدكتور "أحمد مختار عمر" بقوله: «إن هذا المصطلح يعني –في نظرنا- وجود جماعة من النحاة ، يصل بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج في دراسة النحو. ولابدَّ أن يكون هناك الرائد الذي يرسم الخطة ويحدد المنهج، والتابعون أو المريدون الذين يقتفون خطاه، ويتبنون منهجه، ويعملون على تطويره والدفاع عنه. فاستمرار النظرية –أو المنهج- ودوامها عبر السنين شرط أساسي لتكون المدرسة التي لا يمكن أن تستحق هذا الاسم، أو يُعْترف بوجودها بمجرد مولد النظرية أو خلقها، حتى تعيش ويكتب لها البقاء لبعض الوقت بين المريدين»[33] ص:128.

وهذا ما ذهب إليه محمد آل ياسين إذ يرى أن «المدرسة في المصطلح العلمي لفظ يطلق على جماعة من الدارسين تشترك في وجهة النظر، ويكون لها منهج خاص يؤلف منها جبهة علمية ، ويرتبط أفرادها برباط الرأي الموحد»[26] ص:36. وخلص بعد هذا التحديد إلى وجود مدرستين في الدراسات اللغوية هما: مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة وذلك لانطباق الحد المذكور على كِلا

المدرستين فقد كان للكوفيين منهجٌ خاصٌ بهم ــ سنوضحه لاحقاــ أطلق عيه القدماء اسم المذهب الكوفي، ولم يطلقوا على تلاميذ المبرد و ثعلب هذا الاسم بل لقبوهم "بالجماعة الذين خلطوا المذهبين"[14] ص:115، وهذا لوعيهم بطبيعة المنهج،«وهم يقصدون بهذا الاسم "المذهب" ما نقصد بالمدرسة»[26] ص:392.

أما المذهب البغدادي الذي استخدمه القدماء فقد كان يطلق على الكوفيين لما استقروا ببغداد حيث «لم يطلق أحد من القدماء البصريين اسم "الكوفيين" على الكسائي و الفراء وثعلب وأصحابهم وتلاميذهم، ولم ينسب النحاة الذين انتهجوا نهج الكسائي و الفراء إلى الكوفة إلاّ بعد اشتداد المنافسة التي أثارها المبرد بعد وروده بغداد عقب مقتل المتوكل، المنافسة التي اشتد أُوَارُها بين تلاميذ ثعلب وتلاميذ المبرد ، و كان هؤلاء التلاميذ كلهم بغداديين فأراد أتباع المبرد البصري من البغداديين أن يميزوا أنفسهم من أتباع ثعلب البغداديين أيضا فسموهم بالكوفيين، و صارت النسبة إلى الكوفة أو البصرة تعني النسبة إلى مذهب دراسيٍّ بعينه»[34] ص:13.

و ما يتفق عليه الجميع أنّه لا يوجد أحد من القدماء أنكر وجود المذهب الكوفي ،إلاّ أنّنا نجد إبراهيم السمرائي رفض فكرة أن يكون القدماء قد قصدوا من استخدامهم كلمة "مذهب" ما يقصده المحدثون بالمدرسة حيث يقول :«كلمة "مذهب" وردت في الكلام على الخلاف النحوي فقالوا:مذهب البصريين كما قالوا مذهب الكوفيين ومذهب البغداديين ومذهب غيرهم ، وقد تكون كلمة مذهب قد أطلقت على الطريقة التي سار عليها أحد النحاة كما قالوا مثلا، ومذهب سيبويه،أو كقولهم:ومذهب الأخفش والفراء (...) المذهب هو الطريقة، وهو أبعد ما يكون عن المدرسة»[31] ص:13.

فهو يعتبر إذن إنّ المذهب هو الطريقة وليس المدرسة ،إلاّ أنّنا نجده في موضع آخر يقول: «الغربيون تجاوزوا في استعمال"المدرسة"المألوف المعروف فكانت لديهم مثلاً المدرسة الكلاسيكية في الأدب والفن والمدرسة الرومنتيكية (...)وتعني هذه المدارس الغربية ما نعنيه نحن في كلمة "مذاهب" كمذاهب الفقه الإسلامي المعروفة نحو:مذهب الإمام أبي حنيفة ،ومذهب الإمام الشافعي (...)، ولكل مذهب من هذه المذاهب طريقة خاصة تقوم على نظرٍ خاصٍ ودلائل خاصة»[31]ص:139.

إذ يعترف بأن لكل مذهب طريقة خاصة أي منهج خاص،وأنّ هذا المفهوم يتماشى مع مفهوم المدرسة عند الغربيين ،فأين المشكلة إن استعار العرب هذا المصطلح خاصة بعدما أقره مجمع اللغة العربية وحدد مفهومه ،وإن كان يختلف عن المفهوم القديم . وهنا نتساءل إن كان يحق له أن يقول:

«لقد حلا للدارسين في عصرنا كلمة "المدرسة". فذهبوا بها مذهبا قد لا يرضي العلم»؟ [31] ص:139 وكان هذا نتيجة لما جمعه من أدلة حول التقاء البصريين و الكوفيين في مساءل كثيرة و لأنّ خلافهم لا يتجاوز الفروع إذ إن«مواد كثيرة مما اختلفوا فيه لا تتصل بالنحو بل هي فوائد لغوية تتصل بأصول اللغة وبالاشتقاق وباستعمال الكلمة في أسلوب ما»[31] ص:07، بهذا يقر إبراهيم السمرائي بالاختلاف في أصول اللغة،وبالتالي يمكننا القول بوجود مدرسة كوفية لغوية، أما في النحو فقد نفى ذلك بحجة عدم الاختلاف حول الأصول ،وهذا ما ذهب إليه كل من نفى مدرسة الكوفة النحوية فأصول النحو من سماع وقياس وإجماع.. وغيرها هي نفسها ولكن الاختلاف بينهم في مدى التوسع أو التضييق في الاعتماد عليها .

حيث قامت أركان المدرسة الكوفية على «طابع الاتساع في الرواية، بحيث تفتح جميع الدروب والمسالك للأشعار واللغات الشاذة، وطابع الاتساع في القياس بحيث يقاس على الشاذ والنادر دون تقيد بندرته وشذوذه، ثم طابع المخالفة في بعض المصطلحات النحوية وما يتصل بها من العوامل»[35] ص:154.

أما الدكتور تمام حسان فقد وسع مفهوم الأصول ليشمل عدة قضايا وجوانب وبعدما أحصى الأصول المشتركة بين المدرستين، والأصول البصرية التي لا يرضاها الكوفيون، والأصول الكوفية التي يرفضها البصريون خلص إلى أنه: «بهذا الخلاف حول الأصول يمكن القول بأن نحاتنا القدماء كانوا يكوِّنون مدرستين في النحو العربي »[36] ص:43. ولهذا فنحن لا نؤيد الدكتور أحمد مختار عمر فيما ذهب إليه باعتبار المعيار الجغرافي الأساس الوحيد لتقسيم المدارس [33] ص:128-129 .

أما ما ذهب إليه "قايل"من أن الكوفة لا تشكل مدرسة مستقلة بسبب كثرة الخلافات بين أئمتها فقد نقض ذلك شوقي ضيف باعتبار«نحاة الكوفة يكونون جبهة طالما تناظر أفرادها مع أفراد جبهة البصرة، وأكثر ابن جني وغيره من ذكر آرائها (...)أما أنه (الفراء)خالف أستاذه الكسائي في بعض المسائل فهذا من حقه ,على نحو ما خالف سيبويه أستاذه الخليل...»[35] ص:156، فهذا من طبيعة العلم,فليس بالضرورة أن يتفق الدارسون في كل شيء إذ هناك مسائل اجتهادية,كما أنه لمن الطبيعي أن يوافق الكوفيون البصريين,فنحن لا ننكر أنهم تتلمذوا على أيديهم ,ولكن هذا لا ينفي اجتهادهم وما حققوه فقد وضعوا لأنفسهم منهجًا خاصًا في دراسة اللغة والنحو ,حتى لا نكاد نجد مسألة من مسائل النحو إلا وفيها مذهبان :بصري وكوفي,كما أنك تستطيع معرفة رأي إحداهما إذا وقفت على رأي الأخرى وحدها [37] ص:53.

لهذا فنحن نؤيد فكرة وجود مدرستين في الدراسات اللغوية والنحوية هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة؛ التي يتزعمها الكسائي فهو يشكل«بمنهجه وأساليب دراسته مدرسة لها خصائصها ومميزاتها، فليست المدرسة إلا أستاذا مؤثرا، وتلاميذ متأثرين، وقد اجتمعوا على تحقيق غرض موحد ، ونهجوا للوصول إليه منهجنا جديدا»[32] ص: 106. وهذا ما سنوضحه في ثنايا بحثنا .

1.1. نشأة مدرسة الكوفة وأشهر أعلامها

تمهيد: تعتبر العراق من أقدم المدن حضارة حيث شهدت حضارة البابليين والأشوريين، وحتى الفرس، كما سكنها عرب بكر وربيعة، وكانت منهم إمارة المناذرة بالحيرة. وذلك لخصبة تربتها ووفرة مياهها واعتدال جوها ،وبعدما فتحها المسلمون أسسوا البصرة سنة خمسة عشرة للهجرة، وبعدها الكوفة، وتحولت إليهما الحضارة، فزخرت المدينتان بالعلم والعلماء، إذ كان يطلق عليهما العراقيْن، وصارا وجهة كل راغب في العلم والمعرفة. لهذا سنتناول في مبحثنا هذا إحدى العراقين ألا وهي الكوفة .

1.1.1. نشأتها:

مُصِّرَتِ الكوفة في خلافة عمر بن الخطاب بعد تمصير البصرة بفترة اختلف المؤرخون في تحديدها، فمنهم من قال بعدها ستة أشهر، ومنهم من قال بعدها بعام أو عامين[38] 42/4 و [39] 419/4، وذهب آخرون إلى تأخرها بثلاث سنوات[35] ص:03، وكان ذلك على يد سعد بن أبي وقاس قائد المسلمين في حربهم ضد الفرس، ومع الانتصارات التي حققها الجيش وطول الحرب بقي المسلمون منتشرين في المدن التي افتتحوها، لذلك أمر الخليفة بتخطيط مدينة تكون معقلا لجيش المسلمين، فاختار سعد الكوفة نظراً لخصوبة أرضها ووفرة المياه فيها ولموقعها الجغرافي،حيث كتب للخليفة «إنّي قد نزلتُ بالكوفة منزلاً بين الحيرة والفُرات، بريًّا وبحريا، ينبت الحلىّ والنَّصِيّ، وخيَّرْت المسلمين بالمدائن، فمن أعجبه المقام فيها تركته فيها كالمسلحة،فبقي أقوام من الأفنان وأكثرهم بنو عبس»[38] ص:43، وهكذا سكن المدينة الجديدة إلى جانب جيش المسلمين ــ والذين كان معظمهم من اليمانيين والمضريين ــ الفرس والسريان والنبط واليهود والنصارى ممن كانوا يعيشون في المنطقة.

وأطلق عليها اسم الكوفة «والكوفة بالضَّم الرملة الحمراء المستديرة، أو كل رملة تخالطها حصباء»[40] 187/3، ولعل هذا سبب تسمية المدينة بالكوفة، إلاّ أنَّ المؤرخين كان لهم آراء مختلفة

حول سبب هذه التسمية ،وقد جمعها "ياقوت الحموي" في مجمعه، ومنها أنها سميت الكوفة لاستدارتها حيث تقول العرب :رأيت كوفاناً وكوْفاناً بضم الكاف وفتحها للرملة المستديرة، وقيل: سميت الكوفة

كوفة لاجتماع الناس بها، ويقال: أخذت الكوفة من الكوفان، ويقال: هم في كوفان أي هم في بلاء وشر... إلخ[39] 490/4-491.

وقد رجح منها مهدي المخزومي أنها «سميت الكوفة بموضعها من الأرض، وذلك أن كل رملة تخالطها حصباء تسمى كوفة»[32] ص:02.

وإن كانت الكوفة قد تأخرت عن البصرة إلا أنها صنعت لنفسها مكاناً مرموقاً فصارت «بلاد الأدب ووجه العراق، وهي غاية الطالب، ومنزل خيار الصّحابة، وأهل الشرف»[32] ص:12، حيث نزل الكوفة «سبعون رجلا مـــن صحابة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ممن شهدوا بدراً،وثلاثمائة من أصحاب الشجرة ، وفي مقدمة من نزلها من الصحابة: عمار بن ياسر،وعبد الله بن مسعود؛ وقد بعث بهما عمربن الخطاب،ليكون الأول أميرا،والثاني ووزيراً،وكان يقول عنهما لأهل الكوفة«هما من النجباء، من أهل بدر فخذوا عنهما، واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسي»[41]ص:373

وبهذا كانت الكوفة قاعدةً للعلم مثلما كانت قاعدةً عسكرية فهي «مدينة العراق الكبرى وقبة الإسلام، ودار هجرة المسلمين، مصرّها سعد بن أبي وقاص وكان منزل نوح عليه السلام (...) وكوفة الجند لأنّه اخْتُطَّت فيها خطَطُ العرب أيام عثمان ...»[40] 187/3، لتصبح في عهد على بن أبي طالب مركز الخلافة الإسلامية حيث كان يقال عنها «الكوفة كنز الإيمان، وجمجمة الإسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء»[39] 492/4.

ولقد اشتغل أهلها بالقراءات القرآنية حيث كان بها ثلاثة من القراء السبعة المشهورين وهم:عاصم بن أبي النجود، وحمزة بن أبي حبيب الزيات، وعلى بن حمزة الكسائي، كما اشتغلوا بالفقه وأصوله حيث اختصت الكوفة بمذهب أبي حنيفة الفقهي، وفيها ظهرت مدرسة القياس في الفقه، كما اهتموا بالأدب ورواية الشعر، وقد اتسعوا في ذلك.

لكننا لن نتناول من اتجاهات علمائها إلا ما يخدم موضوعنا،لذلك سنحاول تسليط الضوء على القراء والنحاة والرواة، محاولين بذلك التعرف على هؤلاء العلماء الذين عملوا على إنشاء هذه المدرسة، فرعَوْها في مهدها، وغذَوْها في شبابها،و آزروها في نضجها، وبذلوا جهودا لجعلها تضاهي مدرسة البصرة فلا تذكر البصرة إلا وتذكر معها الكوفة .

1.1. 2 . من أعلام المدرسة الكوفية :

لقد سجل التاريخ أسماء علماء حملوا على عاتقهم مهمة الحفاظ على اللغة العربية ، ودراسة أنظمتها، وتعليمـــها للأجيـــال ، و الكوفـــــة مثلـــها مثـــــل الأمصــــار العربيـــة الأخـــرى حظيـــت بنصــــــيبها من العلماء، و سنحاول التعريف ببعضهم .

1.1. 1.2. الكوفيون والقرآن الكريم:

لقد أشرنا سابقاً إلى أنّ الدراسات اللغوية عند العرب كانت بدايتها خدمةً للقرآن الكريم، الذي حظيَّ بعنايةٍ ورعايةٍ لا نظير لها، جمعاً، وضبطاً، وتفسيراً، ودراسةً، حيث يقول تعالى: «**...وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5)** »[المزمل: 4-5] وفي هذه الآية ثلاثة مفاهيم صوتية وهي الترتيل، الإلقاء، النقل، وهذا دليل على العلاقة بين قراءة القرآن والدرس الصوتي، إذ اهتم القراء بضبط نطق القرآن الكريم فهو متعبد بأحكامه وتلاوته.

وهذا عبد الله بن مسعود يقول:«جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات»[33] ص:95، وبعد نزوله الكوفة أصبح أهلها يقرؤون بمصحفه ــ مثلما كان أهل البصرة يقرؤون بمصحف أبي موسى الأشعري، وأهل الشام بمصحف أبي بن كعب ــ حيث قال مسروق بن الأجدع(هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمذاني، ت:63هــ):«كان عبد الله يقرئنا في المسجد، ثم نجلس بعده نثبت الناس فلم تزل قراءة عبد الله بالكوفة لا يعرف الناس غيرها»[9] ص:67. وبقي الكوفيون على قراءة عبد الله حتى بعد وفاته يأخذونها من أصحابه كالأسود بن يزيد، وزر بن جيش، وأبي عمرو الشيباني(أبو عمرو الشيباني المقرئ، واسمه سعد بن إياس وهو ممن حملوا القراءة عن أبي مسعود عرضاً عليه،ت:96هــ)........ وغيرهم [9] ص:66.

ولما اشتد الخلاف بين المسلمين وزاد تناحرهم قام عثمان بن عفان بتوحيد نصوص القرآن ،وتحكيم لغة قريش في خلافهم، ثم وزع هذا المصحف على الأمصار، وأمر بإحراق المصاحف الأخرى، فراح الكوفيون مثلهم مثل باقي المسلمين يهتمون بالقرآن وقراءاته، فظهرت مجموعة من العلماء حفظوا القرآن ورووه عن الصحابة، ولقنوه لتلاميذهم وأشهرهم:

ــ **أبو عبد الرحـــٰــمن السُّلمى:** وهو عبد الله بن حبيب، ولد في حياة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإليه تنتهي رواية أكثر القراء في الكوفة، يقول عنه بن أبي خالد وهو ممن أخذ القراءة عنه: «كان أبو عبد الرحمن يقرئ عشرين بالغداة، وعشرين بالعَشِيّ، ويعلمهم أين الخمس والعشر، وكان يقرئنا

حمساً خمساً ، فلما مات أبو عبد الرحـــٰــمن ــ رحمه الله تعالى ــ خلفه في موضعه: أبو بكر عاصم بـــــن أبـــي النجود»[9] ص:69. يعتبر أول من أقرأ بالكوفة مصحف عثمان رضي الله عنه، ولقد أخذ القراءة عن عليّ بن أبي طالب، وعثمان بن عفَّان، وعبد الله بن مسعود، وأبيّ بن كعب، ورواها عنه الحسن والحسين ابنا عليّ بن أبي طالـــــب[42] 413/1 . حيث كان «يقــــرئ الناس في المسجد الأعظـــم أربعين سنة إلى أن توفي في ولاية بشر بن مروان»[9] ص:68.

ــ زرّ بــــــن حُبيــْــــش: الأسديّ الكوفي، يعتبر من شيوخ الإقراء في الكوفة أخذ القراء عن عثمان بن عفَّان، وعليّ بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأخذها عنه عاصم بن أبي النَّجود، وسليمان الأعمش، ويحي بن وثَّاب وغيرهم .[42] 294/1

ــ عاصم بـــــن أبــــي النجود: هو أبو بكر عاصم بن بهلة أبي النَّجود شيخ الإقراء بالكوفة وأحد القراء السبعة، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد أبي عبد الرحـــٰــمن السُّلمى، جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد[42] 346/1-347.إذ قال عنه أبو إسحاق السّبيعيّ:«ما رأيت أحداً أقرأ للقرآن من عاصم بن أبي النَّجود، ما أستثني أحداً من أصحاب عبد الله»[9] ص:70، أخذ القراءة عن أبي عبد الرحـــٰــمن السلمي وزرّ بن حبيش[14] ص:43، ولكن ابن مجاهد ذكر قولاً لابن عياش يبين أن عبد الرحـــٰــمن السُّلمى كان مرجع عاصم الأول، حيث قال له عاصم: « ما أقرأني أحدٌ حرفاً إلاّ أبو عبد الرحمـــٰــن السُّلمى، وأنّ أبا عبد الرحمـــٰــن قد قرأ على عليّ رضي الله تعالى عنه، وكنت أرجع من عند أبي عبد الرحـــٰــمن، فأعرض على زرّ بن حُبيْش،وكان زرّ قد قرأ على عبد الله بن مسعود»[9] ص:70.

وقد روى القراءة عنه أبو بكر بن عياش(اختلفوا في اسمه منهم من قال محمد ومنهم من قال شعبة ابن سالم الأسدي و هو الأصح، إذ أن كنيته هي اسمه فما كان يعرف إلا بها، توفي بالكوفة عام 193هـــ في الشهر الذي توفي فيه الرشيد).

وحفص بن سليمان(حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي الذ ي أخذ القراءة عن عاصم عرضا وتلقينا فهو ابن زوجته، ولد سنة 90هـــ ، وتوفي سنة 180هـــ يعتبر شعبة وحفص أشهر رواة عاصم.)
كما روى عنه أبان بن تغلب وأبان بن يزيد العطار.

إذ اعتمد قراءة عاصم بعض أهل الكوفة ولم تكن غالبة عليهم وسبب ذلك حسب ابن مجاهد أن أضبط من أخذ عن عاصم هو أبو بكر بن عياش،وكان هذا الأخير لا يُمَكِّن من نفسه من أرادها منه [9]ص:71 ،أما تاريخ وفاة عاصم فقد كان محط خلاف فمنهم من قال سنة 128هـــ،

ومنهم من قـــــــــــال 120هــ ، وقيل سنة 129هــ، ولكن ذهب أكثر المؤرخين إلى أنه توفي سنة 127للهجرة .[42] 348/1-349.

ــ **حمزة بن حبيب الزّيـــــات :** هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفي التميميّ صليبةً أو ولاء ، وقد قيل له الزيات لأنه كان يجلب الزّيت من الكوفة إلى حلوان، ويجلب من حلوان الجبن والزيت إلى الكوفة[14] ص:44، ويروى أن أبا حنيفة قال لحمزة «شيئان غلبتنا عليهما لسنا ننازعك فيهما القرآن والفرائض»[42] 263/1، أخذ القراءة عن سليمان الأعمش، والذي كان يقول عنه إذا أقبل «هذا حبر القرآن»[42] 263/1، كما أخذها عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد الصَّادق وحمران بن أعين ... وغيرهم، حيث قيل: «استفتح حمزة القرآن من عمران وعرض على الأعمش وأبي إسحاق، وابن أبي ليلى، وكان الأعمش يجود الحرف ابن مسعود وكان ابن أبي ليلى يجود حرف عليّ، وكان أبو إسحاق يقرأ من هذا الحرف ومن هذا الحرف.

وكان حمران يقرأ قراءة ابن مسعود ولا يخالف مصحف عثمان، وهذا كان اختيار حمزة»[42] 262/1 . ومن هذا القول الذي نقله ابن الجزري نستنتج أن قراءته تنتهي إلى قراءة عبد الله بن مسعود، وعلي كرم الله وجهه.

ولقد أخذ القراءة عنه علي بن حمزة الكسائي، ويحي بن مبارك اليزيدي، بالإضافة إلى خــلف البزار(هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب أحد القراء العشرة ولد سنة 150 هــ : وكان لروايته طريقان: أبو الحسن إدريس البغدادي بن عبد الكريم وأبو الحسن أحمد بن عثمان بن محمد بن جعفر) وخلاء الصيرفي(هو أبو عبد الله خلاء بن خالد الشيباني الصبرفي ، لروايته طريقان: أبو بكر شاذان الجوهري البغدادي، وأبو عبد الله محمد بن الهيثم الكوفي ضابط حاذق في قراءة حمزة .) اللذان رويا قراءته .

ورغم ما روي عن حمزة من ورع و علم إلاّ أنّه لم يكن عند البصريين شيء ،حيث قال إبراهيم بن حُميد «سألتُ عن حمزة أبا زيْدٍ و الأصمعي و يعقوب الحضرميّ و غيرهم من العلماء ،فأجمعوا على أنه لم يكنْ شيئاً ، و لم يكن يعرف كلامَ العرب، ولا النّحو ، ولا كان يدَّعي ذلك، و كان يَلحنُ في القرآن و لا يعقِلُه ؛ يقول: «...**وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ...**»[إبراهيم:22] (يكسر الياء المشددة) وليس ذلك من كلام العرب »[43] 2856/6، صحيح أنه لم يرو عن حمزة شيء في العربية والنحو، ولكنه صاحب قراءة مشهورة صحيحة السند متواترة لذا لا ينبغي التشكيك في صحة قراءته ورفضها.

كما نقل أبو الطيب قول أبى حاتم «إنّما أهل الكوفة يكابرون فيه ويباهتون، فقد صيّره الجهال من الناس شيئاً عظيماً بالمكابرة والنَهْت، وقولُ ذوي اللحَى العظام منهم:"كانت الجنُّ تقرأ على حمزة" قال: والجن لم تقرأ على ابن مسعود والذين بعده فكيف خصّت حمزة بالقراءة عليه!؟ »[27] ص:44.

وخير ردٍّ على هذا القول ما رواه ابن مجاهد عن علي بن الحسن حيث قال: «حدثنا محمد بن الهيثم، قال :قلت لعبد الله بن داود: إن بعض الناس يكره قراءة حمزة أو نحو هذا،فقال ابن داود: سمعت كلام هؤلاء البصريين؟! من كان أعلم من حمزة بعلمها وعلتها»[9] ص:76، يقصد بعلمها: علم القراءة. فقد كان حمزة إمام أهل الكوفة في عصره وصارت قراءته هي الغالبة على أهلها، حيث تحرى الدقة في القراءة ؛فقال عنه سفيان:« ما قرأ حمزة حرفاً من كتاب الله إلا بأثّر»[42] 263/1.

توفي حمزة سنة مائة وثمان وخمسين .

<u>علي بن حمزة الكسائي:</u> هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان بن بهمن بن فيروز الأسدي من الموالي، فارسي الأصل[42] 535/1، اشتهر "بالكسائي" وتختلف الروايات حول سبب هذه التسمية، حيث قيل أنّه سمي الكسائي لأنّه «ارتحل إلى حمزة الزيات، وعليه كساء جيد؛ فجلس بين يديه فقرأ ثلاثين آية - وكان حمزة أخذ أكثر من ثلاثين آية- فقال له : اقرأ، فقرأ أربعين، ثم قال له: اقرأ، إلى أن تُتِمّ مائة آية – فقال له: قمْ – ثم افتقده فقال: ما صنع صاحب الكيساء الجيّد فسُمِّيَ الكسائي»[44] ص:128. وقيل لأنه كان يبيع الأكسية في حداثته، وهناك من ذهب إلى أنه لقب بذلك لأنه من قرية باكسيا؛ فخفف فقيل له الكسائي،و يُروى أنه سُئِل عن ذلك فقال: لأنّني أحرمت في كساء، وهي الرواية التي رجحها ابن الجزري[42] 539/1.

كان الكسائي من القراء السبعة المشهورين انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد حمزة، ولقد أخذ القراءة عن هذا الأخير عرضاً أربع مرات ولم يخالفه إلا في أحرف، كما أخذ عن محمد بن أبي ليلى، وعيسى بن عمر الهمداني ... وغيرهم من أئمة الكوفة، وكان له اختياراته مما تعلمه، روى عنه القراءة الدوري(هو أبو عمر حفص بن عبد العزيز الدوري الأذري البغدادي النحوي، كان ضريرا.) والليث البغدادي(هو أبو الحارث الليث بن خالد البغدادي، ثقة، حاذق، ضابط للقراء متقن لها.) .

كما كان الكسائي إمام الكوفيين في اللغة والنحو، حيث ارتحل إلى البصرة وأخذ عن علمائها أمثال الخليل، ويونس بن حبيب البصري.

وارتحل أيضا إلى البوادي وعاش بين الأعراب، ولقد «مرّ على تِرْحاله إلى البوادي وتجواله فيها زمن طويل»[32] ص:98، حيث «أنفق خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة سوى ما حفظ»[26] ص:387، ليعود إلى الكوفة بعدما جمع من العلم ما يخوِّله لترؤس مجالس العلم، فصار أستاذ الكوفيين، ويمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لمدرسة الكوفة في النحو، وإن كان هناك من المؤرخين من

يُرجع بدايتها إلى أبي جعفر الرؤاسي ومعاذ بم مسلم[35] ص:153، لينتقل بعد ذلك إلى بغداد فطاب له المقام فيها حيث اختاره الرشيد لتأديب ولديه الأمين والمأمون.

وهو الذي قال عنه الشافعي «من أراد أن يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي »[45] 261/1، و ذهب ثعلب إلى أنه قد أُجْمِعَ على أنَّ«أكثر الناس كلهم رواية و أوسعهم علماً الكسائِيُّ»[27] ص:89

إلاّ أنّ أبا الطيب اللغوي يرى أن هذا الإجماع لا يدخل فيه أهل البصرة ،حيث يروي عن أبي حاتم

أنه قال: «لم يكن لجميع الكوفيين عالمٌ بالقرآن ولا كلام العرب ، ولولا أنّ الكسائي دنا من الخلفاء فرفعُوا من ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علّل ، إلاّ حكايات من الأعراب مطروحة، لأنّه كان يلقّنهم ما يريد»[27] ص:89 .

و لقد ردَّ على هذا القول الدكتور " سمير شريف استيبتية " ، ففيما يخص قولهم أن علم الكسائي بلا حجج ولا علل ، فهذا لأنّ منهجه يتأبى التعليل فهو لا يوغل في التفسيرات العقلية كما يفعل البصريون ، وله مقولة مشهورة «في مجلس يونس عن قولهم لأضربنَّ أيُّــهم يقوم ؛ لم لا يقال ، لأضربن أيَّهم ؟ فقال: "أيُّ هكذا خُلقت"»[44] ص:129، فقد عُرف الكسائي باحترامه للمسموع ، وعدم الاستغراق في التفسير و التعليل .

أما كونه يُملي على الأعراب ما يريد ليحتج بهم في مناظراته فهي تهمةٌ لا دليل عليها [46] ص:201-202.

ويمكننا القول إن الكسائي من العلماء الذين حاك حاسدوهم قصصًا حولهم لكي تهتز ثقة الناس بهم، فقالوا إن مكانته عند الرشيد هي التي فصلت في مناظراته التي خاضها ضد البصريين ، و مثال ذلك قصة مناظرته مع سيبويه، أو ما يعرف "بالمسألة الزنبورية "، حيث اتُهِم الكسائي برشوة الأعراب، و أقر ذلك مهدي المخزومي ، و كأنها حقيقة مسلم بها ، إذ يقول : «و قصة مناظرته مع سيبويه، وتآمره مع جعفر بن يحي وأخيه الفضل على اغتصاب الفوز معروفة، عَرَفها القدماء، وأحاطوا بجميع ظروفها و ملابساتها ،ثم سجّلوها شعرًا و نثرًا ، فلا أجد هنا ما يدعوني إلى إثباتها أو التعليق على موقف الكسائيّ و تلاميذه من سيبويه ، ذلك الموقف الذي يصوّر الكسائي في صورة رجل يعوزه شيء غير قليل من الأمانة العلمية »[32] ص:102 .

ولسنا هنا في موقف الدِّفاع عن الكسائي فلا يستطيع أحد أن ينكر علمه ، و لكننا نسعى إلى إنصاف علمائنا، فكيف يآخذ الكسائي على أمــرٍ ربما لم يقترفه ، فالشيء المعروف و المؤكد لــدى الباحثين و العلمـــــاء أن الكسائي سمـــع من أولائك الأعراب و استشهد بأقوالهم ، فمــن الطبيعي أن يوافقــوه في مذهبه الذي وضعه أصلاً عند طريق السماع منهم .

و للكسائي أثار كثيرة منها: كتاب معاني القرآن، و كتاب مختصر نحو، و كتاب القراءات و كتاب العدد، وكتاب النوادر الكبير و الأوسط و الأصغر، وكتاب الهجاء،و كتاب مقطوع القرآن وموصوله، و كتاب المصادر، و كتاب الحروف ... و غيرها من الكتب[14] ص:98.

توفي الكسائي سنة تسع و ثمانين و مئة للهجرة بالرّي في اليوم الذي توفي فيه القاضي: "محمد بن الحسن الفقيه" ، فقال الرشيد: «دفنت العربية و الفقه بالرّي يوم»[44] ص:130 و [27] ص:89.

وغيرهم من القراء الذين لم نذكرهم ، فقد زخرت الكوفة بطلاب العلم الذين اهتموا بالقراءات القرآنية ، ونقلها ، و من ثَمَّ تعليمها.

2.2.1.1.الكوفيون و النحو العربي :

كان لظهور النحو العربي جملة من الدوافع في مقدمتها خوف المسلمين من أن يصيب القرآن تحريف أو لحن، بالإضافة إلى حاجة الأجانب إلى تعلم اللغة العربية، فهي لغة الدولة و إن لم يتقنوها فلن يستطيعوا احتلال المراكز السامية .. وغيرها من العوامل الدينية والاجتماعية والسياسية[36]ص:23-27 .

ولقد كانت البصرة سباقة إلى هذا الميدان ، حيث يقول ابن النديم: «إنما قدمنا البصريين أولاً لأنّ علم العربية عنهم أخذ و لأن البصرة أقدم بناءً من الكوفة » [14] ص:96، أما الكوفة فقد تأخرت فيها الدراسات النحوية عن نظيرتها "البصرة" بنحو قرن من الزمن [32] ص:67 ،و ذلك لجملة من الأسباب منها: اهتمام الكوفيين برواية الشعر و الحديث ، و كذا العناية بفن القراءات بالإضافة إلى انشغالهم بالميادين العسكرية و السياسية، فقد كانت الكوفة معسكر المسلمين و قاعدة الخلافة في عهد عليّ كرم الله وجهه، في الوقت الذي كانت تعيش فيه البصرة امتزاجاً بين الثقافات العربية و الفارسية و اليونانية و الهندية،فظهرت الفرق المذهبية،و مدرسة علم الكلام، كما ظهرت الدراسات اللغوية ومنها النحو ؛الذي كان «أداة فعَّالة في تقويم هذا الجدل ،و الاستفادة منه، و قد أقبل الدارسون عليه إقبالاً،

أما العرب فلتقويم منطقهم، و أما الأعاجم فللاستفادة منه في تعلم العربية التي اضطروا أن يتعلموها، لمشاركة العرب في حياتهم و دينهم »[32] ص:37.

ونخلص إلى أن النحو العربي كان بصري النشأة نهل منه البصريون و الكوفيون، ثم بدأت بوادر الخلاف بين الفريقين، و بات لكل منهما مذهب خاص به، بلورته عوامل مرتبطة بالبيئة العامة، حيث كان في البصرة «نزوع إلى الدراسات الفلسفية و الكلامية، أنضَجَت منه الترجمات جانبا،و الصراعات المذهبية جانباً آخر، و غذته روافد الجوار و المجتمع المتعدد العروق و المشارب، وعلى نقيض ذلك الكوفة التي نزعت إلى الدراسات النقلية نزوعا كبيرا فبحكم كونها منزلا للمحدثين و الرواة و أصحاب الأخبار و الأيام و الشعراء و القراء ، قلت عنايتها بالدراسات العقلية و زادت هذه العناية بالرواية و النقل»[26] ص:394.

لهذا فنحن لا نتفق مع صلاح روّاي في قوله «لم تتضج مدرسة الكوفة النحوية كمدرسة مستقلة لها سمات متميزة و خواص منوطة بها، في مقابل مدرسة البصرة إلا من خلال مناوأتها لهــا و مناهضـــتها لمبادئهـــا ، و ردِّ آراء نحاتها ،و وقوفها منها موقف الند و المعارض و الناقض لكل ما يذهب إليه علماؤها» [41] ص:381. فالكوفة لم تخالف البصرة إلاّ لأنّ منهجها كان مختلفاً عن منهج البصرة ،و لم يكن هدفها هو نقض كل ما أتى به البصريون ، بل حاولوا دراسة النحو من منظور و منهج رأوه صائباً و مناسباً أكثر من المنهج الذي اعتمده البصريون ، لهذا فالخلافات كانت نتيجةً لتباين المنهجين – كما سنوضح لاحقا – و ليست غاية . و الأهم من ذلك التنافس الذي كان بين المدرستين و الذي دام ردحاً من الزمن كان له دور في بلوغ هذا العلم ذروة النضج و الاكتمال .

ليأتي بعد ذلك البغداديون الذين اعتمدوا الترجيح بين المذهبين،ثم انتشر النحو بعد ذلك في مختلف الأقطار الإسلامية .

أما عن أعلام مدرسة الكوفة النحوية فقد ذهب معظم الدارسين إلى أن الكسائي و تلميذه الفراء هما مؤسسا المذهب الكوفي،ومنهم "شوقي ضيف"الذي يرى بأن هذا المذهب بدأ«بالكسائي و تلميذه الفراء فهما اللذان رسما صورة هذا النحو ووضعا أسسه و أصوله،و أعدّاه بحذقهما و فطنتهما»[35] ص:154. و إلى هذا ذهب مهدي مخزومي حيث يقول:«لا نعلم أن كوفيًّا كان نحوياً بالمعنى الدَّقيق لهذه الكلمة قبل الكسائيّ فلا مُعاذ و لا أبو جعفر الرؤاسي ممن نضعهم في طبقة المؤسسيين لهذه

المدرسة النحوية الناشئة.و لم نسمع أن أحداً من الكوفيين تخرج بهما واكتفي بما تلقَّاه عنهما ، وعُرف بنحو خاص استمدّه منهما ،لا ينتمي إلي نحو أهل البصرة، والكسائي والفرّاء ـــ وهما عماد المدرسة الكوفية ـــ إنما عرفا النَّحو الاصطلاحي بدراستهما نحو البصرة، وتخرُّجهما بشيوخ بصريين» [32]ص:78.

إلاّ أننا نجد أصحاب كتب التراجم كابن النديم و الزبيدي يؤرخون لمدرسة الكوفية بالرؤاسي ومعاذ الهراء ،و في هذا يقول الدكتور محمد أل ياسين :« وقد حدد أصحاب الطبقات الذين ترجموا لعلماء المدرستين بداية المدرسة البصرية بأساتذة الخليل أو بمن هم أبعد من ذلك ، بل رجعوا بها أحياناً إلى أبي الأسود ، وبداية المدرسة الكوفية بأساتذة الكسائي ممن عاصر الخليل كأبي جعفر الرؤاسي ومعاذ الهراء. وفي هذا بعدٌ واضحٌ عن الدقة في معرفة منهج هؤلاء الدراسين القدماء في دراسة اللغة ، وتخبط في تحديد مفهوم المدرسة في هذه البداية . ودفعهم إلي ذلك ـــ كما يبدو - أمران : الأول اتخاذ البلد الذي ينزل فيه هؤلاء الدراسون معيارا لانتمائهم المدرسي، و الثاني المنافسة بين المدرستين على الإيغال في قدم الدراسة والفخر على الأخرى بذلك »[26] ص:393.

وهذا يؤيد ما ذهب إليه مهدي المخزومي الذي يري أن سبب ذلك هو العصبية و الخلاف الذي كان بين البصريين و الكوفيين ، و قد نُسب هذا الزعم إلى الكوفيين وبضبط إلي ثعلب وأبي بكر الأنباري[32] ص:74.

ونحن نؤيد ما ذهب إليه معظم الدارسين المحدثين في أن الكسائي هو مؤسس المذهب الكوفي الذي برز بقوة في مقابل المذهب البصري ، ولكننا نعلم أن ظهور أيَّ مدرسة أو اتجاه أو مذهب لا يكون إلا بوجود بواكير سبقت ظهوره الرسمي ، فمن « التحكُّم المحض أن يحدَّد زمن لبداية مدرسةٍ ونهايتها، لأن الحركات العقلية ليست مما يؤرّخ بزمن محَدَّد ، يُنصّ فيه على بدئه وختامه ، فإذا ظهرت فذلك يعني أن بواكيرها سبقت ظهورها الواضح ، ومهَّدت له ، و إذا انتهت فذلك يعني أن جذورها لم تنعدم ، فلا يزال أثرُها باقيا في العقول و سيَبْقى كذلك زمناً طويلاً ... »[32] ص:81، ولعل هذا ما جعل القدماء يُرْجِعون جذور هذه المدرسة إلى الرؤاسي و الهراء ، ولقد تم ترتيب نحاة الكوفة في طبقات كما يلي :

1.2.2.1.1.الطبقة الأولى : و يمثلها :

الرؤاسي : هو «محمد بن أبي سارة و يكني أبا جعفر و سمي الرؤاسي لكبر رأسه و كان ينزل النيل فسمي النيلي »[14] ص:96، نشأ بالكوفة ، ثم انتقل إلى البصرة و أخذ النحو عن عيسى بن عمر و أبي عمرو ابن علاء .

كان أستاذ أهل الكوفة في النحو [44] ص:125، وزعم ثعلب أنّه أول كوفي وضع كتاباً في النحو،وهو الكتاب " الفيصل "، كما يروي ابن النديم أن الرؤاسي قال : «بعث إليَّ الخليل يطلب كتابي فبعثت به إليه فقرأه ووضع كتابه »[14] ص:96، و لقد كانت هذه الرواية محط جدلٍ و نقاشٍ، فقد أنكر بعض الدراسين إفادة الخليل من كتاب "الفيصل" للرؤاسي ، و منهم خديجة الحديثي في كتابها " المدارس النحوية " فهي ترى أن كتاب الخليل المقصود في هذا القول هو "العين " لذلك ينبغي أن يكون الكتاب الذي أفاده منه كتابا لغوياً ، إذ تقول : «لم يذكر أحدٌ أن للخليل كتابا معروفا في النحو، فالنص في كاتبه يعني " العين " فيما أذهب إليه»[47] ص:434.

و بما أن الرواية لم تذكر اسم الكتاب الذي طلبه الخليل ،ولا اسم الكتاب الذي و ضعه اعتمادا عليه ، فإنّ ما ذهبت إليه خديجة الحديثي هو مجرد استنتاجاتٍ .

وقد حاول الدكتور"عبد العال سالم مكرم" نقض ما ذهبت إليه "خديجة الحديثي" بجملة من الأدلة؛ حيث لا تذكر المصادر للرؤاسي مؤلفات لغوية سوى كتاب"التصغير "،وليس له معجم لغوي و الخليل – في رأيه – ليس بحاجة إلى معونة لغوية ، حيث يقول «فات الدكتورة خديجة حينما نصّت على ذلك لتُجهز على قضية أخذ الخليل النحو من أبي جعفر ،و لتثبت بعد إبطال هذه القضية، أن الذي أخذه الخليل هو اللغة التي أفاد منها في كتابه العين لا النحو»[47] ص:415-416.

أما فيما يخص كون الخليل ليس له مؤلفات نحوية فقد ذكر القدامى له جملة من الكتب مثل: "الجمل " وكتاب "الشواهد " ... إلخ، ليخلص إلى أن «الأقرب إلى الحقيقة أن نقول : إن الكتاب الذي طلبه الخليل هو " الفيصل " ،وأنه وضع كتابه عليه . ليس المقصود به "العين " فلا علاقة بين العين و الفيصل،و إنما المقصود به من وجه نظري أيّ كتاب من الكتب النحوية التي ألَّفها الخليل في النحو ، قد يكون الجمل ، وقد يكون العوامل ، وقد يكون الشواهد»[47] ص:419.

ونخلص إلى أنهما و إن اختلفا في الكتاب الذي طلبه الخليل،أو الكتاب الذي ألفه اعتماداً عليه إلا أنهما لم ينفيا الرواية التي تقول بأن الخليل أفاد من كتاب الرؤاسي أياًّ كان هذا الكتاب .

أما أبو الطيب اللغوي فقد كان يرى أن الرؤاسي ليس نظير البصريين ؛بل إنه لا يماثل حتى أصغرهم في العربية ،واستدل على ذلك بما رويّ عن أبي حاتم أنه «كان بالكوفة نحويٌ يقال له أبو جعفر الرؤاسيّ ، وهو مطروح العلم ليس بشيء »[27] ص:39.

ولا غرابة في ذلك فلطالما انحاز أبو الطيب إلى البصريين وبجلهم ،ولكن لا ينبغي أن يكون ذلك على حساب الكوفيين ، فقد كان بالكوفة علماء أجلاء يستحقون التقدير ، ولقد ذكر ابن النديم أن للرؤاسي الكتب التالية: كتاب الفيصل ، كتاب التصغير ، كتاب معاني القرآن ،كتاب الوقف والابتداء الكبير ، كتاب الوقف والابتداء الصغير[14] ص:96.توفي الرؤاسي بالكوفة في عهد هارون الرشيد[6] ص:115.

معاذ الهراء : لقب بالهراء لأنه كان يبيعُ الثِّياب الهرويّة ، وكان يكنى أبا مسلم فلما ولد له ولد سماه

عليّاً فصار يكني به [14] ص:67، وهو عَمُ الرؤاسي، أقام بالكوفة، عمل مؤدباً لأولاد عبد الملك بن مروان ، اشتغل مع ابن أخيه في النحو.

وقد ذكر الزبيدي مقارضة شعرية دارت بينه وبين أحد الأدباء تتعلق بمسائل النحوية و الصرفية [44] ص:125-126، جعلت السيوطي يقول : «و من هنا لمحت أن أول من وضع التصريف : معاذ هذا»[41] ص:386 .أما المهدي المخزومي فقد ذهب إلى أنّ هذه القصة لا تثبت أن "معاذاً" هو واضع علم التصريف، لأن علم التصريف لم يظهر كعلم مستقل إلا في نهاية القرن الثاني للهجرة، فقد كان في ذلك الوقت جزءا من علم النحو[32] ص:75-76 .

و لم تذكر التراجم أنه صنف أيَّ مؤلفٍ ،و لعل هذا السبب الذي جعل معظم الدارسين المحدثين يعتبرون هذه الطبقة مجرد مرويات وهمية من قبل الكوفيين لإثبات رساختهم في الدراسات النحوية.

2.2.2.1.1.الطبقة الثانية : مثلها :

الكسائي: الذي يعتبر مؤسس المذهب الكوفي الذي بات يناهض المذهب البصري ، و على يده برزت الفوارق بين المذهبين لاخلاف منهج كل منهما ، «فهو عالم أهل الكوفة و إمامهم »[12] 407/2،و قد سبق أن عرفنا به كعلم من أعلام القراءة في الكوفة .

3.2.2.1.1. الطبقة الثالثة : من أشهر أعلامها :

الأحمـــــــــــــــر :

هو أبو الحسن علي بن الحسن و قيل بن مبارك المعروف بالأحمر[44] ص:147 و [27]ص:89، كان جندياً من رجال النوبة على باب الرّشيد ، لذلك كان يترصد الكسائي في طريقه إلى الرشيد ذهاباً و إياباً يسأله و يستفيد من علمه حتّى عدَّ من أصحاب الكسائي ، و لما أصيب الكسائي بالوضح (البرص) طلب منه الرّشيد أن يختار مؤدبا لأولاده فاختار "الأحمر" و كان يلقِّنه كل يومٍ ما يعلم أولاد الخليفة،و لأنه كان يقظاً فطناً أتقن التعلم و التعليم في نفس الوقت ، و يروي أنه كثير الحفظ ، حيث حفظ أربعين ألف شاهدٍ في النّحو ،و اجتمع عليه الناس، و صنَّف كتاب التصريف، وقد تردد اسمه في المناظرة التي جرت بين سيبويه و الكسائي، إذ سأل سيبويه قبل مجيء الكسائي و خطأه ثلاث مرات فقال له « سيبويه :هذا سوء أدب» [32] ص:111.

الفراء :

هو أبو زكريا يحي بن عبد الله بن منظور الديلميّ الفراء [48] 1/ المقدمة، ولد بالكوفة سنة أربع وأربعين و مائة للهجرة ، و نشأ بها كما ينشأ أولاد الفقراء ، وكانت الكوفة حافلة بالشيوخ في مختلف فروع العلم فالتحق بحلقات القراء و المحدثين و المفسرين ورواة الشعر، كما درس اللغة و النحو عن أبي جعفر الرؤاسي،الذي أعجب بذكائه و فطنته و حثه على الذهاب إلى بغداد لمنافسة الكسائي ،حيث قال له : «قد خرج الكسائي ، وأنت أسن منه، فجئت إلى بغداد ،فرأيت الكسائي فسألته عن مسائل من مسائل الرؤاسي فأجابني بخلاف ما عندي ،فغمزت قوما من العلماء الكوفيين كانوا معي ،فقال: مالك قد أنكرت لعلك من أهل الكوفة ، فقلت نعم ،فقال الرؤاسي : يقول كذا وكذا وليس صوابا وسمعت العرب تقول كذا وكذا ، حتى أتى على مسائلي فلزمته . »[14] ص:96.

وهكذا أعجب الفراء بالكسائي وصاحبه وأخذ عنه النحو ، ثم رحل إلى البصرة وكان ذلك بعد وفاة الخليل ، فالتحق بمجلس يونس بن حبيب وأخذ عنه اللغة والنحو ،وروى عنه الكثير من لغات الأعراب و أشعارهم .و لقد شاع في تلك الفترة علم الكلام و طغى على المناهج الدراسية ،و كانت حلقات المعتزلة مهوى قلوب الشباب و المثقفين و الأدباء في البصرة ،وكان الفراء منهم فتلقن مبادئ الاعتزال ،«و أثار اعتزاله واضحة في كتابه معاني القرآن إذ نراه فيه يتوقف مرارا للرّد على الجبرية »[35] ص:192 ،و مما يثبت اعتزاله علمه بالفلسفة و الطب و النجوم ،حيث كان المعتزلة حريصين على قراءة هذه العلوم ،و شهد له بذلك معاصروه ،حيث يقول تمامة بن أشرس : «ذاكرت

الفراء فوجدته في النحو نسيج وحده، و في اللغة بحراً و في الفقه عارفاً باختلاف القوم ، و في الطب خبيراً ، و بأيام العرب و أشعارها حاذقا»[45] 19/2 و [43] 2814/6.

كما تعتبر صلته بالمأمون دليلاً على اعتزاله أيضاً ، لما عرف عن المأمون من تعصب شديد لمذهبه فقد أعجب بالفراء لاعتزاله و ثقافته الواسعة و المتنوعة فعهد إليه تأديب ولديه، اللذين بالغا في إكرامه و احترامه،لدرجة أنه إذا نهض تقاتلا على تقديم نعليه ، حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فردا، حيث «طلب نعليه يوماً فابتدر إليهما يسبق إلى تقديمهما له ، فقال له المأمون :ما أعز من يتبادر إلى تقديم نعليه وليا عهد المسلمين، فقال ما كنت أدفعها عن مكرمة سبقا إليها و شريفة

حرصا عليها،و قد أمسك ابن عباس بركابي الحسن و الحسين و قد خرجا من عنده،فقال المأمون لومنعتهما لأوجعتك لومًا فلا يحسن ترفع الرجل عن ثلاث والده و سلطانه و معلمه ».[45] 2/19-20

كان الفراء يلازم كتاب سيبويه حتى قيل إنه مات و هو تحت رأسه [27] ص:105 ،و لقد بلغ في العلم مكانةً سامية إذ صار زعيم الكوفيين بعد الكسائي.حيث يقول عنه ثعلب "لولا الفرَّاء ما كانت اللغة لأنه حصّلها و ضبطها ،و لولاه لسقطتِ العربيّة؛ لأنها كانت تُتَنَازع و يدَّعيها كلُّ من أراد ، و يتكلّم الناس على مقادير عقولهم و قرائحهم فتذهب " [43] 2815/6.

فإذا كان الكسائي مؤسس مدرسة الكوفة وواضع أسسها «فإن الفرّاء قد تكفَّل بإتمام البناء و تعَهَّد المدرسة بالنموّ،و أعاد النظر فيما جاء به الكسائي،فأخذ منه ما يتفق مع طبيعة المدرسة »[32] ص:127.

توفي في طريق عودته من مكة سنة سبع و مائتين للهجرة و له مؤلفات عديدة نذكر منها : معاني القرآن، الحدود، المصادر في القرآن، الجمع و التثنية في القرآن، الوقف و الابتداء، الفاخر في الأمتثال ،فعل و أفعل ،المقصور و الممدود، المذكر و المؤنث.. الخ [14] ص:100.

اللِّحْياني :

هو أبو الحسن علي بن المبارك من بني لِحْيَان أخذ عن الكسائي و عن أبي عمر الشيباني من الكوفيين ،و عن أبي زيد و الأصمعي و أبي عُبيدة من البصريين، كان أحفظ الناس للنوادر عن الكسائي و الفراء حيث له " كتاب النوادر " توفي سنة عشرين و مائتين . [6] ص:119 و [32]ص:108.

4.2.2.1.1. الطبقة الرابعة: ومن علمائها

ابن سعدان : هو أبو جعفر الضرير و لد ببغداد سنة إحدى و ستين ومائة، نشأ بالكوفة ،كان ثقة، عمل معلماً للعامة، كان يقرأ بقراءة حمزة بن حبيب ، وذكر ابن نديم أنه «اختار لنفسه(قراءة) ففسد عليه الأصل والفرع » [14] ص:104،تُوفي سنة إحدى وثلاثين و مائتين للهجرة ، ومن مؤلفات : كتاب القراءة ،كتاب مختصر النحو. [14] ص:104 و [6] ص:120.

الطول :

أبو عبد الله محمد بن أحمد نشأ بالكوفة أخذ من الكسائي و الأصمعي و غيرهم ، قصد بغداد، توفي سنة مائتين و ثلاث و أربعين للهجرة . [6] ص:120.

ابن قادم :

أبو جعفر محمد بن عبد الله بن قادم، أخذ عن الفراء وحذق النحو و تعليله، كما أخذ من ثعلب، كان يؤدب ولد سعيد بن قتيبة الباهلي . اتصل بالعباسيين فأدب المعتز قبل الخلافة، ومن مؤلفاته في النحو: الكافي، و المختصر ،توفي ببغداد سنة إحدى و خمسين و مائتين . [6] ص:120 و [44] ص:138.

5.2.2.1.1.الطبقة الخامسة : و يمثلها :

ثعلب : أبو العباس أحمد بن يحي بن يزيد المعروف بثعلب مولى بني شيبان ،و لد ببغداد سنة مائتين للهجرة ،أدخله والده الكُتّاب في صغره لتعلم الكتابة و حفظ القرآن، و أشعار العرب، و لما اشتدَّ عوده أخذ يتردد على حلقات العلماء ،فأخذ اللغة عن ابن الأعرابي ، كما انكب على قراءة كتب أبي زيد وأبي عبيده و الأصمعي، أما النحو فقد أخذه عن تلامذة الفراء خاصة سلمة بن عاصم ، كما درس كتب الفراء و حفظ مسائله ،حيث يقول :«ابتدأت بالنظر في العربية و الشعر و اللغة في سنة ست عشرة ، و حذقت العربية و حفظت كتب الفراء حتى لم يشذ عني حرف منها و لي خمس وعشرون سنة» [14]ص:110، كما كان«متبحراً في مذهب البصريين، غير أنه لم يكن مستخرجاً للقياس ولا طالباً له» [35] ص:225، ليكمل ثقافته درس القراءات و الحديث والتفسير و رواية الأخبار والأشعار، و قد اشتهر بين علماء عصره بغزارة علمه و سعة حفظه ، حيث يقول ابن المُدَوَّر «كنت أرى أبا عبد الله بن الأعرابي يشك في شيء فيقول :ما عندك يا أبا العباس من هذا ؟ ثقةً بغزارة حفظه »[44] ص:408 .

آلت إليه رياسة مدرسة الكوفة النحوية في الوقت الذي اشتدت فيه المنافسة بين البصريين و الكوفيين بقدوم المبرد إلى بغداد و اجتماع الدارسين حوله .

وكان منهم تلامذة وأصحاب ثعلب كالزجاج وأبي علي أحمد بن جعفر الدينوري المصرفي حيث أعجبوا بقدرته على التحليل والتعليل، « وظلَّ هذان الشَّيخان يتنافسان ، وظلّ أصحابهما يتنافسون ، كلٌّ يتحيَّز إلى شيخه ، ويغضّ من منافسه ، وكان المبرّد يتفوق على ثعلب بحسن العبارة ، وقوّة المنطق ، لذلك كان ثعلب يتحاماه ويحجم عن لقائه ومناظرته » [32] ص:148، باستثناء بعض المجالس التي كان يضطرُّ فيها إلى لقائه لأنه لا يستطيع الاعتذار . فقد كان ثعلب كثير الحفظ واسع الرواية بعيداً عن أساليب الجدل النَّظري ، وهو بهذا يمثل الكوفيين بالإضافة إلى حفظه لعلم أساتذته الفراء والكسائي .

فإذا كانت المدرسة«قد نمت واكتمل نضجها ،وارتسم منهجها في عهد الكسائيّ والفرّاء .كان الكسائيّ مشترِعًا ، والفرّاء منظماً ، فلما انتهت إلى أبي العبَّاس كانت حدودها مرسومة ،ومنهجها مقوماً ، وكان ثعلب حارسها الأمين . وكان حفظه الكثير، وروايته ، وتتبُّعه ، من العوامل التي خدمت قضية الكوفة، وحفظت أقوال أئمتها، واستطاعت بها أن تستمرّ، وأن تجد لها أتباعاً وأنصاراً في خلال العصور التالية ، وأن تزاحم مدرسة البصرة ، بالرغم من كثرة أنصارها ، وإعجاب الدّارسين إذ ذاك بمنهجها ، فكثيرمن مصنّفات أئمتها الأوّلين ضاع ،ولم يبق منه إلا عنوانه تردّده كتب التراجم و الطبقات، ولكن تلك المصنَّفات و جدت في شخص ثعلب حافظاً لها حريصاً على نشر ما كان فيها ...» [32] ص:152-153.

اتصل الثعلب بالخلفاء و الأمراء حيث أدب ابن المعتز و ابن طاهر ، توفي سنة إحدى و تسعين و مائتين للهجرة ،وله مؤلفات عديدة منها : اختلاف النحويين ، معاني القرآن ، الموفقي مختصر في النحو : التصغير ، ما ينصرف و ما لا ينصرف ، الوقف و الابتداء ، حد النحو ،و كتاب الشواذ، وكتاب الأمثال ،و مجالس الثعلب ... الخ [14] ص:111.

و هكذا ختمت مدرسة الكوفة النحوية بأبي العبَّاس ثعلب وفق ما ذهب إليه الشيخ محمد الطنطاوي، وأبو الطيب اللغوي الذي يرى أن أصحاب ثعلب و تلامذته اهتموا باللغة و الشعر أكثر من النحو،إلا أننا نجد الزبيدي في طبقات أضاف طبقةً سادسةً ذكر فيها أصحاب ثعلب مثل:هارون بن حائك، و أبو موسى الحامض، و محمد بن أحمد بن كيسان ، و أبو بكر بن أنباري، و محمد بن عرفة نِفْطَوية ..الخ

أما ابن النديم في الفهرست فقد ذكر رجال المدرسة ابتداءً من أبي جعفر الرؤاسي وصولا إلى أبي بكر الأنباري و أبي عمر الزاهد تلميذي ثعلب دون أن يصنف إلى طبقات، كما نجد مهدي المخزومي في حديثه عن رجال المدرسة يركز على الكسائي و الفراء و ثعلب فهم أئمتها أما أصحابهم و تلامذتهم فلم يضيفوا شيئا و إنما ردَّدوا أقوال أساتذتهم .

1.1 .2 .3. الكوفيون و فن الرواية :

عُرف عن الكوفيون اهتمامهم الكبير بالرواية سواء في القراءات أو سائر الفنون العربية و ما يتصل بها من أخبار و علم بالأيام و الوقائع ، ففي الوقت الذي اهتم فيه البصريون بدراسة الفلسفة و علم الكلام ، توسع الكوفيون في رواية الأشعار و أقوال العرب ، فمن أهم ما ميّز الكوفه أنّه : «كان فيها رواة الأشعار و الشعراء و كان فيها النَّسَّابون ، و أصحاب الأخبار التي تتصل بأيام العرب ، و حياة الأبطال (...) و أما الشعر فالكوفة هي التي حفظت لنا ذخائر العرب من مُطَوّلات و مُقَطَّعات تتَّصِل بالحماسة و غيرها من الموضوعات التي كانت تهم العرب في حياتهم و معاشهم و قد وجد فيها من الشعراء مجموعة كبيرة لافتة »[32] ص:38.

فقد اشتهر الكوفيون بإقبالهم على الشعر و باهوا بذلك البصريين حيث يقول ابن جني :«أخبرنا أبو صالح السليل بن أحمد بن عيسى بن الشيخ ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي ، قال:حدثنا الخليل بن أسد (...) قال أخبرني رجل عن حمّاد الرّاوية قال: أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج – قال : و هي الكراريس – ثم دفنها في قصره الأبيض،فلما كان المختار ابن أبي عُبيد قيل له : إنّ تحت القصر كنزاً، فاحتفر، فأخرج تلك الأشعار فمن ثَمَّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[11] 387/2.

حيث كانوا مولعين بالشعر لدرجة أنه شغلهم عن أمورهم ، و دليل ذلك تخاذلهم عن القتال حيث قال عليّ كرم الله وجهه في خطبته لهم :« إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حلقاً عزين تضربون الأمثال و تناشدون الأشعار ، تَرِبَت أيديكم ، و قد نسيتم الحرب و استعدادها ، و أصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها و شغلتموها بالأباطيل و الأضاليل »[6] ص:36 .

و تقوم الرواية على ثلاثة أركان أساسية و هي : المورد ، و الراوي و المروي

1.3.2.1.1 .المورد : أو المروي عنه : و هو العربي القح الذي أخذت عنه اللغة [49] ص:363،

وصفه اللغويون بخشونة العيش؛ و ذلك لملازمته البادية وعدم مخالطة الأجانب [11] 12/2 ، و من شروطه أيضاً : الأمانة و الصدق و العدل و الثقة هذا في من يُروى عنه الشعر ،أما فيما يخص النثر فقد اشترطوا في المورد الفصاحة و سلامة اللغة .

حيث نقل السيوطي : « إنّ العربي الذي يحتج بقوله لا يشترط فيه العدالة ،نعم نشترط في الراوي ذلك ....» [50] ص:36.

2.3.2.1.1 .الراوي : هو آخذ اللغة عن البدو الفصحاء ، يعرف بكثرة ترحاله إلى البادية و ينبغي أن تتوفر فيه الشروط التالية العدل،السماع المرهف،إذ يقول البغدادي «إتقان الرواية يستلزم إتقان الدراية »[51] ص: 04، و الثقة و الصدق و الأمانة، إذ يقول ابن فارس «تأخذ اللغة سمعا من الرواة الثقات ذوي الصدق و الأمانة يُتَّقي المضنون ...»[36] ص:85.

و لقد أجاز ابن الأنباري نقل أهل الأهواء إن لم يكونوا ممن يتدينون الكذب و اشترط فيهم الصدق [52] ص:85-86 ، بالإضافة إلى قوة الحافظة فهي التي تعين الراوي على جمع الأشعار و الأمثال السائرة في المجالس و أثناء الترحال إذا تعذر عليه تسجيلها في وقتها إذ «يجب فهمه لها فهماً دقيقاً و حفظه لها حفظاً كاملاً لا تردد فيه و ثباته على هذا كله من وقت السماع إلى وقت الأداء»[53]ص:128.

بدأت التحريات اللغوية عند العرب في وقت مبكر على يد أبي عمرو بن علاء الذي يعتبر قائد الرحلة إلى البادية، ليأتي بعده تلامذته من الرواة الذين ساروا على نهجه ، و قد قسمهم الأزهري إلى طبقات في مقدمة معجمه" تهذيب اللغة" فكان رواة الكوفة حسب طبقات كما يلي[54] 08/2-28 .

1.2.3.2.1.1الطبقة الأولى : و من أشهر رواتها :

المفضل الضبي : هو أبو العباس المفضل بن محمد بن يعلي بن عامر بن سالم و يكنّي بأبي عبد الرحمن ،«كان من أكابر علماء الكوفة عالما بالأخبار و الشعر و العربية»[43] 2710/6،كما كان أوثق من روى الشعر من الكوفيين غلب عليه : «رواية الشعر و حفظ الغريب »[54] 10/1.

و يعتبر أوّل كوفيّ قام بالتحريات الميدانية و هو صاحب المفضليات ؛ و هي مجموع قصائد يقول عنها ابن النديم:

«للمهدي عمل الأشعار المختارة المسماة المفضليات و هي مائة و ثمانية و عشرون قصيدة، و قد تزيد و تنقص ، و تتقدم القصائد و تتأخر بحسب الرواية عنه ، و الصحيحة التي رواها ابن الأعرابي» [14] ص:102،إلاّ أنّ ما وصلنا منها هو «126 قصيدة لسبعة و ستين شاعراً، منهم ستة عاشوا حياتهم كلها في الإسلام ،وأربعة عشر مخضرمون عاشوا أكثر حياتهم في الجاهلية ثم أسلموا، و سبعة و أربعون عاشوا و ماتوا في الجاهلية »[55] 275/2.

و من مؤلفاته أيضاً: كتاب الأمثال، كتاب العروض ،كتاب معاني الشعر ... إلخ

2.2.3.2.1.1الطبقة الثانية : و من هذه الطبقة :

الكسائي : - و قد سبق تعريفه – إلى جانب القراءة و النحو رحل إلى البادية و تلقى عن الأعراب إذ يقول «فلما صرت إلى ظاهر الكوفة و لقيت القبائل، جعلت أسألهم فيخبروني مشافهة و ينشدون الأشعار، فأنظر إلى ما في يدي و إلى ما أسمعه منهم فأجد الحجة تلزم عندي، فمازلت أكتب عنهم نفذت نفقتي و شحب وجهي و جلدي فصرت كأني رجل منهم »[56] ص:379.

علي بن مبارك الأحمر : كان الغالب عليه الغريب و المعاني و النحو ، كما كان يحفظ ثلاثين ألف بيت من المعاني و الشواهد ، حيث عرف بتقدمه «على الفرّاء في حياة الكسائي لجودة قريحته و تقدمه في علل النحو و مقاييسه »[54] 11/1 ، و قد شارك في المسألة الزنبورية .

الفراء: برز في النوادر و الغريب مثلما برز في النحو و القراءات و معاني القرآن .

3.2.3.2.1.1الطبقة الثالثة : و من أشهر رواتها :

ابن الأعرابي : هو أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي عرف بكثرة حفظه ، حيث قيل إنَّه "لم يُرَ أحد في الشعر أغزر منه" [14] ص:103 ،إذ حفظ من الغريب و النوادر ما لم يحفظه غيره، كما كان على اطلاع بأنساب العرب و أيّامها ، و قد سمع من الأعراب الذين كانوا ينزلون بظاهر الكوفة من بني أسدٍ و بني عُقيل ،كما جالس الكسائي ،و له كتاب النوادر[54] 20/1-21.

أبو الحسن علي بن حازم اللّحياني : كان من أحفظ الناس للنوادر عن الكسائي و الفراء و الأحمر ، حتى قيل انه «كان يَدْرُسها بالليل و النهار، حتى في الخلاء» [54] 22/1 .

أبو عبيد القاسم بن سلام:كان ذا فضل ودين وستر ومذهب حسن،وروى عن ابن الأعرابي،و أبي زياد الكلابي والأموي وأبي عمرو الشيباني والكسائي والفراء،ومن البصريين عن الأصمعي و أبي عبيدة و أبي زيد [14] ص:106،و له مؤلفات عدة منها غريب الحديث ،غريب القرآن،معاني القرآن ، الأمثال السائرة النسب و الغريب المصنف؛الذي قال عنه شِمر :«ما للعرب كتابٌ أحسن من مصنف أبي عبيدة» [54] 20/1 .

عمرو بن أبي عمرو الشَّيباني : كان يؤدب في أحياء بني شيبان فنسب إليهم ،عُرف بروايته و سعة علمه باللغة و كثرة سماعه ، أُخذت عنه دواوين أشعار القبائل،من كتبه : الخيل ، غريب المصنف ، اللّغات، النوادر ، غريب الحديث ... [14] ص:101.

4.2.3.2.1.1.الطبقة الرابعة : و يمثلها **أبو العباس أحمد بن يحي الشيباني** الملقب بثعلب الذي أشتهر بحفظه و معرفته بالغريب ، و رواية الشعر القديم .

5.2.3.2.1.1.الطبقة الخامسة : و هي الطبقة التي أدركها الأزهري في عصره و فيها :

أبو بكر محمد بن بشار الأنباري :الذي يقول عنه الأزهري : «كان واحد عصره ،و أعلم من شاهدتُ

بكتاب الله و معانيه و إعرابه ، و معرفته اختلاف أهل العلم مُشكِلِة ، و له مؤلّفات حسان في علم القرآن مقّدماً في صناعته ،معروفاً بالصدق حافظاً،حسن البيان عذب الألفاظ لم يُذكر لنا إلى هذه الغاية من الناشئين بالعراق و غيرها أحد يخلُفُه أو يسدُّ مسدَّه » [54] 28/1 ،و من مؤلفاته :كتاب خلق الإنسان، كتاب الفرس ،كتاب الأمثال، كتاب غريب الحديث ... إلخ . [14] ص:101.

أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة الملقب بنِفْطَويه : الذي اشتهر بحفظ اللغات و معاني الشعر و مقاييس النحو [54] 28/1 . هؤلاء أغلب رواة الكوفة الثقات الذين ذكرهم الأزهري في كتابه، و قد كان لهم دور كبير في جمع اللغة، فما رواه (أبو عمرو الشيباني الكوفي وزملاؤه من اللغة و ما جمعوه من الشعر يمثل القسط الأكبر من كل ما جُمع من الشعر المسموع من فصحاء العرب،ثم لا يخلو من رواياتهم أي كتاب في اللغة،و على أساس هذه المعطيات و ما جمعه الكوفيون صنع ابن السكيت والطوسي و السكّري دواوين الشعراء كلهم)[49] ص:340.

ولقد اشتهر في الكوفة إلى جانب هؤلاء راوٍ لم يذكره الأزهري ألا و هو:

حمّاد الراوية: كان أوسعهم رواية،« و قد أخذ عنه أهل المصرين و خلف الأحمر و روى عنه الأصمعي شيئا من شعره، قال الأصمعي:وكل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا شيئا سمعناه عن أبي عمرو بن العلاء»[12] 406/2.

أما أبو الطَّيِّب فيرى أن "حماد الراوية مع ذلك عند البصريين غيرُ ثقة و لا مأمون،أخبرنا جعفر بن (...) قال أبو حاتم:كان بالكوفة جماعة من رواة الشعر مثل حمّاد الراوية و غيره.و كانوا يصنعون الشعر و يقتفون المصنوع منه.و ينسبونه إلى غير أهله"[27] ص:86.

ولقد كان حماد الراوية كالشمس شهرة في الكذب.حيث يروى أن أعرابيا قصد حماداً و أنشده «قصيدة لم تُعْرف و لم يُدْر لمن هي.فقال حمّاد اكتبوها، فلما كتبوها، و قام الأعرابي قال:لمن ترون أن نجعلها؟ فقالوا أقوالاً.فقال حماد:اجعلوها لطرفة." [12] 406/2 ، ولعل هذا سبب في عدم أخذ البصريين عنه.إلا إذا وافقت روايته رواية غيره لأنهم لا يعتدون بالراوي الواحد.

أما الكوفيون فقد أخذوا عنه دون تحرج لأنه كان ضليعاً في الشعر و آداب العرب لدرجة قال عنه المفضل:«قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده.فلا يصلح أبدا.فقيل له:كيف ذلك؟ أيخطئ في روايته أم يلحن.؟ قال:ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب،و لكنه رجل عالم بلغات العرب و أشعارها و مذاهب الشعراء و معانيهم.فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل، ويدخله في شعره، و يحمل عنه ذلك في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلاّ عند عالم ناقد، وأين ذلك؟"[6] ص:136-137، فحتى وإن كان ضعيف الأمانة إلاّ أنّه كان من أشهر الرواة في عصره.

3.3.2.1.1 .المروي:أو المسموع.لقد أيقن العلماء أن ما سمع عن العرب ليس في درجة واحدة

و ذلك من حيث الشيوع وموافقة القياس.وثقة وعدالة الراوي و فصاحة المورد ...لذلك قسم المسموع عدة تقسيمات منها مطرد وشاذ.تواتر و آحاد...[50] ص:32-53.

و بهذا نخلص إلا أنّ الكوفة قد زخرت بعلماء أجلاء في مختلف المجالات ، كان لهم شأن كبيرٌ في خدمة اللغة العربية ، و إن كان هناك انتقادات وُجِهت لهم إلا أنّ ذلك لا ينقص من قيمتهم .

2.1 . منهجها في الدراسات اللغوية.

تمهيد: سنتناول في هذا المبحث مناهج الكوفيين في دراستهم للغة، محاولين الوقوف على طريقتهم في الكشف عن الحقائق اللغوية ووصفها وتقعيد قواعدها وذلك في مختلف فروع الدروس اللغوي ــ الصوت والصرف والنحو- لاتصالها ببعضها البعض في مناهج اللغويين ومصنفاتهم،وما هو معروف أن العرب عندما أقدموا على دراسة لغتهم لم تكن هناك مناهج أو طرائق بحث متطورة مثلما هي عليه في الدراسات الحديثة،ولأنهم حددوا هدفهم سلكوا كل المناهج و الطرق التي أتيحت لهم للوصول إليه وهذا ما سنحاول توضيحه ــ فما هو المنهج؟

تعريف المنهج:

لغة: «النَّهج: بفتح فسكون (:الطريق الواضح) البين.وهو النهج.محركة أيضا والجمع نَهجات.ونهج.ونهوج (...)وطرق نهجة:واضحة (كالمنهج) بالفتح والمنهاج بالكسر.وفي التنزيل "لكل جعلنا منكم شرعة و منهاجا"[المائدة :48] المنهاج: الطريق الواضح» [57] 251/6.

أما معناه الاصطلاحي:فهو: "النسق والنظام الذي يتبعه الباحث ، تتوضح فيه الأفكار التي تجري فيه وصولاً إلى الحقيقة التي ينشدها"[58] ص:34.

فالمنهج إذن هو الخطة التي يرسمها الباحث لنفسه ،ينظم بها أفكاره ،و يحدد مسيرة بحثه حتى يتمكن من الوصول إلى نتائج قيّمة، إذ أن لكل علم مناهج معينة بما في ذلك علم اللغة الذي عرف مناهج متعددة بتعدد وجهات النظر واختلاف المذاهب، و أشهرها:

1ــ المنهج التاريخي:historical : أطلقت عليه دي سوسور "المنهج الدياكروني" "diachronic" [59] ص:105-106، وأساس هذا المنهج تعدد الفترات الزمنية ،إذ يتناول اللغة على فترات مختلفة من الزمن ،بهدف معرفة التَغَيُرات التي طرأت عليها أثناء تلك الفترة، «واللغة العربية لم تحظ بهذا النوع من الدراسة بعد ، ومن هنا كانت الصعوبة في تعرف مراحل التطور الذي أصابها»[60] ص:217 ، و بهذا ينفي كمال بشر كون أنّ اللغة العربية لم تتغير كما ذهب البعض ، بسبب عدم تسجيل ذلك التطور .

2- المنهج المقارن:"comparative" :فإن كان المنهج التاريخي يدرس التغيرات والتطورات التي تطرأ على لغة من اللغات عبر حقب زمنية. فإن المنهج المقارن يقوم بالمقارنة بين حقب تاريخ اللغة

لمعرفة وجوه الشبه والاختلاف بين هذه الحقب،ومثلما يطبق هذا المنهج على تاريخ لغة معينة، يطبق على مجموعة من اللغات التي تنتهي إلى أصل واحد، وذلك بهدف الرجوع إلى جذورها الأولى، محاولاً في كل خطواته الوصول إلى مجموعة من السمات المشتركة التي توجد في هذه اللغات. وهذا ما يعرف بالمنهج التاريخي المقارن الذي اشتهر في أواخر القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر، وذلك عند اكتشاف اللغة السنسكريتية وعلاقتها باللاتينية و الإغريقية، فراح الدارسون يقارنون بين اللغات الموجودة في آسيا و أوروبا لتعرُّف على القرابة بينها ، بغية محاولة تركيب اللغة الأم من مجموع العناصر المشتركة بين اللغات.

ومثلما يعتمد المنهج المقارن على الدراسة التاريخية فإنه يعتمد أيضاً على الدراسة الوصفية حيث يقوم الباحث بوصف لغتين أو أكثر من أصل واحد في فترة محددة ثم يقارنها ببعضها البعض[60] ص:218-219 .

3ـــ المنهج المعياري: نشأ هذا المنهج في اليونان ثم أخذه عنهم الرومان و السريان ثم العرب وغيرهم ،و لقد تأثر هذا المنهج بالبحوث الفلسفية و المنطقية في مبادئه و أسسه ،إذ أن « هدف الدارسون المعياريين في القديم كان البحث عن مجموعة من القواعد والنظم التي تتسق مع قواعد التفكير المنطقي العام (logic) ، حتى يقودهم هذا إلى وضع حدود حاسمة تفصل بين نوعين من الكلام والاستعمال اللغوي: صحيح وغير صحيح، أو جائز وغير جائز»[60] ص:221 ، و منه فإن المعيارية تتمثل في وضع أطر عامة وقوانين معينة تكون بمثابة المعيار و المقياس للكلام.

4ـــ المنهج الوصفي: وجد هذا المنهج سبيله إلى التطبيق على يد العالم السويسري دي سوسور؛ الذي فرق بين الدراسات التزامنية للغة والدراسة التعاقبية ، حيث يركز هذا المنهج على موضوع الدراسة الألسنية ألا وهو اللغة في حد ذاتها و لذاتها ؛إذ ينظر إليها على أنها "كيان موحد قائم بذاته"[59] ص:27،وهو الأســـــاس الأول الذي يقوم علـــــيه المنهج الوصفي دراسة اللغة كما يعتمد على جملة من الأسس الأخرى و هي:

- دراسة لغة معنية في زمان و مكان المحددين. [59] ص:105-106.

- الفصل بين المظهر الاجتماعي للغة"language" و المظهر الفردي لها" parole" [59] ص:32-38 .

- جعل اللغة المنطوقة هدف البحث اللغوي لظهور التغيرات اللغوية عليها بشكل واضح ،على عكس اللغة المكتوبة التي تجنح إلى الاستقرار [59]ص:46.

- ربط الدرس اللغوي بالاستعمال الواقعي للغة عن طريق الاعتماد على المسموع للوقوف على العادات النطقية لمتكلمي اللغة .

- الاعتماد على المتكلم الأصلي للغة ،و اتخاذه مساعداً للبحث لأنه خير من يمثل اللغة بصدق .

- اتخاذ الاستقراء العلمي منهجا لاستنباط الحقائق اللغوية العامة .

- رفض القياس المستند إلى الفلسفة و المنطق الأرسطي و تأكيد دراسة اللغة في ضوء القياس الطبيعي المعبر عن منطق اللغة .

- الحرص على الموضوعية في إطلاق الأحكام المستقراة من اللغة، و الابتعاد عن فرض آراء مسبقة لا علاقة لها من اللغة .

- إبراز شخصية الباحث الوصفي من خلال الربط الوصفي الموضوعي بالتفسير الذي لا يخرج عن منطق اللغة .

- دراسة المستويات اللغوية على أساس من التحليل الشكلي ،و التحليل الوظيفي ،و الدلالي، و على أساس العلاقة بين المستويات اللغوية الثلاث [58] ص:28-29 .

5 – المنهج النقالي : و هو منهج حديث نسبياً ، استخدم في مجال تعليم اللغات يقوم أساساً علة مقابلة حقائق لغة معنية بحقائق اللغة أخرى للتسهيل على المتعلمين ،و المنهج التقابلي «و صفي في الأساس ويقوم بالمقابلة بين اللغات التي ترجع إلى أصول مختلفة، و هو منهج تعليمي أي يستخدم في التعليم و تعليم اللغات الأجنبية بوجه خاص»[60] ص:237 .

6 – المنهج البنوي : سيطر هذا المنهج على البحث اللغوي في الأربعينيات و الخمسينات من القرن العشرين، و انتقل تأثيرها من الدرس اللغوي إلى ميدان الأدب و نقده، و يشار إليه "بالنظرية البنائية" أو "البنوية" " structural " و هي «منهج عام يأخذ اللغة على أنها "بناء" أو "هيكل"، أشبه شيء بالهيكل الهندسي المتشابكة وحداته ذات الاستقلال الداخلي، و التي تحدد قيمتها بالعلاقات الداخلية بينها، و ذلك بمعزل عن أية عناصر خارجية» [60] ص:237 .

و نستنج من هذا القول أن البنوية في دراستها للغة تعتمد عل مبدأين اثنين و هما:

- أولا: الاستقلال عن الملابسات و الظروف الخارجية .
- ثانيا :تشابك و حدات النص اللغوي فيما بينها.

وما هو معروف أن الكوفيين لما باشروا في حقل الدراسات اللغوية لم تكن منهاج البحث بهذا التطور و الوضوح ، لذلك لم يلتزموا في بحوثهم منهجاً واحداً أو وسيلة محددة واضحة ،و إنما كانوا يعملون و يجتهدون بشتى الطرق ،و بهذا شكلت دراستهم مزيجا من طرائق البحث كما سنرى .

1.2.1 . الاستقراء:

يعتبر الاستقراء أول عمل يقوم به اللغوي والنحوي وهذا ما قام به الكوفيون في دراساتهم حيث سعوا إلى استقراء اللغة من أفواه العرب.

1.1.2.1 . تعريفـــــــــــه:

لغة: «قرا (قرو): القَرْوُ: كلُّ شيء على طريقة واحدة وقـَرَوتُ إليهم أقرُو وقرْوًا أي قصدت نحوهم، قال: قاريةُ الرُّمْحِ: أسفله ممّا يلي الزُّجَ، وفلانَ يقْتري رجلاً يقوله؛ ويقتَري مسلكاً ويَقرَه أي يَتَّبعُ ويقتري أيضا، ويستقريها ويقروها إذا سار فيها ينظر حالها وأمرها، ومازلت أستقري هذه الأرضَ قرية قرية...»[13] 384/3-385 ، أي أنظر في حالها وأمرها.

ومنه فإنّ "الاستقراء" في اللغة يعني التتبع والنظر لذلك أطلق على ما يقوم به الدارسون من تتبع للمادة واستقصائها وجمعها.

اصطلاحا: يعتبر الاستقراء «تتبعًا منهجيًّا لجزيئات ظاهرة ما تتبعًا استقصائيًا ويسمى بالاستقراء الكامل، أو جزئيًّا ويسمّى بالاستقراء الناقص»[61] ص:323، حيث سعى علماء اللغة الأوائل إلى استقراء اللغة من أفواه العرب الفصحاء، وتدوينها وضبط قواعدها ومعانيها، إذ يعتبر «العمل الاستقرائي هو الشيء الوحيد الذي يجعل اللغة ذات مساس بالحقيقة»[62] ص:173.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ما هو المعيار الذي اعتمد عليه الدارسون في تحديد اللغة العربية الفصحى وحصرها؟ وللإجابة على هذا السؤال ينبغي أولاً تحديد مفهوم الفصاحة.

2.1.2.1 . مفهــوم الفصاحـــة:

لغة: الفصاحة هي: «خلوص الشيء مما يشوبه، وأصله في اللبن، يقال: فصح اللبن، إذا ذهب عنه اللبأ، أي الرغوة التي تغطي سطحه»[63] ص:33، ونستخلص من هذا القول أن معنى الفصاحة هو الوضوح.

كما نقل الأزهري عن الليث: «وقد يجيء في الشعر وصف الأعجم بالفصاحة يراد به بيان القول، كقول أبي النجم: أعجم في آذاننا فصيحاً

يعني صوت الحمار أنه أعجم وهو في آذان الأُتُن فصيح بين»[54] باب فصح .

ومنه فإن المعنى اللغوي للفصاحة هو البيان والوضوح.

اصطلاحا: اختلف الدارسون في تحديدهم لمفهوم الفصاحة وسنحاول تحديد هذا المفهوم بالنظر في كيفية استخدام العلماء لها. فهذا الجاحظ يقول: «فمن زعم أن البلاغة هي (...)، جعل الفصاحة واللكنة، والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والمعرب، كله سواء وكله بياناً»[5] 162/1، حيث ذكر الجاحظ في هذا القول مجموعة من الأضداد وهي:

الصواب ≠ الخطأ

الإبانة ≠ الإغلاق

المعرب ≠ الملحون

لهذا يمكننا القول أنه استخدم اللكنة كمقابل –ضدٍ- للفصاحة كما حدد اللكنة بقوله: «يقال في لسانه لكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب ،وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول»[5] 39/1-40 ،ومنه فإن اللكنة هي:«بمنزلة الخطأ والإغلاق والملحون كما أن الفصاحة بمنزلة الصواب والإبانة والمُعْرَب»[49] ص:34 .

أما عبد القادر الجرجاني فقد حاول تحديد مفهوم الفصاحة عند النحاة فقال: «ولم يعلموا أن المعنى في وصف الألفاظ المفردة بالفصاحة أنها في اللغة أثبت وفي استعمال الفصحاء أكثر، أو أنها أجرى على مقاييس اللغة والقوانين التي وضعوها، وأن الذي هو معنى الفصاحة في اللغة هو الإبانة عن المعنى بدلالة قولهم: (فصيح وأعجم)،وقولهم: (فصيح الأعجم وفصيح اللحان)»[64] ص:353، ومنه فإن الجرجاني لم يطلق صفة الفصيح على الناطق فقط بل على كلامه أيضاً.

ويقول الجاربردي في الفصاحة : «فإن قلت: ما يقصد بالفصيح؟ وبأيِّ شيء يُعلم أنه غير فصيح وغيره فصيح؟ قلت: أن يكون اللفظ على ألسنة الفصحاء الموثوق بعربيتهم أدور واستعمالهم لها أكثر»[12] 187/1، ولقد خص صاحب هذا القول استعمال الفصاحة بما ينطق به الفصيح، وهذا مفهوم خاص بالبلاغة فقط.

وهناك من ذهب إلى أن الفصاحة اللغوية عند النحاة القدامى كانت تعني السليقة، أي التكلم باللغة دون تعلم، بل بأخذها مباشرة من المجتمع[65] مادة:س ل ق .

ومنه فإن مصطلح "الفصاحة" ومشتقاته كان يُقصَدُ به عند النحاة واللغويين قديما[49] ص:38-40:

1 – صِفِة مَنْ تٌرتَضى عربيته: أي كون الناطق العربي فصيح يوّثق بلغته ويؤخذ بها.

2 – السلامة اللغوية: أي النطق بكلامٍ عربيٍّ سليمٍ بعيدٍ عن الخطأ ،لأن الخطأ هو عدم انتماء الكلمة الموسومة بذلك إلى كلام العرب.

وأهم مقياس للتميز بينهما –الفصيح والخطأ- هو عجز الفصحاء عن فهم ما يقوله غير الفصيح.

3 – استعمال الكثير المعروف من كلام الفصحاء: أي النطق بالكلام الواضح بالنسبة إلى جميع أفراد المجتمع العربي الفصيح.

4 – السليقـــــــــــــــة: أي أن يكون الناطق اكتسب العربية الفصيحة من البيئة التي نشأ فيها، وبالتالي هي لغته الأولى، وألاّ يكون تعلّمها من ملقـّن. «فالفصاحة والسليقة والملكة مصطلحات استعملها النحاة العرب، وتطلق عندهم على معانٍ متقاربة في ميدان الدراسات اللسانية، وتعني عندهم تعلم اللغة من المحيط في الصغر، وهي مقابلة للحن الذي فشا على ألسنة المولدين»[63]ص:35 .

ويظهر ذلك واضحًا عند ابن خلدون إذ أنّ تعريفه للملكة اللغوية هو نفس تعريف الفصاحة اللغوية؛ حيث يقول: «ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما يأخذ صبياننا لهذا العهد لغتنا»[66] ص:1056.

وقد ذكر الفراء في كتابه "معاني القرآن" مصطلحات تخص السماع مرتبطة بالفصاحة

جدول رقم 01:نماذج من مصطلحات السماع المرتبطة بالفصاحة من كتاب "معاني القرآن" للفراء

النموذج	الجزء	الصفحة
وهذه اللغة كثيرة	ج1	215
أكثر كلام العرب أن ينصبوا المعذرة	ج 1	299
ومثله: أوعدني وتوعَّدني وهوكثير	ج2	69
وقد استعملت العرب (لولا) في الخبر وكَثُر بها الكلام	ج 2	85
في كثير من كلام العرب أن تجمع العرب فعل الواحد	ج3	42
وهو في العربية كثير	ج3	48
إلا أن التوحيد أكثر وأجود	ج3	112
زعم الكسائي أن العرب تُؤثر الرفع	ج3	245
وهي لغة يمانية فصية	ج3	229

وقد لخص الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح تطور مفهوم الفصيح عند النحويين واللغويين في المخطط التالي:

1- في القرن الأول والثاني عند سيبويه وشيوخه

المتكلم العربي اللسان (في الأصل)

الفصيح (لغويا) ← في المقابل → **غير الفصيح (لغويا):**

وهو مَنْ كانت عربيتُه سليمة في كل مستويات التعبير لموافقة نظامها للغة القرآن ومن كان ينطق بها سليمة (وهو العربي اللسان الذي منشأه اللغوي العربية ليس إلا).

غير الفصيح (لغويا): وهو اللاحن في لغته العفوية أي مَنْ كانت عربيتُه غير سليمة لتَغيُّرها كليًا أو جزئياً عن لغة القرآن ومن كان ينطق بها سليمة (وهو: العربي المتأثر في منشئه أو بعد ذلك بلغة أخرى أو الأعجمي الأصل الذي منشأه اللغوي غير العربية وقد يكون كلاهما فصيحا في التعبير غير العفوي ولكنهما غير مأمونين عند العلماء).

فصيح ← في المقابل → افصح

فصيح: هو من استعمل مشهور اللغات وضروب الكلام وغريبها (= بعض عباراته عربي كثيرأو قليل جيّد).

افصح: هو من يكثر على لسانه المشهور من ضروب الكلام المعروفة عند أكثر الفصحاء (= أكثر وأعرف وأعرب).

<u>شكل رقم 01: تطور مفهوم الفصيح عند النحويين و اللغويين في القرن الأول و الثاني [49] ص:49</u>

2 – في القرن الثالث: يطلق هنا على اللفظ (زيادة على المتكلم)

فاللفظ هو: [**فصيح/أفصح** ← في المقابل → **لغة**] ← في المقابل → **غير فصيح**

فصيح/أفصح: وهو اللفظ العربي الواضح المعروف عند الفصحاء المرغوب فيه ويتفاوت على درجة في ذلك.

لغة: هو اللفظ العربي الذي لا يعرفه كل الفصحاء وقد يرغب عنه أو عن بعضه بعضهم.

غير فصيح: هو اللفظ المولّد (في القديم) أو الملحون أو العامّي (الذي لا ينتمي إلى أي عربية القرآن).

<u>شكل رقم 02: تطور مفهوم الفصيح عند النحويين و اللغوييني القرن الثالث[49]ص:50.</u>

3.1.2.1. الفصاحة والجنس العربـــي:

ذهب بعض الدارسين المحدثين إلى أن القدماء ربطوا الفصاحة – السليقة – بالجنس العربي،إذ يقول "إبراهيم أنيس" في هذا:«أما الأقدمون من علماء العربية فقد سيطرت عليهم فكرة أخرى، ورأوا أمر الكلام بالعربية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالجنس العربي، ولذا ينكرون على الفارسي أو اليوناني إمكان إتقان هذه اللغة، كما يتقنها أهلها من العرب (...) فكأنما تصور هؤلاء الرواة أنّ هناك أمرًا سحرياً يمتزج بدماء العرب، ويختلط برمالهم وخيمهم، وهو أمر السليقة العربية، يورِّثُه العرب لأطفالهم، وترضعه الأمهات لأطفالهن في الألبان»[63] ص:36، فكأنهم يعتقدون أن غير العربي لا يمكنه تعلم العربية، ولو ولد ونشأ في بيئة عربية ،وهذا ما ذهب إليه "رمضان عبد التواب" حيث يرى أنّه:«ليس في السليقة اللغوية – لدى المحدثين – شيء غامض، كما كان علماء العربية القدماء يظنون، حين ربطوا بينها وبين البداوة حيناً، أو الجنس العربي حينا آخر»[67] ص:96 .

ولكن ابن خلدون رفض هذه الفكرة إذ يقول:«وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرار لكلام العرب، فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعاجم مع حصول هذه الملكة لهم، فاعلم أنّ أولئك القوم الذين تسمع عنهم كانوا عجماً في نسبهم فقط أما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب...»[66]ص:1087-1088، حيث يبين ابن خلدون أن الملكة تكتسب بالدربة والممارسة وليست طبعاً، وتاريخنا يزخر بالأعاجم الذين أتقنوا العربية مثل العرب كسيبويه والزمخشري...الخ .

ولقد حاول" محمد الحباس"تبرير ما ذهب إليه"إبراهيم أنيس" و"رمضان عبد التواب" بأنّ« الطبع هنا لا يعني الفطرة التي هي عكس الاكتساب، وإنما يعني العادة التي تصبح بعد المران كأنها طبيعة.»[63] ص:39، و هذا يتوافق مع ما ذهب إليه ابن خلدون ؛ أي أن الملكة بعد الميران تصبح طبعاً عند صاحبها.

4.1.2.1. تحديد رقعة الفصاحة زماناً ومكاناً:

اشتهر العرب قديماً بالفصاحة وقوة البيان،و كان القرآن الكريم تحدّياً لهم في أكثر شيء يتقنونه وهو الفصاحة والبلاغة، ثم تسرب اللحن إليهم ،وأخذت رقعة الفصاحة تضيق شيئا فشيئا فبعدما كانت تشمل كل بلاد العرب –حضرها وبدوها– لتنحصر بعد ذلك في بعض القبائل البدوية، حتى تنقرض نهائيا

في أواخر القرن الرابع الهجري، وتحل محلها ما عرف بالعاميات وتصبح اللغة العربية الفصيحة لغة العلم والكتابة فقط .

وهنا نواجه إشكالية في غاية الأهمية ألا وهي: من أين استقرأ اللغويون والكوفيون على وجه الخصوص اللغة؟ من أي قبيلة في شبه الجزيرة العربية؟ وفي أي عصر؟ .

انطلق معظم الدارسين المحدثين الذين تناولوا هذا الموضوع من القول الذي نقله السيوطي عن الفرابي ،وهو: «الذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذوا ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف،ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة لم يؤخذ عن حضري قط ،ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم، فإنهم لم يأخذو من لخم ولا من جذام فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط ،ولا من قضاعة ولا من غسّان ولا من إياد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون في صلاتهم بغير العربية ،ولا من تغلب ولا نمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ،ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ،ولا من عبد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ،ولا من أزد عمان لمخالطتهم للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن أصلا لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم،ولا حاضرة الحجاز،لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم »[12] 1/211-212.

ولكننا لو تأملنا نص الفرابي في كتابه "الحروف" لوجدنا أن السيوطي قد زاد أسماء القبائل التي لمّح إليها الفرابي في قوله: «وأنت تتبيّن ذلك متى تأملت أمر العرب في هذه الأشياء. فإن فيهم سكان البراري وفيهم سُكَّان الأمصار. وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين. وكان الذي تولّى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق. فتعلموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري منهم دون الحضر،ثم من سكان البراري من كان أوسط بلادهم ومن أشدّهم توحّشا وجفاءً وأبعدهم إذعانا وانقيادا. وهم قيس وتميم وأسد وطئ ثم هذيل. فإن هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب. والباقون فلم يؤخذ منهم شيء لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر»[68] ص:147.

ولكن الدارسين اختلفوا في تخريج القول ؛حيث يرى"سليمان ياقوت "أن الفرابي تحدث عن فصاحة قريش وانتقائها للسهل والأحسن، ثم تحدث عن القبائل التي أخذت عنها اللغة وهي قيس وتميم وأسد، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يشر إلى الأخذ عن قريش[56] ص:564 .

أما "تمام حسان" فقد تساءل كيف تكون قريش أفصح القبائل ولا يأخذ اللغويون عنها؟[36] ص:99.

وذهب بعضهم إلى أن المعيار هو الفصاحة وربطوا الفصاحة بالبداوة ،«وأما المكان فقد ربطوه بفكرة البداوة والحضارة، فكلما كانت القبيلة بدوية أو أقرب إلى حياة البداوة كانت لغتها أفصح، والثقة فيها أكثر، وكلما كانت متحضرة، أو أقرب إلى حياة الحضارة كانت لغتها محل شك ومثار شبهة، لذلك تجنبوا الأخذ عنها »[33] ص: 50. حيث رفض أنصار هذا الرأي الاحتجاج بلغة القبائل التي كانت عرضة للاختلاط سواء بإفضائها إلى غيرها من الأمم، أم بإفضاء غيرها إليها، كقريش التي صارت ديارها بعد الاسلام قبلة لكل المسلمين على اختلاط أجناسهم ولغاتهم، وكأن الانعزال في كبد الصحراء هو مقياس الفصاحة.

وقد رَدَّ مهدي المخزومي على ذلك بقوله:«لو كان مقياس الفصاحة هو الانعزال في كبد الصحراء وعدم الاتصال بالأجانب لكانت لغة قُرَيش أبعد اللُّغات عن الفصاحة، ولا قائل بهذا، بل لقد أجمعت كلمتهم على أن قُرَيشا أفصح العرب»[32] ص:56، ويقول الفراء في فصاحة قريش: «كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية، وقريش سميعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ»[12] 133/1.

أما الدكتور "محمد حسين آل ياسين" فقد ذهب إلى أن قول الفرابي يمثل وجهة النظر البصرية، كما أن هذا التحديد خاطئ في نظره بدليل وجود لغات كثيرة كلغة الأزد والأوس والخزرج وجرهم وحمير وحضرموت وغيرها كثير في القرآن الكريم. وذهب أيضًا إلى أن اللغويين وقعوا في تناقضٍ فتارة يعتبرون لغة قريش الأفصح، وتارة أخرى تجدهم يرفضون الأخذ عنها لأنها من حاضرة الحجاز[26] ص:329-334.

وذهب بعضهم إلى أن هؤلاء الدارسين المحدثين لم يدركوا جيداً قول الفرابي فهو قصد فترة معينة من عصور الاستشهاد وهي الفترة التي بدأت فيها التحريات الميدانية، لذلك فإن النصوص المأثورة قبل ذلك كلها فصيحة مثل اللغات الموجودة في القرآن الكريم والشعر الجاهلي والاسلامي قبل بدء

التحريات الميدانية. وقد فسروا كون لغة قريش من أفصح اللغات وإبعادها من رقعة الفصاحة بأنها كانت فصيحة في الجاهلية وصدر الاسلام، أما زمن التحريات فقد دخلها اللحن[63] ص:49-50. وقد استوحوا ذلك من قول الفرابي: «لأنّ الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم»[68] ص:147.

ولقد أشار الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح إلى أن «بعضهم فهموا من كلام الفرابي أنه يقصد فترة معينة من عصور الاستشهاد هي الفترة التي فرّقوا فيها بين البادية والحضر ،وتُرك فيها أهل الحضر وأفراد من القبائل كان مكوثهم في المدن قد طال. أما ما نقله العلماء قبل هذه الفترة المعينة فلا يشير إلى ذلك هذا النص»[49] ص:68، والفترة التي تمت فيها التفرقة بين سكان البادية وسكان الحضر هي ما بعد القرن الثاني للهجرة.

كما تفطن الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح إلى أمر فات أكثر الباحثين وهو «أن الأماكن التي أقام فيها الفصحاء لم تبق هي على حالة واحدة على ممرّ هذه العصور»[49] ص:68، ثم قام بتحديد رقعة الفصاحة عبر العصور وقسمها إلى أربع فترات :

1- العصر الجاهلي ، 2- عصر المخضرمين وظهور الاسلام ، 3- عصر الإسلاميين وما بين الدولتين الأموية والعباسية ، 4- ما بعد ذلك إلى اختفاء الفصاحة السليقة .

وبعد استقرائه للنصوص العربية الفصيحة توصل إلى نتائج لخصها في المخطط التالي:

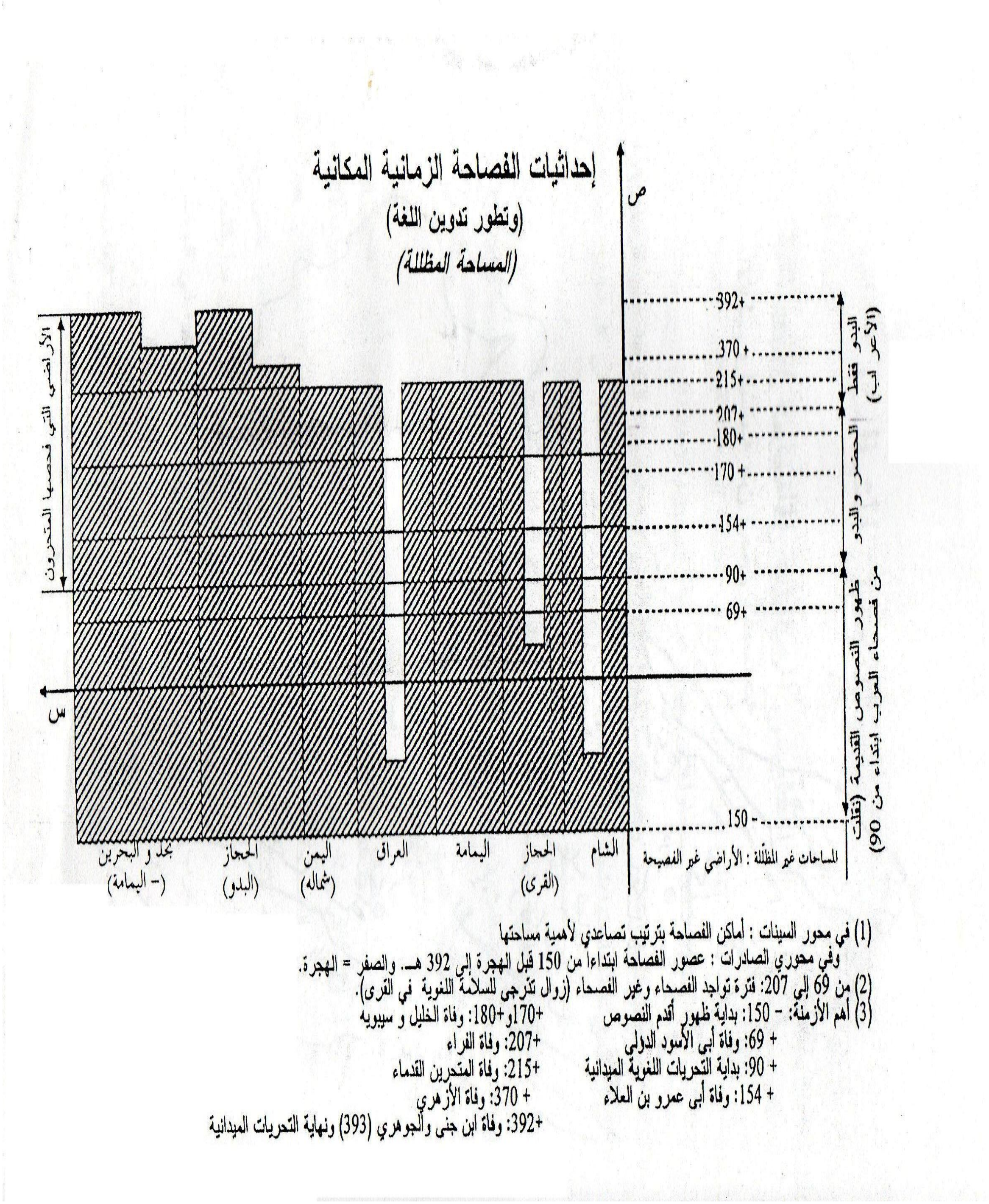

<u>شكل رقم 03 : مواطن الفصاحة عبر العصور [49] ص:133.</u>

وهكذا كان الشعر الذي وصل إلينا من العصر الجاهلي يغطي شبه الجزيرة العربية بأكملها تقريباً، وقد أخذ اللغويون عن كل هؤلاء الذين نقل عنهم الرواة الفصحاء. وليس هناك إقليم في شبه الجزيرة إلاّ وقد ظهر فيه شاعر رُوِيَ شعره باستثناء أطراف الجزيرة مثل جزء من الشام حيث وجدت بعض القبائل لم تحظ بذلك مثل قبيلة "بهراء".

أما الفترة الثانية والتي تمتد من سنة 50 قبل الهجرة أو ما بعدها بقليل وتنتهي حوالي سنة 41هـ - بداية عهد بني أمية- لا تزال العربية الفصحى تغطي كل الأقاليم التي شملتها في العصر الجاهلي، كما لا تزال المناطق التي لم يكن للعربية فيها سيادة كأقصى اليمن والأقاليم التي يسكنها العرب مع غيرهم من الأمم مثل العراق والشام، حيث لم يحصل تغير في خارطة شبه الجزيرة باستثناء بعض النزوحات من الشمال إلى الجنوب والعكس، ورغم تنقل الأعراب من البوادي إلى الأمصار الإسلامية إلا أن لغتهم بقيت على ما كانت عليه.كما كان الشعر في هذه الفترة أقل من الفترة السابقة.

لتمتد الفترة الثالثة من سنة 41هـ إلى 183هـ (العهد الأموي والعباسي)، في هذه الفترة بدأت التحريات الميدانية على يد أبي عمرو بن العلاء سنة 90هـ ،حيث لم يقتصر العلماء على الشعر وإنما سجلوا كلام العرب شعرهم ونثرهم، وقد بدأت رقعت الفصاحة السليقية في هذه الفترة تتقلص شيئاً فشيئاً، ففي القسم الأول من هذه الفترة (41هـ - 131هـ) أي العهد الأموي كان أغلب العرب باقين على فصاحتهم خلافاً لما رُوّج من فُشُوٍّ اللحن عند كل سكان المدن، أما في نهاية هذه الفترة فقد انتشرت عدوى اللحن ،وقلَّ من يوثق بعربيته في المدن و التجمُّعات الحضرية.

وتمتد الفترة الرابعة والأخيرة من 183هـ إلى 392هـ، حيث خرجت الفصاحة السليقية من أهل الحضر في أواخر القرن الثاني ، فأصبح أهل البادية وجهة اللغويين ، وكانت خاتمة المطاف بالنسبة للفصاحة السليقة بنهاية القرن الرابع الهجري بشهادة ابن جني.[49]ص:72-132.

وإن كان البصريون قد سبقوا الكوفيين في استقراء اللغة،وأنّ الكوفيين الأوائل تتلمذوا على يدِّهم، إلا أنهم لم يتفقوا معهم على صحة الأساس الذي بَنَوا عليه استقراءهم للغة.

فكان أول أساس اختلفت فيه المدرستان هو:تحديد القبائل التي يؤخذ عنها ،فقد أخذ البصريون عن قبائل وسط الجزيرة ورفضوا لغات القبائل التي سكنت أطرافها ، أما الكوفيون فقد أطلقوا العنان لكل لغات العرب سواء ما سَكن أواسط الجزيرة أو ما تطرف منها، فجميع القبائل العربية عندهم تتكلم العربية الفصحى، إذ لم يثبت فساد ألسنتها بالمخالطة فعلاً، فلو كانت المخالطة تفسد اللغة لكانت لغة

قريش غير فصيحة لما كان فيها من اختلاط منذ العصر الجاهلي بسبب الأسواق التجارية، كما عاش بين ظهرانيها كثير من التجار الأجانب، كما كان لهم رحلتان - رحلة الصيف ورحلة الشتاء - إلى بلاد العجم رغم ذلك لم يشكك أحد في فصاحة قريش، لذلك فقد أخذوا عن جميع القبائل ،حيث كان «مذهبهم (لواؤه بيد السماع، لا يَخْفِرَ له ذمة، ولا ينقض له عهداً، ويَهون على الكوفِيّ نقض أصل من أصوله، ونسف قاعدة من قواعده، ولا يهون عليه إطراح المسموع)»[32] ص:377 .

كما اختلفت المدرستان في مسألة الأخذ عن الحضر،ولقد تناولنا سابقاً دراسة الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح للتطور الزماني والمكاني للفصاحة ؛والذي خلص فيه إلى أن لغة أهل الحضر كانت فصيحة حتى أواخر القرن الثاني للهجرة، وهذا ما ذهب إليه معظم الدارسين المحدثين[56] ص:562، وذهب "سعيد الأفغاني" و "خديجة الحديثي" إلى أن الفصاحة في المدن و الحواضر انتهت في منتصف القرن الثاني للهجرة[69] ص:81 .

لكن البصريين بدأوا الرحلة إلى البادية مع نهاية القرن الأول الهجري ،فهذا أبو عمرو بن العلاء (ت:158) يقول: «لا أقول قالت العرب إلا إذا سمعته من عجز هوازن، وبني كلاب، وبني هلال، أو من عالية السافلة أو من سافة العالية» [70] ص:58 . حتى أنه رفض الأخذ عن البدو الذين طال مقامهم في المدن حيث يقول: « لم أرَ بدوياً أقام في الحضر إلا فسد لسانه، غير رؤبة والفرزدق» [51] 204/1 .

أما الكوفيون فقد أخذوا عمن يوثق بهم من سكان الحضر حتى أواخر القرن الثاني للهجرة ،فكان استقراءهم للغة أوسع من البصريين،حيث اشتمل«لهجات عرب الأرياف، الذين وثقوا بهم، كأعراب سواد الكوفة، من تميم وأسد، وأعراب سواد بغداد من أعراب الحطمية، الذين غلَّط البصريون لغتهم ولحنوها...»[32] ص:331، ولعل هذا ما جعل البصريين يفاخرونهم بقولهم: «نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضِّباب وأكلة اليرابيع، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشّوازير وباعة الكواميخ»[14] ص:64، ولكنهم لم يلتزموا بذلك فقد خالفه بعضهم، إذ رُويَ عن يونس بن حبيب أنه كان يستشهد في اللغة بكلام أبي علي الأسواري الفارسي الأصل البصري المسكن، كما استشهد البصريون بشعر رؤبة والفرزدق وكلاهما حضريّ..[26] ص:340-341 .

ومنه فإن الكوفيين قد وسّعوا الأطلس اللغوي الذي اعتمدوه في استقراء اللغة فقد شمل كل من يوثق في عربيته سواء سكن البادية أو الحاضرة، فكيف يعاب على الكسائي(ت:189هـ)ما أخذه من الأعراب

وقد أثبتت الدراسات أن الفصاحة في تلك الفترة كانت تغطي معظم قبائل شبه الجزيرة العربية (كما توضحه الخريطة) .

ولعل هذا ما جعل بعض الدارسين المحدثين وعلى رأسهم الدكتور مهدي المخزومي يرون أن المنهج الكوفي أقرب إلى الحقيقة اللغوية من المنهج البصري.

شكل رقم 04: خريطة القبائل العربية في الفترتين الأولى و الثانية من زمن الفصاحة [49] ص:134

2.2.1. السمـــــــــــاع:

1.2.2.1. تعريفــــه:

يعرف بأنه «الأخذ المباشر للمادة اللغوية عن الناطقين بها»[26] ص:21، والسماع يعني الرواية؛ وذلك أن يكون الراوي سمع بنفسه ما يرويه عن غيره، فإن كان هناك ما يفصل بين الراوي السامع والمروي عنه، كأن يكون بينهما راوٍ آخر أو كتاب مؤلف، فيعدّ ذلك رواية لا سماعاً فالرواية « هي جمع المادة اللغوية من أفواه العرب الفصحاء بالذهاب إليهم في بواديهم أو بلقائهم في الحواضر، ثم نقل ذاك للدارسين من الطلاب»[26] ص:21 .

ويعتبر السماع أول أصول النحو حيث تقوم كل الأصول عليه، فلا قياس إلا على نصٍ مقيس عليه، ولا استحسان إلا في ميزان ما تكلمت به العرب، فإذا كان النحو هو «انتحاءُ سمْت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره»[11] 65/1، فإن السماع هو كلام العرب.

وقد عرَّفه السيوطي بقوله: «وأعني به ما ثبتَ في كلام من يوثق بفصاحته فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن، وكلام نبيه –صلى الله عليه و آله وسلم- وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده ، إلى زمن فسدت الألسنة بكثرة المولِّدين نظمًا و نثرًا عن مسلم أو كافر»[50]ص:24، و سُمِّي هذا الدليل بالسماع لترداد كلمة "سمعت" في كتب اللغويين والنحاة ،ومثال ذلك ما نجده في كتاب الفراء «قال الكسائي: سمعت العرب تقول: انطُلِقَ به الفورَ...» [48] 243/3 ، وقوله «سمعت بعض العرب يقول...» [48] 233/1 ، وقوله:« سمعت أعرابية تقول...» [48] 246/3 .

ولكن هناك من استخدم مصطلح " النقل" للدلالة على السماع ومنهم أبو البركات الأنباري، والذي عرفه بقوله: «النقل هو الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح الخارج عن حد القلة إلى حد الكثرة، فخرج عنه إذاً ما جاء في كلام غير العرب من المولدين، وما شذ من كلامهم كالجزم ب"لن" والنصب ب"لم"...»[52]ص:81-82 ، والملاحظ أن هذا التعريف ينطبق على السماع، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه لمذا آثر ابن الأنباري مصطلح النقل على السماع؟ ، لعل السبب في ذلك هو تأثره بأصول الفقه، فالنقل عندهم يقابل القرآن والسنة الشريفة، وخير دليل على ذلك نستشفه من تعريفه لأصول النحو بأنها «أدلة النحو التي تفرعت منها فروعه وفصوله، كما أن أصول الفقه أدلة الفقه التي تنوعت عنها جملته وتفصليه...» [52]ص:80 .

كما أورد السيوطي نصا لابن الأنباري من كتاب "نزهة الألباب في طبقات الأدباء" يقول فيه: «علوم الأدب ثمانية: اللغة، والنحو والتصريف، والعروض، والقوافي وصنعة ُ الشعر، وأخبارُ العرب وأنسابُهم. ثم قال: وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما: علم الجدل في النحو، وعلم أصول النحو، فيُعرَف به القياس وتركيبُه وأقسامه من قياس العِلة وقياس الشَّبَه وقياس الطَّردِ إلى غير ذلك على حدِّ أصول الفقه، فإن بينهما من المناسبة ما لا خفاء به لأن النحو معقولٌ من منقول؛ كما أن الفقه معقول من منقول»[50] ص:11.

ويقصد بالمنقول المصادر المنقولة وهي القرآن الكريم، والقراءات ،والحديث النبوي، وشعرالعرب وكلامهم، أما المعقول فهو ما جاء من أدلة النحو عن طريق العقل الإنساني كالقياس و الإجماع واستصحاب الحال.

ولقد استعمل الإمام فخر الدين الرازي أيضا مصطلح النقل في كتابه " المحصول" ، كما يمكننا القول بأن السيوطي استخدم مصطلح السماع وقصد به النقل لأنه بعدما انتهى من كتاب السماع قال: «بعد أن حررتُ هذا البابَ بفروعه وجدتُ ابن الأنباري قال في أصوله: أدلة النحو ثلاثة: نقل وقياس واستصحاب حالٍ ... [50] ص:49 .

ثم تطرق للنقل ولم يتعرض للقياس والاستصحاب، لهذا نجد من المحدثين من يقولون السماع أو النقل فهما شيء واحد[56] ص:542 .

<u>2.2.2.1. مصادر السمـــــــــــاع :</u>

اعتمد الكوفيون على جملة من المصادر أخذوا منها مادتهم اللغوية والنحوية وهذه المصادر هي: القرآن الكريم، القراءات القرآنية، الحديث الشريف، وكلام العرب من شعر ونثر.

<u>1.2.2.2.1. القرآن الكريم :</u>

يعتبر المصدر الأساسي للمادة اللغوية عند العرب، فهو الوحي المُنزّل على سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم- بلسان عربي مبين - لقوله تعالى: « **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ...»**[إبراهيم :04] ــ بواسطة جبريل عليه السلام، ولقد كانت العرب أمة الفصاحة و البلاغة في القول، فجاء القرآن الكريم تحدياً لهم في الفصاحة وقوة البيان والإعجاز، إذ يقول عز وجل : **« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88)»**[الإسراء:88]، وقوله أيضا :« **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23)»** [البقرة:23] ،

حيث يعتبر «كلامه عز اسمه أفصح كلام وأبلغه»[51] 04/1 .

ولكن هناك من يرى أن النحاة لم يعتمدوا على القرآن في العصور الأولى وحجتهم في ذلك:

- أن اللحن ظهر في القرآن، وهو السبب الأساسي لظهور علم النحو، لِمَا يروى عن أبي الأسود الدؤلي أنه سمع قارئا يقرأ الآية الكريمة **«... أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ...»** [التوبة:03] بكسر اللام في رسوله، فقال ما ظننت أمر الناس يصل إلى هذا الحد، وقرر أن يضع رسم العربية.[71] 12/1-14.

- وأن العلماء كانوا يميلون إلى اللغة المسموعة أولا وإلى الشعر العربي ثانيا، وفي هذه المسألة يقول الرازي: «إذا جَوَّزنا إثبات اللغة بشعر مجهول، فجواز إثباتها بالقرآن العظيم أولى، وكثيرًا ما نرى النحويين متحيزين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن فإذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهولٍ فرحوا به، وأنا شديد التعجب منهم، فإذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقها دليلاً على صحتها كان أولى»[56] ص:129 .

ولكن الحقيقة أن النحاة الأوائل تمسكوا بالقرآن الكريم وحظي بعنايتهم وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهدي وتلامذته:سيبويه [15] 37/1،331، 325/2-326، والكسائي الذي كان اهتمامه به كبيرًا، كيف لا وهو أحد القراء السبعة.

وكذلك الأمر بالنسبة لكل الكوفيين ،فكل من النحو واللغة عندهم متصل بالأعمال القرآنية لأن القرآن هو العصمة الواقية، والنعمة الباقية، والحجة البالغة، فقد بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، حيث يقول الفراء: «الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر»[48] 14/1.

كما كان الفراء «يردّ على بعض علماء الشعر ورُواة الأخبار التاريخية من عرب البادية الذين لا يريدون أن يلتمسوا إعجاز القرآن في قوالبه اللُّغوية، بل يرون كمال الفصاحة في لغة عرب البادية»[12] 132/1 ، فقد كان يضعه في المستوى الأول فوق أي كلام مهما كانت درجة بلاغته وفصاحته. كيف لا؟ وهو صاحب كتاب "معاني القرآن" والذي بناه على تفسير القرآن بالإضافة إلى التفسيرات اللُّغوية والأراء النحوية الكوفية، موضحا ذلك بما سمعه عمن وثق بعربيتهم.

وأما فيما يخص صحة نقله، فقد نُقل إلينا بالتواتر، أمة عن أمة، وجيلاً عن جيل، لذلك كان أول مصدر في تَّقعيد اللغة.

2.2.2.2.1. القراءات القرآنية:

لغة: القراءات جمع قراءة، وهي مصدر من قرأ، يقرأ، قراءة، وقرآنًا، واسم الفاعل منه قارئ، ويرد الفعل غير مهموز كقرى ولا يختلف مع الأول في معناه. [54] 272/9 .

اصطلاحا: يعرفها ابن الجزري بقوله: «القراءات علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوًا لناقله»[72] ص:85 ، فإذا كان القرآن هو اللفظ الموحى به إلى سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم- فإن القراءات هي كل ما قد يحتمله اللفظ المذكور من أوجه النطق والأداء كالمدّ والإمالة والتخفيف والتثقيل وغيرها، وبالاختصار هي الوجوه المختلفة التي سمح بها الرسول –صلى الله عليه وسلم- في قراءة القرآن .

فقد كان العرب يعيشون في قبائل متفرقة في شبه الجزيرة العربية ،ولِكُلِّ قبيلة لهجة خاصة - وإن كان الاختلاف بين اللهجات لا يتجاوز الاختلاف في الأصوات والأبنية ،أما الأسلوب العام فهو نفسه – يتعصب أهلها لها، ولا يستطيعون الخروج عنها خاصة كبار السن، وبما أن الإسلام دين يسر وليس دين عسر، فقد جعل لهم الرحمن متسعًا في اللغات ،ومتصرفـــًا في الحركات لييسر عليهم الدين، فكانت القراءات تمثل اللهجات التي كانت منتشرة بين القبائل العربية.

وقد وضع القراء وعلماء الأصول شروطًا لقبول القراءة نستشفها من قول ابن الجزري:«كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه و وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين؛ ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم؛ هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف»[7] 09/1. ومنه فإن هناك ثلاثة شروط لقبول القراءة وهي:

- موافقة العربية ولو بوجه: وذلك لأن القرآن نزل باللغة العربية، لذلك فإن آداءه ينبغي أن يتوافق مع ما يجوز عندهم النطق به، وقوله "ولو بوجه" فهو يريد به وجهًا من وجوه النحو «سواء كان أفصح أم فصيحًا مجمعًا عليه أم مختلفـــًا فيه اختلافـــًا لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع أو ذاع وتلقاه الأئمة بالاسناد الصحيح»[7] 10/1 ، وإذا غاب هذا الشرط كانت القراءة "ضعيفة" .

- موفقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً: حصل خلاف بين المسلمين حول القرآن فأمر عثمان بتوحيد المصحف ،ثم نسخ منه عدة مصاحف بعثها إلى مختلف الأمصار الإسلامية ،وأحرق باقي المصاحف، وأمرهم بترك ما خالفها ،لذلك يشترط أن توافق القراءة رسم المصاحف العثمانية، موافقة صريحة أو تقديرية، وذلك لقوله :"ولو احتمالاً " ؛ بمعنى موافقة الرسم ولو تقديرًا ،مثل قوله تعالى: « **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4)**»[الفاتحة:04] ،"ملك" كتب بدون الألف في جميع المصاحف فقراءة الحذف تحتمله تخفيفـًا كما كُتِبَ، وقراءة الألف محتملة تقديراً. [7] 1/11-12.

فإذا لم توافق القراءة المصاحف العثمانية كانت "شاذة"، «وأما إطلاق من لا يعلم على ما لم يكن عن السبعة القراء، أو ما لم يكن في هذه الكتب المشهورة كالشاطبية والتيسير أنه شاذ، فإنه اصطلاح ممن لا يعرف حقيقة ما يقول»[7] 16/1 .

- صحة السند واتصال الرواية: ومعنى ذلك أن يروي القراءة راوٍ عدل ضابط عن مثلة حتى تنتهي إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم- فالقراءة سنّة متّبعة، ونقل محض وهناك من المؤرخين من اشترط في هذا الركن التواتر ولم يُكـْتـَفَ فيه بصحة السند ، فإذا ثبت التواتر لا يحتاج فيه إلى الركنين الآخرين. [7] 13/1.   فإذا غاب هذا الشرط فالقراءة "باطلة".

أما بالنسبة للغويين والنحاة فقد اختلف الدارسون في شروط قبولهم للقراءة ،حيث ذهب تمام حسان إلى أن «النحاة تمسكوا في قبول القراءة بشرط موافقة العربية ولو بوجه من وجوه التأويل،فإن خالفت القراءة العربية ولم يمكن إعادة تركيبها إلى أصل من أصول العربية حفظت القراءة ولم يقس عليها قياساً عماً،وإن صح الاحتجاج بها في مثل تركيبها»[36] ص:93.

ومن هذا القول نفهم أن النحاة لم يهتموا بموافقة القراءة للمصاحف العثمانية أو صحة سندها وإنما ينبغي أن تتوافق مع كلام العرب ووجوه النحو التي وضعوها، لذلك نخلص إلى أن هذا الموقف هو موقف البصريين أما أحمد مختار عمر فيرى أن النحاة واللغويين وضعوا «لصحة القراءة شرطاً واحداً هو صحة الرواية عن القارئ العدل حتى لو كان فرداً، وسواء رويت القراءة بطريقة التواتر أو الآحاد، وسواء كانت سبعية أو عشرية أو شاذة»[33] ص:21، ويبدو أن هذا المذهب هو مذهب الكوفيين لأن البصريين رفضوا قراءات متواترة ،ومثال ذلك قراءة حمزة في قوله تعالى: « **...تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ...**» [النساء:01] ،لأنه عطف على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض، رغم أنها القراءة التي قرأ بها عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس ،والحسن البصري ،

وروايتها صحيحة لا سبيل إلى ردها ،إلا أن المبرد قال: «لا تحلُّ القراءةُ بها»[73] 78/3. كما غلطوا قراءة ابن عامر في قوله تعالى: «**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادَهِمْ شُرَكَائِهُمْ...**»[الأنعام:137] ، وقراءة نافع مقرئ المدينة قوله تعالى: « ...**لَكُمْ فِيهَا مَعَائِشَ...**» [الأعراف:10] ...إلخ .

أما الكوفيون فقد اهتموا بالقراءات القرآنية ،واحترموها ،وأخذوا بمتواترها وشاذها ، ووضعوا عليها قواعد لغوية ونحوية ،وخير مثال على ذلك إمامهم الكسائي الذي اعتمد قراءة سعيد بن جُبَيْر في قوله تعالى: «إن الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم»[الأعراف:194] بنصب كلمة "عبادًا" أساساً وضع عليه قاعدة عامة «وهي أن "إنْ" النافية إذا دخلت على الجملة الاسمية عملت عمل ليس، فرفعت الاسم ونصبت الخبر. وهي –في رأي سيبويه- لا تعمل بل تُهْمَل دائمًا»[35] ص:178 .

وغيرها من الأمثلة التي ذكرها شوقي ضيف والتي تثبت اعتماد الكسائي على القراءات لوضع قواعد خالف فيها سيبويه والخليل، كما يروى عن الفراء أنه «قال: (اتباعُ المصحف – إذا وجدت له وجهًا من كلام العرب- وقراءةُ القراء أحبُّ إليَّ من خلافه)، قال: وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ: «**إِنْ هَذَينِ لَسَاحِرَانِ** » [طه :63] ولست أجترئ على ذلك...» [10] ص:18 .

وموقف الفراء هذا يمثل موقف الكوفيين والذي يتفق مع موقف القراء ذلك أن «أئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة، والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل والرواية، إذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها»[7] 10/1-11.

حيث تعتبرالقراءات مصدراً مهماً في دراسة اللغة والنحو عند الكوفيين، ولقد شاع أنهم لا يرفضون قراءة صح سندها، ولا يطعنون في القارئ أو يرمونه بالجهل إذا كانت قراءته تخالف الأصول الموضوعة، وقد أرجع "مهدي المخزومي" ذلك إلى:

1 – أن الكوفة كانت مهبط الصَّحابة وأكثرهم عرب لا يُتــَّـهمون في فصاحتهم، وصارت الكوفة بهم موطن القراءات، حيث كان فيها أئمة القراء: عاصم بن أبي النجود ،وحمزة بن حبيب الزيات، وعليّ بن حمزة الكسائي ، ومرجعهم جماعة من صحابة النبي – صلى الله عليه وسلم- .

2 ـــــ وأن مؤسس هذه المدرسة وأستاذها – الكسائي- كان إماماً من أئمة القراءة ،لذلك فإن منهجه هو منهج القرّاء من حيث الاعتماد على النقل، والاعتداد بالرواية رغم تأثره بنحاة البصرة واعتماده

على القياس إلا أن سلطان الرواية والنقل طغى على منهجه .

وكذلك الفراء فقد اهتم بالقراءة وأخذها عن الكسائي، وروى القراءات بطرقه الخاصة، وأماليه في معاني القرآن تثبت عمق اتصاله بالقراءات، بل وكانت له قراءة خاصة حيث نجد في كتابه «قوله تعالى: «...**خُلُقُ الْأَوَّلِينَ**»[الشعراء:137] ،وقراءة الكسائي (خَلْــقُ الأوَّلِينَ) قال الفراء: وقراءتي (خُلُــقُ الأولينَ)» [48] 281/2 .

كما كان يختار القراءة بعد أن يعرض للقراءات المختلفة، ومثال ذلك قوله « «...**ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ...**» [النور: 58] فنصبها عاصم والأعمش، ورفع غيرهما. والرفع في العربية أحبُّ إليَّ، وكذلك أقرأ ، والكسائي يقرأ بالنصب» [48] 260/2 ، فقد تردد في كتابه بعد ذكر القراءة " هو أحب إلي" و"أنا أستحب... " و "هو أحب الوجهين إليَّ"[48] 338/2، 200/1،441 ...إلخ، ويعلل ذلك أحياناً بشيوع استعمالها عند العرب.

3- وأن طابع الكوفيين في دراستهم ديني، ويظهر ذلك من خلال مؤلفاتهم فالكسائي صاحب كتاب القراءات، وكتاب مقطوع القرآن وموصوله، ومعاني القرآن...، كما ترك الفراء: معاني القرآن، المصادر في القرآن، الجمع والتثنية في القرآن...إلخ، وكذلك الأمر بالنسبة لثعلب حيث له كتاب في معاني القرآن...إلخ [34] ص:345-347 .

وهذا ما جعل مهدي المخزومي يرى أن للكوفيين «موقفا أخر يُغاير موقف البصريين من القراءات كلَّ المغايرة، فقد قَبِلوها. واحتجُّوا بها وعقدوا على ما جاء فيها كثيرًا من أصولهم وأحكامهم، وهم إذا رجَّحوا القراءات التي يجتمع القرّاء عليها. فلا يرفضون غيرها، ولا يغلِّطونها، لأنها صواب عندهم أيضًا»[34] ص:341 . ولكننا وبعد دراستنا لكتاب "معاني القرآن" للفراء وجدنا أنه ردَّ بعض القراءات مثل:

1 – قوله تعالى: «...**فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ...**» [يونس:71]، حيث «قرأها الحسن (وشركاؤكم) بالرفع، وإنما الشركاء ها هنا آلهتهم؛ كأنه أراد: أَجمِعوا أمركم أنتم وشركاؤكم، ولست أشتهيه لخلافه للكتاب، ولأن المعنى فيه ضعيف»[48] 473/1 .

2 ـــــ قوله تعالى: «...**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71)**» [هود:71] حيث يقول:«وقوله (يَعْقُوب) يرفع وينصب، وكان حمزة ينوي به الخفض يريد: ومن وراء إسحاق بيعقوب و لا يجوز الخفض إلاّ بإظهار الباء »[48] 22/2.

3 ـــــ قوله تعالى : «... **وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ**...»[إبراهيم :22] حيث «قرأها حمزة (بمصرخيِّ) بخفض الياء، وقال: لعلها من وَهْم القرّاء طبقة يحيى فإنه قَـلَّ مَنْ سلم منهم من الوهم. ولعله ظن أن الياء في كلمة (مصرخيِّ) خافضة للحرف كله والياء من المتكلم خارجة من ذلك»[48] 75/2.

ولعل هذا ما جعل الدكتور التواتي بن التواتي يقول عن الفراء أنه «رغم احترامه والتزامه برسم القرآن إلا أنّه أحيانًا يؤثر العربية على الرسم وهذا يظهر في بعض عباراته منها قوله: "وهذا جائز وإن كان مخالفاً للكتاب" ممّا يوحي أنّه كان نحويا في منهجه وفي دراساته للقرآن أكثر منه عالم قراءات»[72] ص:113.

وكذلك الأمر بالنسبة للكسائي فقد توقف عند بعض الحروف منها، أما ثعلب فقد خالفها في ذلك «وكأنه كان يجد في ذلك حرجاً، ولعل ذلك ما جعله يقول: (إذا اختلف الإعرابان في القراءات لم أفضّل إعراباً على إعراب، فإذا خرجت إلى كلام الناس فضلت الأقوى)» [35] ص:230، حيث وثّـَق في مجالسه الكثير من القراءات التي رفضها الفراء.

وبهذا نخلص إلى أن الكوفيين احتجوا بالقراءات المتواترة والآحاد وحتى الشاذة، كما كانوا أقل تخطئة للقراءات من البصريين، حيث عرف الفراء بأنه كان يقبل القراءات المخالفة للقياس إذا وقف على شاهد مؤيد لها من كلام العرب، سواء أكان ذلك الشاهد قياسياً أم غير قياسي[70] ص:39 .

3.2.2.2.1 . الحديث النبوي الشريف:

لقد اهتم المسلمون منذ عهد الصحابة –رضوان الله عليهم- بالسُّنة النَّبوية الشريفة وذلك بحفظهم لأقواله صلى الله عليه وسلم وتقليدهم لأفعاله، وأطلقوا لفظ "الحديث" على كل ما ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقريرٍ.

ولم يُدَّون الحديث الشريف في عهده –صلى الله عليه وسلم- لأنه منع ذلك، حتى لا يكون للمسلمين كتاب غير القرآن الكريم، إذ قال: «لا تكتبوا عني شيئا إلا القرآن، ومن كتب عني شيئا غير القرآن فَلْيَمْحُه»[74] ص:208، ولكن هناك من يروي أن عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما- كان يكتب كل ما يسمعه من رسول الله، فقال له بعض الناس: إن النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم في الغضب فلا تكتب كل ما تسمع، فسأل النبي فقال صلى الله عليه وسلم: «أكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج من بينهما (أي شفتيه الكريمتين) إلا حقٌّ»[56] ص:53. إلا أن البداية الحقيقية لتدوين الحديث كانت بعدما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد عمر بن عبد العزيز[56] ص:54.

ويعتبر الحديث الشريف ثاني مصادر التنظير اللغوي نظرياً، وهذا ما عثرنا عليه في مختلف الكتب التي تتحدث عن مصادر السماع، وذهبوا فيه مذاهب مختلفة:

1.3.2.2.2.1. **المنع مطلقا:** يعتبر ابن الضائع (ت:686هـ) أول من أثار قضية عدم الاستشهاد بالحديث، وجاء بعده تلميذه أبو حيان (ت:745هـ)الذي أنكر على ابن مالك استشهاده بالحديث،حيث يقول في "شرح التسهيل": «قد أكثر هذا المصنفُ من الاستدلال بما وقع في الأحاديث على إثبات القواعد الكُلِّية في لسان العرب، وما رأيت أحدًا من المتقدمين والمتأخرين سلَكَ هذه الطريقة غيره، على أنّ الواضعين الأولين لعلم النحو، المستقرئين للأحكام من لسان العرب، كأبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه من أئمة البصريين، والكسائي، والفراء، وعلي بن مبارك الأحمر، وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين، وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد وأهل الأندلس»[51] 10/1 و: [50] ص:29-30 ، ليشير بعد ذلك إلى الأسباب التي منعت الاستشهاد بالحديث وهي:

أ – جواز روايته بالمعنى:مما أدى إلى تعدد الروايات ومثال ذلك رواية البخاري عن سهل بن سعد "أن امرأة جاءت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فقالت يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فصعد النظر إليها وصوبه ثم طأطأ رأسه فلما رأت المرأة

أنه لم يقض فيها شيء جلست، فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها، فقال: هل عندك من شيء؟ فقال: لا والله يا رسول الله، قال: اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئًا فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ما وجدت شيئا، قال: انظر ولو خاتما من حديد، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد، ولكن هذا إزاري. قال سهل ماله رداء فلها نصفه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها شيء ، وإن لبسته لم يكن عليك شيء والحاصل الرجل حتى طال مجلسه ثم قام فرآه رسول الله –صلى الله عليه وسلم- موليا فأمر به فدعي فلما جاء قال: ماذا معك من القرآن؟ قال معي سورة كذا وسورة كذا عدها. قال: أتقرؤهن عن ظهر قلب، قال: نعم، قال: (اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن)" [8] 1920/4.

كما كان يرويه أحياناً بلفظ "زوجتكها"[8] 1972/5 ، وأحياناً أخرى "أملكناكها"

أما رواية ابن حبان فتختلف من حيث اللفظ عن رواية البخاري، حيث يروى عن سهل بن سعد: "أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- جاءته امرأة فقالت له: يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك، فقامت طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك حاجة بها، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم- : هل عندك من شيء تصدقها إياها؟ فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : إن أعطيته إياها جلست لا إزار لك فالتمس شيئا، فقال: ما أجد، فقال: فالتمس، فلم يجد شيئا، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم- : هل معك من القرآن شيء؟ قال: نعم سورة كذا وسورة كذا لسور سماها ،فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: (قد زوجتكها بما معك من القرآن) [75] 403/9.

ومنه فإن الاختلاف في رواية هذا الحديث دليل على أنهم لم يأتوا باللفظ النبوي الفصيح، فالنبي - صلى الله عليه وسلم- لم ينطق بتلك الألفاظ جميعاً وإنما أتى أولئك الرواة بالمرادف.

ب- وقوع اللحن فيما روي من الحديث: لأن الكثير من الرواة لم يكونوا من العرب الخلص، وإنما تعلموا العربية بصناعة النحو، فوقع اللحن في كلامهم.

وقد ردَّ "البدر الدماميني" على أبي حيان في مسألة النقل بالمعنى بأن: اليقين ليس مطلوباً في هذا الباب وإنما المطلوب غلبة الظّن، ولا يخفى أن يغلب الظن أن ذلك المنقول المحتج به لم يبدل، لأن الأصل عدم التبديل، وذلك لما عُرِّف من تشدد النقلة، وبما أن تدوين الأحاديث والأخبار وقع في الصدر الأول

قبل فساد اللغة . لهذا فإن كلام المبدلين مما يسوغُ الاحتجاج به وبالتالي تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به[51] 1/14-15.

أما فيما يخص وقوع اللحن في رواية بعض الأحاديث فيرى أحمد مختار عمر أن هذا «لا يقضي ترك الاحتجاج به جملة، وإنما غايته ترك الاحتجاج بهذه الأحاديث فقط»[33] ص:37 ،لأن الشعر أيضاً وقع فيه تصحيف ورغم ذلك لم يترك الاحتجاج به.

2.3.2.2.2.1. **التوسـط:** ويمثله الشاطبي حيث جَوَّز الاحتجاج بالأحاديث التي اعْتُنِيَ بنقل ألفاظها ، إذ يقول: «أما الحديث فعلى قسمين: قسم يعتني ناقله بمعناه دون لفظه، هذا لم يقع به استشهاد أهل اللسان. وقسم عُرف اعتناء ناقله بلفظه لمقصود خاص؛ كالأحاديث التي قصد بها بيان فصاحته صلى الله عليه وسلم، ككتابه لهمذان، وكتابه لوائل بن حجر، والأمثال النبوية فهذا يصح الاستشهاد به في العربية...» [51] 1/13 . إذ عاب على النحاة إهمالهم الاستشهاد بالحديث وفي هذا يقول «لم نجد أحدًا من النحويين استشهد بحديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وهم يستشهدون بكلام أجلاف العرب وسفهائهم، الذين يبولون على أعقابهم،وأشعارهم التي فيها الفحش والخنَى،ويتركون الأحاديث الصحيحة..»[51] 1/12.

3.3.2.2.2.1. **الإجازة مطلقاً**: واشتهر في ذلك ابن مالك الذي «بنى الكلام على الحديث مطلقًا ؛ ولا أعرف له سلفًا إلاّ ابن خروف»[51] 1/13 ، ثم تبعه ابن عقيل، وابن هشام... وغيرهم من المحدثين.

وإن كان قد شاع بين الدارسين أن اللغويين والنحاة القدماء كانوا يرفضون الاستشهاد بالحديث ولكنهم في الحقيقة لم يثيروا هذه المسألة، ولم يناقشوا مبدأ الاحتجاج بالحديث،و «لو صح أن القدماء لم يستشهدوا بالحديث فليس معناه أنهم كانوا لا يجيزون الاستشهاد به، إذ لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به »[33] ص:37 .

أما فيما يخص الكوفيين فقد كان «اعتماد المعجمات الكوفية على الحديث بقدر أكبر مما نجده في المعجمات البصرية»[26] ص:355 ، أي أن الكوفيين استشهدوا بالحديث في المسائل اللغوية، وقد ذكر الفراء في كتابه "معاني القرآن" الكثير من الأحاديث المتعلقة باللغة وتفسير القرآن والقراءات ومثال ذلك: ما ذكر في قوله تعالى:«...**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ**... » [البقرة:187]

فقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم :« أهو الخيط الأبيض والخيط الأسود؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إنك لعريض القفا؛ هو الليل والنهار»[48]115/1. وأمثلة ذلك كثيرة في الكتاب .

أما الاستشهاد بها في المسائل النحوية فهو قليل جداً ومثال ذلك ما ذكره في قوله: «... **إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ** ...» [البقرة:229] «ولا خوف في هذا الموضع كالظنّ، لذلك رفع "أذوقها" كما رفعوا« **وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ**...»[المائدة:71]، وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم (أُمِرتُ بالسواك حتى خفت لأدْرَدَنَّ) كما تقول: ظَنَّ ليذهبنَّ»[48]146/1 .

ومنه فإن المتصفح لكتاب الفراء يجد أنه لم يلغ الحديث من مصادره ،وإن كان احتجاجه به قليلا مقارنة بالقرآن وكلام العرب. شأنه شأن الكسائي وباقي علماء عصره ويثبت ذلك أحمد مختار عمر إذ يقول: «على أني وجدت من قدامى اللغويين من استشهد بالحديث في مسائل اللغة كأبي عمرو بن العلاء والخليل والكسائي والفراء (...) ولا يختلف موقف النحاة عن هذا، إذ لا يعقل أن يستشهد الخليل مثلا بالحديث في اللغة، ثم لا يستشهد به في النحو، وهما صنوان يخرجان من أصل واحد، وممن استشهد بالحديث من النحاة: أبو عمرو بن العلاء والخليل وسيبويه والفراء والكوفيون...» [33] ص:37-39 .

فإذا كان المقصود من الاحتجاج بالأحاديث أن يستخلص منها النادر، أو يشرح الغريب منها، ففي المعاجم اللغوية وكتب القدماء ما يعسر حصره من الأحاديث، وإذا كان المقصود الاحتجاج به لأصل نحوي أو قاعدة عامة، فهذا نادر جداً كما رأينا عند الفراء ، وكذلك الأمر بالنسبة لكل الكوفيين.

أما مهدي المخزومي فيرى أن تأثر الكسائي –إمام الكوفيين- بالبصريين هو السبب في إخراجه الحديث من المصادر التي يحتج بها على إثبات أصل أو تصحيح حكم إذ يقول: «إن امتناع الكسائي عن الاستشهاد بالحديث والاحتجاج به –فيما أظنّ- أثر من آثار المدرسة البصرية»[32]ص:117.

كما ذكر أن مصادر الدراسة عند الفراء هي: القرآن الكريم، القراءات المختلفة وشواهد كثيرة من الشعر وكلام العرب[32]ص:139-140 ، وقد تبعهما ثعلب في ذلك[35] ص:230 .

ولكننا وكما أشرنا سابقاً لا نؤيد فكرة أن القدماء رفضوا الاستشهاد بالحديث فقد استشهدوا به في اللغة، أما بالنسبة للنحو فقد كان استشهادهم به قليل.

4.2.2.2.1. الشعـــــــر: يعتبر الشعر ديوان العرب، وحافظ تاريخهم وأنسابهم، ومآثرهم وحروبهم، حيث كانت العرب تحتفل قديماً بثلاثة أشياء :ولد يولد، فرس تنتج، وشاعر ينبع، فهو لسان قبيلته في الأسواق والمحافل وحتى الحروب، ويقال أن كلام العرب كان منثوراً، ولما احتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وامتداح فرسانها، وسمحائها الأجواد، توهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما استقام لهم الوزن سموه شعراً، لأنهم شعرو به.[76] ص:100.

كما ذهب الجاحظ إلى أن الشعر حديث الميلاد صغير السِّن، وأول من نهج سبيله، وسهل الطريق إليه هو المهلهل بن ربيعة ثم امرؤ القيس، فهو يعود إلى خمسين ومائة عام قبل الإسلام وعلى أكثر تقدير مائتي عام.[56] ص:558 .

ولقد حظيت الشواهد الشعرية باهتمام اللغويين منذ العصور الأولى، وإن كانت تعتبر ثالث مصادر الاحتجاج إلا أنها في الواقع الأكثر استعمالاً، وذلك نظراً لقيمة الشعر عند العرب، وكثرة تداوله بينهم، ولصعوبة تحريفه وتغييره، ورغم ذلك فقد ضاع أكثره حيث يقول ابن سلام: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره»[33] ص:356 .

ولقد قسم اللغويون الشعراء إلى طبقات هي:

الطبقة الأولى: الشعراء الجاهليون: وهم شعراء ما قبل الإسلام كامرئ القيس،والأعشى،وطرفة....

الطبقة الثانية: المخضرمون: وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كلبيد،وحسان،وكعب بن زهير...

الطبقة الثالثة: المتقدمون: ويقال لهم الإسلاميون، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام كجرير والفرزدق...

الطبقة الرابعة: الموَلّدون: ويقال لهم المحدثون، وهم من بعدهم كبشار بن برد وأبي نواس..... [51]1/05-06.

وهناك من قسمهم إلى ست طبقات، فأضاف على الطبقات الأربعة السابقة طبقتين وهما:

الطبقة الخامسة: طبقة **المحدثين** وهم الذين جاءوا بعد المولدين كأبي تمام.

الطبقة السادسة : طبقة **المتأخرين** كالمتبني[69] ص:159 .

ولقد اهتم الكوفيون بالشعر حيث كان «الشِّعر العربي جاهلية وإسلامية، ومحدثه كان أيضاً مصدراً من مصادر الدراسة الكوفية، ومحتجًّا للكوفيين، وأساساً بنوا كثيراً من أصولهم عليه»[32] ص:333 .

كما كانوا إذا سمعوا بيتًا واحدًا فيه جواز شيء مخالف للأصل جعلوه أصلاً وبوبوا عليه، لأنهم «كانوا يشعرون بأن ما يقوله الأعرابي أو الأعرابية إنما يمثل بيئة لغوية لا يصح إغفالها»[69] ص:110.

وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلُّ على حرصهم بأن تكون الأصول خاضعة للأمثلة المستعملة المسموعة، لذلك أمعنوا في التتبع اللغوي، واستبعدوا أساليب المنطق.

ولقد كان الشعر بالكوفة غزيراً حيث يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح:«أحصينا عدد الشعراء الذين سكنوا إحدى المدن أو القرى فوجدنا أن عدد الذين عاشوا في الكوفة في هذه الفترة يبلغ تسعة وثلاثين شاعراً فصيحاً بالمعنى المقصود عند النحاة، من مجموع تسعة وستين شاعراً فصيحاً وعدد البصريين تسعة عشر شاعراً، واستشهد اللغويون بالكثير منهم ولا شك أن ما جمع من شعرهم كان جزءاً لا يتجزأ من المسموع أي المدونة التي اعتُمِد عليها في الدراسة العربية»[49] ص:123.

وبالغ الكوفيون في ذلك وباهوا البصريين بأنهم أعلم بالشعر منهم وأدخلوا في تأييد ذلك الأساطير حيث يقول ابن جني: «وأخبرنا أبو صالح السليل بن أحمد بن عيسى بن الشيخ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي، قال: حدثنا الخليل بن أسد النُوشجاني قال حدثني محمد بن يزيد بن ربَّان، قال أخبرني رحل عن حمّاد الرّاوية قال: أمر النعمان فنسخت له أشعارُ العرب في الطنوج - قال: وهي الكراريس- ، ثم دفنها في قصره الأبيض، فلما كان المختار بن أبي عُبيد قيل له: إن تحت القصر كنزاً، فاحتفر، فأخرج تلك الأشعار فمن ثَمَّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة.

وهـــذا ونحوه مما يدلّك على تنقل الأحوال بهذه اللغة،واعتراض الأحداث عليها،وكثرة تحوّلها وتغيرها»[11] 387/2 .

<u>5.2.2.2.1. النثـــــر</u>**:** لقد أشرنا سابقاً –في الاستقراء- إلى أن الكوفيين قد وسعوا أطلسهم اللغوي ليشمل قبائل رفض البصريون الأخذ عنها، ولكن ذلك لا يعني «أنهم لم يكونوا يتشدّدون في قبول اللغات التي كانوا يعتمدون عليها في دراستهم، فقد استهجنوا لهجات واستبشعوا لغات،

كما جاء في كلام الفراء: "كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ، ثم أخذ يستعرض هذه اللغات التي استهجنها، فذكر الكشكشة، والعنعنة، والعجعجة، والاستنطاق ..."» [32] ص:331 ، حيث يرى مهدي المخزومي أن الكوفيين وإن توسعوا في القبائل التي اعتمدوا عليها فذلك لا يعني أنهم لم يضعوا منهجا للسماع، فقد كان لهم منهجهم الخاص، فمخالفتهم للبصريين لا تعني تساهلهم، حيث قال: « لا يعني أخذهم باللّهجات التي أباها البصريون، أنهم كانوا يترخصون كل الترخص في قبول اللهجات واللغات، ولكنهم وثقوا بأولئك ورأوا لغاتهم تمثــّل فصيحا من اللُّغات، لا يصح إغفاله، وخاصَّة بعدما رأوها متمثِّلة في قراءات القرآن السبع...» [32] ص:331-332 .

كما شدّ علماؤها الرِّحال إلى البادية لمشافهة الأعراب والأخذ عنهم ،ومثال ذلك ما يروى عن الكسائي و الذي أخذ أيضاً عن أعراب سواد الكوفة وأعراب الحطمية الذين غلط البصريون لغتهم ولحّنوها، إذ احتج الكسائي في المناظرة التي جرت بينه وبين سيبويه والتي تعرف "بالمسألة الزنبورية" بلغاتهم، وكان ذلك في مجلس يحيى بن خالد؛ فلما اختلف في قوله: "كنت أظن العقرب أشدّ لسعة من الزنبور فإذا هو هي" ، وقال الكسائي "...فإذا هو إياها"، فطلب الكسائي سؤال العرب الحاضرين للفصل في المسألة، فوافقوا الكسائي فيما ذهب إليه، وهم بهذا تكلموا بمذهبهم. [77] 702/2-706.

ونخلص إلى أن الكوفيين قد توسعوا في الرواية .

3.2.2.1 . طـــــــــــرق السمـــاع:

وهي الكيفية التي يتم بها حمل النص من القائل، ويسميها بعضهم: طرق التحمل والآداء، وقدر رتبها السيوطي كما يلي:

1.3.2.2.1. السماع من لفظ الشيخ أو العربي: يقول ابن فارس: «تؤخذ اللغة اعتياداً كالصبي يسمع أبويه وغيرهما فهو يأخذ اللغة منهم على ممرّ الأوقات، وتؤخذ تلقناً من ملقن، وتؤخذ سماعاً من الرواة الثقات»[69] ص:147 ، وهي ما نجده في كتب النحويين في قولهم: "سمعت " ، "حدثني فلان" ، "أملى علي فلان" . . .

2.3.2.2.1 القراءة على الشيخ: وهي ما نجدها في قولهم : "قرأت على فلان" ، "أخبرنا" .

3.3.2.2.1. السماع على الشيخ بقراءة غيره: ويقول عند الرواية : "قُرئ على فلان وأنا أسمع" .

4.3.2.2.1. الإجازة: وذلك في الرواية الكتب والأشعار المدونة، ولقد ذكر ابن الأنباري اختلاف العلماء في جواز الإجازة، حيث تمسك من أجازوها، بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كتب كتباً إلى الملوك وأخبرت بها رسله، ونزل ذلك منزلة قوله وخطابه.

أما من رفضوها فاستدلوا على ذلك بأنه يقول: "أخبرني" ولم يوجد ذلك.

وقد خطأ ابن الأنباري هذا الرأي وقال بأنه يجوز لمن كتب إليه إنسان كتاباً أن يقول: "أخبرني فلان في كتابه كذا وكذا" ولا يكون كذباً. [52] ص:92 .

5.3.2.2.1. المكاتبة: وهي أن يعتمد أحد الأئمة شعراً أرسل إليه كتابة، مثل قول ثعلب في أماليه بعث بهذه الأبيات إلى المازني.

6.3.2.2.1. الوجادة: قال القالي في أماليه: «قال أبو بكر بن أبي الأزهر: وجدَت في كتاب أبي، حدثنا الزبير بن عباد ولا أدري عمن هو قال حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن المغيرة بن عبد الرحمن... فقال ألا أنشدك أبياتاً قلت أنشدني فأنشدني: ...» [69] ص:147-148 ،و: [76] ص:40 .

وبهذا نخلص إلى أن الكوفيين اعتمدوا على السماع بطرقه المختلفة ، و توسعوا فيه أيَّمَا توسع ، حيث احتجوا بالقراءات المتواترة و الآحاد ، و حتى الشاذة إذا وقفوا على شاهد مؤيدٍ لها من كلام العرب، و كان استشهادهم بالحديث نادراً في القضايا النحوية ، أما الشعر فقد كان المصدر الأكثر اعتماداً عندهم .

3.2.1 . القيـــــــــاس:

تكونت مدونة اللغة العربية عن طريق السماع ولكثرتها وتنوعها احتاجت إلى طريقة عقلية تنظمها وتبوبها بتتبع جزئياتها واستقراء كل أحولها، فجاء تصنيفها المبدئي على أساس التشابه والتباين، حيث ينطلق اللغوي والنحوي في عمله من العناصر المتشابهة ويقوم باستقرائها ليستنتج نتائج عامة ثم يعمل على ما تمَّ استنتاجه وتطبيقه على النصوص المعتمدة، وبهذا يحصل تجاوز السماع ، فتطبق الأحكام المجردة على مثيلاتها التي يمكن إنشاؤها، فإذا قلنا: جاء أحمد ،وذهب محمد ،وخرج علي، أوجه الشبه في هذه الجمل أنها : تتكون من كلمتين: فعل متبوع باسم، والفعل في صيغة الماضي، والاسم مرفوع في كلٍّ منها.

و من هذا نستنتج أن كل فعل يقتضي اسمًا مرفوعًا ، وبعد ذلك يمكننا تعميم هذه القاعدة في كل ما يشبه هذا الكلام.

وبهذا يكون القياس عمليةً ابداعية تمدّ اللغة بصيغ و تراكيب لم تكن موجودة من قبل .

1.3.2.1. مفهوم القياس:

لغـــــــــة: عندما نتصفّح معاجم اللغة نعثر على عدة معان للقياس، منها :

- التقدير: نطالع في معجم مقاييس اللغة مادة (ق،و،س): بأنّ القاف والواو والسين أصل واحد يدل على تقدير شيء بشيء ثم يصرف فتقلب واوه ياءً، ولهما المعنى نفسه سواء بالواو أم بالياء، ولم يكتف ابن زكريا بهذا التعريف، بل لجأ إلى التفسير ليتبيّن أنّ المعنى اللغوي من قاس هو التقدير، فيرى بأنّ القوس هي الذراع، وإنّما سميت كذلك لأنّ المذروع يقدِّرُ بها، ولذلك سميت القوس التي يرمي عنها[4] ص:76، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: «**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9)** »[النجم:09] وذهب المفسرون إلى أن "قاب قوسين" تعني بقدرهما إذا مدا [78]318/4. ومنه القياس هو تقدير شيء بشيء.

وفي لسان العرب:«قست الشيء بغيره وعلى غيره أقيسُ قَيْساً و قِياساً فانقاس إذا قَدَّرته على مثاله؛(...) و المقدار مِقْياس(...) في القوس يريدون القياس،وقايست بين الأمرين مُقايسَة » [65] 186/6.

يتضح لنا من خلال هذا التعريف أنّ القياس هو التقدير ،وَ يأتي من طبيعتين: قاسَ يقيس، وقاس يقوس، وجمع قوس: أقواس وقياس ، مثل ثوب: أثواب وثياب .

- **الاقتداء:** في لسان العرب نجد معنى آخر للقياس، فبعد أن ذكر معنى تقدير الشيء بالشيء على مثاله، جاء بمعنى الاقتداء،قائلا: «ويقتاس بأبيه اقتياساً أي يسك سبيله ويقتدي به»[65] 186/6 .

- **التسوية:** يقول ابن منظور« قَايسْت بين الأمرين مُقَايَسَة وقياساً ،و يقال: قايَسْت فلاناً إذا جاريته في القياس»[65] 186/6 ، فمن معاني القياس التساوي بين الشيئين في المقدار،«يقال: فلان يقاس بفلان أي يساويه – و لا يقاس بفلان أي لا يساويه- »[79] ص:242 .

اصطلاحـــــــا: القياس في تاريخ الفكر الإنساني أنواع:

أ – قياس المنطق: هو إحدى الوسائل التي تنظم التفكير بطريقة صورية ،وقد عرفه أرسطو في كتابه "المباحث Topics" بأنه:« الاستدلال الذي إذا سلمنا فيه ببعض الأشياء لزم عنها بضرورة شيئا آخر»[80] ص:75 .

فإذا كان القول مركباٌ من قضيتين أو أكثر متى سُلِّمَ لزم عنه لذاته قول آخر، و ذلك بطريقة الانتقال من العام إلى الأقل عموما، ومن الأعلى إلى الأسفل، ومن جانب الأجناس إلى الأنواع ومن الأنواع إلى الأفراد، كما يتضح ذلك في المثال التالي: سقراط إنسان، كل إنسان فان، سقراط فان .

ب- قياس الفقه: هو «ردّ الفرع إلى الأصل بعلة تجمعهما في الحكم »[79] ص:243 ، فبه ترد الأحكام الاجتهادية إلى الكتاب والسنة، وإذا كان القياس في الفقه كما ذكرنا فإنه يكون من باب الخضوع لحكم التماثل بين الأمور الذي يوجب التماثل في أحكامها، لأن قضية التساوي في العلة أوجدت التماثل في الحكم، فقد نص الشارع على حرمة الخمر – وهو عصير العنب- ثم عمَّمَ الفقهاء حكمها عن طريق القياس على كل شراب مسكر ولو كان غير العنب. كقياس النبيذ على الخمر للعلة الجامعة بينهما وهي الإسكار، فيكون الحكم حرمة النبيذ كحرمة الخمر.

و لهذا يعتبر القياس «إلحاق واقعة لم يرد في حكمها نص و لا إجماع بواقعة أخرى ثبت حكمها بأحدهما ؛لاشتراكهما في علة الحكم التي لم تدرك بمجرد معرفة اللغة»[81] 191/1 .

جــ - قياس النحــو: نشأ من تصورات النحاة لفكرة الأصل والفرع في النحو، وجعلوه منهجاً يقابل السماع، وقد فتنوا به. حيث قال الكسائي عنه :

إنما النحوُ قياسٌ يتبعُ * وبه في كل أمرٍ يُنتَفَعُ [11] 126/1 .

وقد عرّفه ابن الأنباري بأنه: « حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه» [82] ص:45 .

ويقصد بالمنقول ما نقل عن العرب الفصحاء ، أما غير المنقول فهو الكلام المُسْتَحدث الذي يتم وضعه على سمت كلام العرب شرط أن يكون في معنى المنقول، مثل العوامل الداخلة على الاسماء يجوز إدخالها على عدد غير محصور من الاسماء.

كما نقل ابن الأنباري جملة من التعاريف للقياس في لُمَعه ،نحو[52] ص:93 :

- هو تقدير الفرع بحكم الأصل.
- هو حمل فرع على أصل بعلة.
- هو إلحاق الأصل بالفرع بجامع .

ومن هذه التعاريف نستنتج أن القياس يقوم على أربعة أركان : الأصل،والفرع،و العلة و الحكم.

ولقد أيقن العلماء أهمية القياس و ضرورته ، فلا يمكن لأحد أن يدعي أنه سمع اسم كل فاعل ، وإنما سمع البعض فقاس عليه غيره، فإذا سمعت: قام زيد ، قست عليه: قام أحمد، قام عمر، .....الخ

<u>2.3.2.1 . أوجه القياس:</u> هناك وجهان للقياس الأول يمثله المتكلم إذ يحذوا حذو غيره من أبناء الجماعة اللغوية، والثاني هو الذي عرف عند النحويين.

<u>الوجه الأول</u>: <u>القياس الاستعمالي:</u>

يراد به حمل غير المنقول أي كلامنا المستحدث الذي نحاكي به كلام العرب، بالمنقول أي كلام العربي الفصيح، كأن تقول: صِحافة وطِباعة على مثل قول العرب: زِراعة وتِجارة، فالأصل – المقيس عليه أو المنقول عن العرب- هو تِجارة وزِراعة، والفرع – المقيس أو غير المنقول- هو قولنا : صحافة وطباعة... [83] ص:21 ، وكأن تقول :ثلاّجة عصّارة ،على مثل قولهم: قدّاحة وبرّادة....إلخ.

وكأن ترفع في كلامك ما يستحق أن يكون فاعلاً،وأن تنصب ما يستحق أن يكون مفعولاً به...إلخ، وإن لم يكن ذلك منقولا عنهم فهو في معنى المنقول فحُمِلَ عليه.

والقياس بهذا المعنى محاكاة للعرب في طرائقهم اللغوية، وحمل كلامنا على كلامهم، سواء في بنية الكلمة وما يعرض لها من أحكام كالإبدال والإعلال والحذف والزيادة...إلخ، أوفي نظام الكلام وما يعرض له من أحكام كالتقديم والتأخير والاتصال والانفصال والحذف والذكر والإعراب والبناء.

الوجه الثاني: القياس النحوي:

يتمثل القياس النحوي في استنباط القواعد والقوانين من كلام العرب، فإذا كان النَّحو انتحاء سمت كلام العرب في تصرّفه من إعراب وغيره كالتشبيه ،والتحقير،والتكسير،والإضافة ،والتنسب، والتركيب وغير ذلك[11] 34/1 . فإن القياس النحوي هو النحو كما يراه النحاة، وإذا كان القياس الأول قياس أنماط، فهذا القياس يعرف بقياس الأحكام [36] ص:177.

وإذا كان الأوّل "انتحاء" فإنّ الثاني هو "النحو"، لأن «النحوعلم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب ، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو»[52] ص:95 ، و معنى ذلك أن القياس هو ما يضعه النحوي اعتماداً على علة الحكم الثابت عن كلام العرب . ومثال ذلك: إعراب الفعل الضارع قياساُ على الاسم لمشابهته له.

وفي الفرق بين هذين الوجهين يرى الدكتور "تمام حسان" : أن القياس في عرف النحاة إمّا من قبيل القياس الاستعمالي، وإمّا من قبيل القياس النحوي، والأوّل هو"انتحاء" كلام العرب، وبهذا المعنى لا يكون نحوًا وإنما يكون تطبيقًا للنحو، وهذا القياس هو وسيلة كسب اللغة في الطفولة، وهو كذلك مما يطبقه مجمع اللغة في وضع المصطلحات وألفاظ الحضارة. أما القياس الثاني فهو: «حمل غير منقول على منقول إذا كان في معناه» ، فهو النحو كما يراه النحاة، وإذا كان الأول هو الانتحاء، فإن الثاني هو النحو[36] ص:151-154 .

<u>3.3.2.1. أركان القياس:</u>

أركان القياس أربعة: الأصل والفرع والعلة والحكم ،ويضرب ابن الأنباري مثالا فيعلل لإعراب نائب الفاعل بالرفع قياساً على الفاعل فالأصل هو: الفاعل، والفرع : ما لم يسم فاعله، والعلة الجامعة هي: الإسناد، والحكم هو: الرفع ،والأصل في الرفع أن يكون للفاعل، وإنما أُجريَ على الفرع أي هو ما لم يسم فاعله للعلة الجامعة التي هي الإسناد [52] ص:95 .

وهكذا تُبنى أقيسة النحو على الأركان التالية:

<u>1.3.3.2.1 . المقيس عليه:</u> وهو المسموع من كلام العرب، وقد قسمه ابن جني إلى أربعة أضرب وهي:

أ – مطرد في القياس والاستعمال جميعاً: نحو: قام زيد ،وضربت عمرًا ،ومررت بسعيد .

ب – مطرد في القياس شاذ في الاستعمال: وذلك نحو الماضي من يذر ويدع ،وكذلك قولهم "مكان مبقل" هذا هو القياس، والأكثر في السماع "باقل" والأول مسموع أيضاً.

ومما يقوي في القياس أيضاً ويضعف في الاستعمال مفعول عسى اسما صريحاً "عسى زيد قائماً" ، أو قياما في قولهم "عسى زيد أن يقوم" و"عسى الله أن يأتي بالفتح".

ج- مطرد في الاستعمال شاذ في القياس :نحو قولهم: أخوص الرمث واستوصبت الأمر، حيث يقال: استوصبت الأمر ، ولا يقال استصبت الشيء ومنه قول زهير: هناك أن يستخولوا المال يخولوا.

د- شاذ في القياس والاستعمال جميعاً: وذلك نحو قولك: ثوب مصوون، ومسك مدوون... ، وحكى البغداديون: فرس مقوود وكل ذلك شاذ في القياس والاستعمال، فلا يَسُوغ القياس عليه ولا رد غيره إليه. [11] 1/97-99 .

ولقد أشرنا في حديثنا عن السماع إلى احترام الكوفيين لكل ما سمعوه عن العرب، حيث كانوا يقيسون على القليل والنادر لدرجة أنهم «إذا سمعوا لفظاً في شعر، أو نادر كلام جعلوه بابا»[32] ص:377.

2.3.3.2.1.المقيس: قال فيه المازني: «ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب؛ قال: ألا ترى أنك لم تسمع أنت وغيرك اسم كل فاعل ولا مفعول، وإنما سمعت البعض فَقِسْت عليه غيره، فإذا سمعت: "قامَ زيدُ" أجزت، "ظَرُفَ بشرٌ، كَرُمَ خالدٌ»[50] ص:67 .

ومعنى ذلك أن معرفة اللغة لا يعني حفظ كل تراكيبها – وهذا مستحيل- وإنما يستوجب معرفة قواعدها و القياس عليها ، ومثال ذلك ما ذكره المازني ؛ فيكفي أن نسمع تركيباً معيناً ونقيس عليه . و المقيس نوعان[84] ص:26 :

1- إما أن يكون استعمالاً – كالمثال السابق- وذلك ببناء الجمل التي لم تسمع من قبل على نمط الجمل التي سمعت.
2- وإما أن يكون حكماُ نحوياً نسب من قبل إلى أصل مستنبط من المسموع ، مثل:
- إعراب الفعل المضارع حملاً على إعراب اسم الفاعل .
- رفع نائب الفاعل حملاً على رفع الفاعل .

3.3.3.2.1. الحكـــــــــم: إنّ حمل المقيس على المقيس عليه يتضمن إعطاءه حكماً ،و« من ذلك أن تقول إذا كان الاسم الفاعل، على قوة تحمله للضمير، متى جرى على غير من هو له، صفة أو صلة أو حالاً أو خبراًلم بتحمل الضمير، فما ظنك بالصفة المشبهة باسم الفاعل، فإن الحكم الثابت للمقيس عليه إنما هو بالاستنباط و القياس على الفعل الرافع للظاهر حيث لا تلحقه علامات » [50] ص:69 ، إذ يتفق النحاة على جواز القياس على الحكم الثابت عند العرب.

وقد قسم النحاة الحكم إلى ستت أقسام وهي [84] ص:34 :

1- الواجب : كرفع الفاعل و تأخيره عن الفعل .
2- الممنوع: كأضداد ما ذكر في الواجب .
3- الحسن : كرفع المضارع الواقع جزاءً بعد شرط ماضٍ.
4- القبيح : كرفع المضارع الواقع جزاءً بعد شرط المضارع .
5- خلاف الأولى: كتقديم الفاعل ،نحو: ضرب صديقه عمرٌ.
6- جائز على السواء: كحذف المبتدأ أو الخبر و إثباتهما ،حيث لا مانع من الحذف ولا مقتضى له.

4.3.3.2.1.العلّـــــــــــــة الجامعة: ويراد بها تفسير الظاهرة اللغوية، والنفوذ إلى ما ورائها، وإيضاح الأسباب التي جعلتها على ماهي عليه، فالعلة هي الصفة المميزة التي من أجلها أُعطي المقيس الحكم الذي في المقيس عليه. ومما لا شك فيه أن « العرب قد أرادت من العلل و الأغراض ما نسبناه إليها ، ألا ترى إلى اطراد رفع الفاعل ، و نصب المفعول ،و الجر بحروفه،(....) فهل يحسن بذي لب أن يعتقد أن هذا كله اتفاق وقع ، وتوارد اتجه؟ فإن قلت : فلعله شيء طُبعوا عليه من غير اعتقاد لعلة، ولا لقصد من القصود التي تنسبها إليهم ،بل لأن آخر منهم حذا على ما نهج للأول فقام به.» [11] 237/1 .

وبهذا نجد أنّ اعتلالات النحويين صنفان:

- علّة تطرد على كلام العرب و تنساق إلى قانون لغتهم.
- علّة تُظهر حكمتهم و تكشف عن صحة أغراضهم ومقاصدهم .

وعلل النحو المستنبطة هي:

1 – التعليمية: وهي التي يتم بها تعليم كلام العرب، لأنّنا لم نسمع نحن ولا غيرنا كل كلامهم وإنّما سُمع بعضه فقسنا عليه نظيره، و مثال ذلك: أننا لما سمعنا "قام زيد فهو قائم" و "ركب عمرو فهو راكب" فعرفنا اسم الفاعل فقلنا: "ذهب فهو ذاهب" و "أكل فهو آكل".

ومنها أيضاً قولنا: "إنّ زيدًا قائم"، وإن قيل:لِمَ نصبتم زيدًا؟ قلنا:بـــ(إنَّ) لأنها تنصب الاسم،وترفع الخبر، لأنّ كذلك عُلِّمناه ونُعلِّمه [50] ص: 81.

2– القياسيـــــة: كأن يقال: لم نصب زيد بـــ"إنّ" في قوله: "إنّ زيدًا قائم" ؟ولم وجب أن تنصب "إنّ" الاسم؟وجواب ذلك أنها ضارعت الفعل المتعدِّي إلى مفعول، فحُمِلَتْ عليه و عملت عمله لمّا ضارعته. إذ تشبه من الأفعال ما قُدِّمَ مفعوله على فاعله. [50] ص: 81.

3 – الجدليـــة: هي كل ما يُعتل به من باب "إنّ" بعد هذا، مثل أن يُقال من إي جهة شابهت هذه الحروف الأفعال؟ وبأي الأفعال شبهتموها؟ أبالماضية، أم المستقبلية، أم الحادثة في الحال؟ وهلا شبهتموها بما قُدِّم فاعله على مفعوله لأنه هو الأصل وذاك فرع؟ إلى غير ذلك من الأسئلة . [50]ص:81

4.3.2.1 . أقسام القياس:

على الرغم من أنّ علم أصول النحو كان محور دراسات متعددة توافرت عليه لتجعل منه علمًا واضح المعالم والأبعاد فإنّه لم يستوف بحث تلك الأصول ولا سيما أقسام القياس، وقد تتبعناها في كتب النّحو وأصوله، فوجدنا عدة أفكار متشبعة، لأنّ النحاة قد نظروا إلى أقسام القياس من جوانب مختلفة، فصارت له مصطلحات كثيرة، وسيقتصر قسمنا هذا على أقسام القياس عند أبي البركات ابن الأنباري حتى لا ندخل في شوائب هذا العلم.

وَ يقسم ابن الأنباري القياس النحوي إلى ثلاثة أقسام وهي:

قياس العلة، قياس الشبه، وقياس الطرد

1.4.3.2.1.قياس العلّة:

هو« أن يحمل الفرع على الأصل، بالعلة التي علّق عليها الحكم في الأصل»[52] ص:105 ، ومثال ذلك: حمل ما لم يُسمَّ فاعله على الفاعل بعلّة الإسناد.

2.4.3.2.1.قياس الشبه:

هو : " أن يحمل الفرع على الأصل بضرب من الشبه غير العلّة التي عُلق عليها الحكم في الأصل"[52] ص:107 ، و مثال ذلك: إعراب المضارع في مثل: يضرب حملاً على ضارب، بعلة (أنه يتخصص بعد شياعه، كما أن الاسم يتخصص بعد شياعه فكان معرباً كالاسم، أو بأنه يدخل عليه لام الابتداء كالاسم، أو بأنه على حركة الاسم و سكونه) [50] ص:87 .

وقد أوضح العلماء الفرق بين العلّة والشبه ؛وذلك في أنّه إذا كان الشبه ناتجا عن كون الحكم يثبت في الطرفين لسبب واحد وفي درجة واحدة كان علة، وإن لم يكن كذلك كان شبها، وهذا مثل ما ذكرناه سابقاً في إعراب الفعل المضارع لأنّه يتخصص بعد شياعه، كما أنّ الاسم يتخصص بعد شياعه، أي أنّ إعراب المضارع في رأي البصريين هو لمشابهة الاسم لفظا وَ معنًى واستعمالاً.

فاللفظ: بموازنته له في الحركات والسكنات، كضاربُ ويضربُ .

والمعنى: بقبول كل منهما الشيوع والخصوص، فالاسم عند تجريده من أداة التعريف يفيد الشيوع وعند دخولها عليه يتخصص كذلك المضارع. عند تجرده عن حرف الاستقبال يحتمل الحال وَالاستقبال، وعند دخول أحد حرفي الاستقبال يتخصص .

أما الاستعمال: فلوقوع كل منهما صفة لنكرة ،ولدخول لام الابتداء عليهما نحو: جاءني رجل ضارب أو يضرب، و إنّ زيدًا لضارب أو ليضرِبُ.

فالشبه بين المضارع والاسم في اللفظ والمعنى والاستعمال ليس شيئاً من هذه العلل في هذه الأقيسة، فهو العلة التي وجب لها الإعراب في الأصل الذي هو الاسم إنّما هو لإزالة اللّبس، لأن الاسم يكون فاعلاً ومفعولا به وضافًا إليه. [84] ص:21-22 .

هذا هو الفرق بين قياس العلّة وقياس الشبه.

<u>3.4.3.2.1.قياس الطرد:</u>

«هو الذي يوجد معه الحكم وتفقد الإخالة في العلة، واختلفوا في كونه حجة، فذهب قوم إلى أنّه ليس حجة ،لأنّ مجرد الطرد لا يوجب غلبة الظن، ألا ترى أنّك لو عللت بناء (ليس) بعدم التصرف لاطراد البناء في كل فعل غير متصرف(..)، فلما كان ذلك الطرد لا يغلب على الظن أنّ بناء "ليس" لعدم التصرف(..) بل نعلم يقيناً أن (ليس)إنما بني لأن الأصل في الأفعال البناء »[52] ص:110 .

ولقد جمع الدكتور "تمام حسّان" هذه الأقسام الثلاثة في تعريف شامل جامع مانع، وهذا في قوله:

«والقياس النحوي ثلاثة أنواع: قياس علة وقياس طرد وقياس شبه، ذلك أنّ القياس إما أن تراعى فيه العلة وإما ألاّ تراعي، فإذا لم تراع فيه "العلة" سمي "قياس الشبه"، وذلك كإعراب المضارع لشبهه باسم الفاعل دون علة تذكر إلا مجرد هذا الشبه (وهو شبه بين الفعل واسم الفاعل الذي من مادته في مطلق الحركات والسكنات وفي تعاقب المعاني عليه)، أما إذا روعيت العلة، فإمّا أن تكون مناسبة أو غير مناسبة ، فإذا كانت العلة مناسبة سمي (القياس) "قياس العلة" كقياس رفع نائب الفاعل على الفاعل بعلة الاسناد في كل منهما، وهي علة مناسبة لإجراء هذا القياس، وإذا كانت العلة غير مناسبة سمي القياس "قياس طرد" كقول النحاة أحيانا من قولهم: "طردًا للباب على وتيرة واحدة"، وهذه العلة غير مناسبة، والعلة المناسبة التي يمكن أن تساق في هذا المقام، وهي أنّ "الأصل في الأفعال البناء" والقياس على الأصل علة مقبولة»[36] ص:154-155 .

ليلخص بعد ذلك أنواع القياس في المخطط التالي:

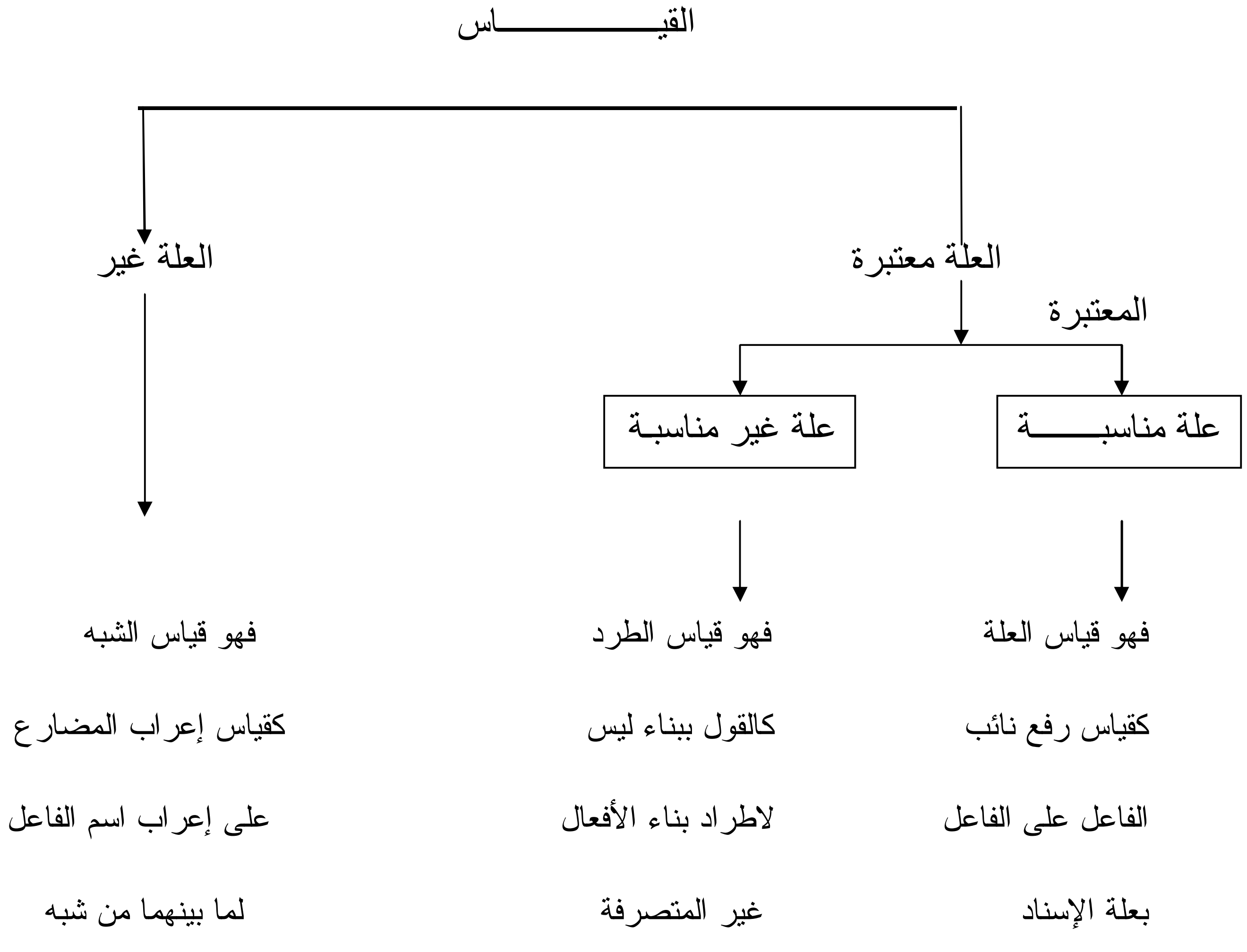

- شكل رقم 05: مخطط يبيّن أنواع القياس [36] ص:155. -

5.3.2.1 . منهج القياس عند الكوفيين:

من خلال الاطلاع على مصادر النحو الكوفي نستنتج أن الطّابع العام الذي تميّزت به هذه المدرسة وهو التوسع في الرّواية إلى حدّ رواية الشّاذ الذي رفضه البصريون، ويرتبط به وبصفة مباشرة التوسع في القياس، إذ يختلف الدارسون في تحديد العنصر الأكثر أهمية من بين هذين العنصرين عند أصحاب هذه المدرسة، فالبعض يقول إن مذهبهم مذهب القياس من منطلق الأسباب التالية:

أ – أنهم يقيسون على كل مسموع ولا يتحرجون في استنباط أقيستهم من شاهد واحد .

ب – أن الكسائي رائد هذه المدرسة هو صاحب القول المشهور:

إنّما النّحو قياس يتّبع * وبه في كلّ أمر يُنتفع.

ج - «أن الأقيسة التي اعتمد عليها البصري في تكوين مذهبه هي قليلة بالنسبة إلى الأقيسة التي تكون منها المذهب الكوفي لتوسّعهم في القياس، ومن ثم قيل إن مذهب البصريين مذهب السّماع، ومذهب الكوفيين مذهب القياس» [6] ص:150 .

والبعض الآخر يرى أن مذهبهم مذهب السماع من منطلق أنهم يأخذون بالاعتبار كل ما وصل إليهم وسمعوه دون تفحصٍ لشروط الفصاحة والصّحة فيه، فمذهبهم «لواؤه بيد السّماع لا يخفر له ذمّة، ولا ينقض له عهدًا، ويهون على الكوفي نقض أصل من أصوله، ونسق قاعدة من قواعده، ولا يهون عليه اطراح المسموع»[85] م14،ج319/9 .

إن كنّا لا نستطيع تغليط كلا الرأيين لأن كلاً منهما نظرإلى المسألة من زاوية مخالفة للآخر، إلا أنّه يمكننا القول إنَّ السّماع والقياس يُعتمد عليهما معا عند الكوفيين كما عند البصريين، وإن كان هناك نوع من الغلبة للنقل على القياس، كما أن التوسع عند الكوفيين مرتبط بهما معًا فكما توسعوا في الرواية توسعوا أيضا في القياس، و «الكوفيون لو سمعوا بيتا واحدا فيه شيء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوّبوا عليه»[32] ص:377 .

وهذا ما ميّزهم عن البصريين الذين كانوا يشترطون الكثرة لكي يكون القياس صحيحا ،ويحرصون على هذا الشرط، وقد كان "أبو عمرو بن العلاء" يعتّد بالكثير ويسمّي القليل لغات ثم لا يقيس عليه، وإنما يدخله تحت العبارة المشهورة: "يحفظ ولا يقاس عليه"[36] ص:38 .

أمّا الكوفيون فمذهبهم القياس على الشاذ «إذ يعتدُّون بالمثال الواحد ،ويعمّمون الظاهرة الفرديّة ويَعُدّونها أصلا مستقلاً قائما بذاته ،ويحرصون على جعلها مقياساً عامًا لمختلف الصيغ والأبنية فقد كان من عادتهم إذا سمعوا لفظا في شعر أو نادر كلام جعلوه بابا أو فصلا»[32] ص:377 ، ولم يقفوا عند هذا الحدّ في القياس على الشاذ ّ والنّادر والقليل، بل كانوا أيضا يتساهلون في بعض الأحيان في ضرورة معرفة قائل الشاهد الذي يقيسون عليه « وربُمّا استشهدوا ببيت لا يعرف شطره الآخر ولا يعلم قائله كدليلهم على جواز دخول اللاّم في خبر "لكن" بقول المجهول

. . . .   *   ولكنّني من حبّها لعميد »[6] ص:141 .

*** - القياس بين الكسائي والفراء:**

- يعتبر "الكسائي" رائد المدرسة الكوفية،وأحسن من مثّل مذهبها في القياس،وذلك لأنّه أوّل من سنّ طريقة التّسامح إلى أبعد مدى في القياس على كلّ مسموع، وأعاد النّظر في التأصيل العام لقواعد النّحو باتباع المبادئ التالية:

أ - «توسع في القياس، فلم يقف به عند المستعمل الشائع على الألسنة ،ولا عند أعراب البدو بل مدَّه ليشمل ما ينطق به العرب المتحضرون ممّن يمكن أن يكون قد دخل اللحن على ألسنتهم في رأي البصريين (...) وأهمّ من ذلك أنّه مدَّ النحو ليشمل الشّاذ النّادر من تلك اللغات ممّا لم يكن سيبويه والخليل يحفلان به، ولا يريان له قدراً »[35] ص:176 .

وربّما كانت هذه اللغات ممّا لم يصل إليه سماع البصريين. وقد نتج عن هذا التوسع في القياس على لغات جديدة ومختلفة ضرورة وضع أقيسة جديدة أيضا «تخالف تلك التي وضعها البصريون وفق حدود خاصّة وشروط معيّنة»[24] ص:250، ولهذا كثرت الأقيسة عند الكسائي وتنوّعت.

ب- «وضع أقيسة لظواهر لم ترد في اللغة التي بين يديه لا في منثورها ولا في منظومها ،وإنّما وضعها قياسا على الشبيه والمقابل والمغاير والمضاد وما إلى ذلك مع الافتقار إلى المثل والدّليل المسموع» [24] ص:250. وفي هذه النقطة بالذّات بالغ الكسائي وظهر تميّزه في الكثير من الآراء التي خالف بها البصريين وحتى أصحابه الكوفيين وأقرب تلاميذه الفرّاء،وقد نقل المتأخّرون مثل: الاسترابادي وابن يعيش والسيوطي هذه المسائل المختلف فيها بين الكسائي والفرّاء.

ج- توسّع في القياس على القراءات«فقد كان يحتجّ لها ويؤيدها بكل ما انتهى إليه من لغات العرب، أمّا موقفه من القراءات الشاذّة فلم يردّها بل كان يلتمس لها وجها في النحو ويخرجها عليه»[86]ص:295

وهذا من أثر التكوين المزدوج حيث اجتمع له علم القراءة والنحو معاً.

- **أمّا "الفراء"** فهو حامل لواء النحو الكوفي بعد الكسائي، فقد واصل وفق منهج شيخه الكسائي وتوسع أيضا في القياس، ولكنه رغم ذلك كان يختلف عن أستاذه وخاصة في الأخذ بالشّاذ والنّادر والتّساهل في القياس عليه، فالفرّاء تأثر بالبصريين كما تأثر بالكسائي. وبعد اطّلاعه على منهجهما في القياس «نهج منهجا وسطا لا هو بالمتساهل في شواهده ووضعه الأقيسة على الشاذ والنادر والمفرد والمفترض أيضا كما كان يفعل الكسائي، ولاهو متشدّد تشدّد البصريين في أصول نحوهم وشواهدهم، وأقيستهم وإنما كان يخالف الاثنين فيما لا يرضيه. وكان قد تساهل في شواهده وبناء القواعد ووضع الأقيسة، ولكنّه مع ذلك ميّز بين الفصيح والنّادر والشّاذ واللّغة والضّعيف والرّديء والمستقبح والمستنكر من اللغات»[24] 275/7 .

وبينما كثر عند الكسائي القياس على الشّاهد المفرد ندر ذلك عند الفراء؛ إذ لا يكون ذلك إلاّ «عندما يقتنع بفصاحة قائله مخالفا بذلك شيخه في هذا الأصل، وقد يسمع شاهدين في الظّاهرة ومع ذلك لا يجوّزهما لخروجهما عن الكثير المطّرد»[24] 260/7 ، وهذا التشدّد الذي عرف به الفرّاء لم يكن في اللغة والشعر ولكن أيضا في القراءات القرآنية، حيث كان يردّ القراءات التي تحمل ظواهر نحويّة أو صرفيّة تخالف المطّرد من كلام العرب، وما تواتر من القراءات، «فله مقياس بالنسبة لقبول القراءة الشاذة وهو أن تتفق والتفسير أو أن يكون له وجه في العربية.

فإذا خرجت عن هذين الشرطين فلا يقبلها، وقد ينفر من القراءة الشاذّة ولا يشتهيها إذا كان المعنى فيها يحتاج إلى تأويل مثل قراءة الآية الكريمة «...**إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ**...»[يوسف :81] بضم السين وتشديد الرّاء»[86] ص:299-300 .

ورغم هذا الاختلاف بين الكسائي والفرّاء في درجة التشدّد أو التساهل إلاّ أن الفرّاء لم يخرج عن المنهج العام للكوفة واستطاع التميّز داخله.

6.3.2.1.نماذج من القياس الكوفي:

1.6.3.2.1 . القياس على الأقوال الشّاذة والنّادرة:

وجد الكوفيون في الأقوال والأشعار الخارجة عن مقاييس البصريين مادّة غزيرة ووفيرة فأخذوا بها وقاسوا عليها فمن ذلك:

1 – أنّ الكسائي رأى بعض العرب تقول: "لا عبد الله في الدّار بإعمال "لا" عمل "إنّ" ونصب عبد الله، ومعنى العبارة أن أحدًا من الناس لا يوجد في الدّار، لاستعمال "عبد الله" هنا في أي رجل كان، غير أنه قاس على "عبد الله" بقية الأعلام منتهيا إلى قاعدة عامّة هي أن "لا" النافية للجنس يجوز أن يليها العلم فيقال: لا زيدَ في الدّار، ولقد خالفه تلميذه الفرّاء فرفض هذه القاعدة لأنّ "لا" النافية للجنس تتطلّب أن يكون اسمها نكرة أو كالنّكرة[35] ص:180.

2 – منع البصريون تقديم المستثنى في أوّل الكلام موجبا كان أو منفياً فلا يقال: "إلاّ زيدًا قام القوم"، ولا: "إلاّ زيدًا ما أكل أحد طعاماً"، ولا "ما إلاّ زيد قام القوم"، أما الكوفيون فقد جوزوا ذلك لأن العرب قد استعملته مقدما مثل قول الشاعر :

خلا الله لا أرجو وإنّما * أعدّ عيالي شعبة من عيالك

فسوغوا تقديم المستثنى لا في "خلا" وحدها بل أيضا مع إلاّ ،بحجة أنّها الأصل في الباب و "خلا" فرع لها والأصل أولى بما يجوز في الفرع، وبذلك وضع قاعدة عامّة: هي جواز تقديم المستثنى في أوّل الكلام سواء كان موجبا أو منفياً [77] 1/273-277 .

3 – أجاز الكسائي في مثل: "ما قام إلاّ محمد" نصب "محمد" على الاستثناء ، مستدلاً بقول بعض الشعراء: لم يبق إلا المجدَ والقصائدا * غيرَكَ يابن الأكرمين وَالدَا

بنصب "المجد" و"غيرك"، وردّ عليه جمهور النّحاة بأن غيرك هي الفاعل، وفتحها ليست فتحة إعراب وإنّما هي فتحة البناء لإضافتها إلى مبني [35] ص:180-181. و غيرها من الأمثلة التي ذكرها شوقي ضيف.

2.6.3.2.1 . القياس على القراءات القرآنية الشّاذة: [86] ص:295-299 :

1- أجاز الكسائي العطف على محل اسم "إنّ" قبل مجيء الخبر استناداً إلى قوله تعالى: « **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)**»[الأحزاب:56] - على قراءة من رفع "ملائكتُه"- فخبر" إنّ" محذوف تقديره: "إنّ الله يصلي"، وأغنى عنه الخبر الثاني، وكذلك لقولك:"إنّ عمر وزيد قائم" فرفعت زيداً، جاز على أن يكون مبتدأ و"قائم" خبره" أو خبر "إنّ" .

2- أجاز الكسائي في قوله تعالى: «... **قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78)** » [هود:78]، قراءة "هؤلاء بناتي هن أطهرَ" بالنصب خلافاً للبصريين.

3- وأجاز في قوله تعالى: «...**قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25)**» [يوسف:25] النصب على حذف الفعل استنادا إلى قراءة زيد ابن علي: "أو عذاباً أليمًا" .

4-قال الفراء في قوله تعالى: « **قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18)**»[الفرقان:18]، قال :(و القراء مجتمعة على نصب النون في "نَتَخِذَ " إلا أبا جعفر المدني فإنه قرأ "أن نتّخذ" بضم النون (من دُونِك) ،فلو لم تكن في أولياء (من) كان وجها جيِّدا، وهو على شذوذه وقلة من قرأ به قد يجوز)[48] 264/2.

5- في قوله تعالى:«... **قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)**» [البقرة:135]، وكذا قوله تعالى: «**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً**...» [البقرة:138] ، أجاز الفراء في "ملة" و"صبغة" المنصوبتين رفعهما، فعلى رواية النصب يقدر فعل "نتبع ملة" و "ونتبع صبغة"، ومن رفع أراد: هي ملة وصبغة[48] 82/1-83 .

6- ذهب الكوفيون والأخفش إلى جواز وقوع الفعل الماضي حالا، واحتجوا بقوله تعالى: « **إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ**...» [النساء:90] ، فحصرت: فعل ماض؛ وهو في موضع الحال وتقديره "حصرة صدورهم".

والدليل على صحة هذا التقدير قراءة من قرأ : "أو جاؤوكم حصرةصدوهم"، وهي قراءة حسن البصري ويعقوب الحضرمي والفضل عن عاصم .

7.3.2.1. القياس الكوفي في نظر المنتقدين:

رأينا من خلال ما سبق أنّ منهج الكوفيين في القياس يعتمد على الشاذ والنادر والقليل ، وأنّ هذا التوسع في القياس مرتبط عندهم بالتوسع في السماع، وقبول كل هذه الأنواع من المسموعات ،وهي الصفات التي لم يكن البصري ليتقبلها أبدًا لأن منهجه في القياس والسماع كان على العكس من ذلك تماماً، فهو يقيس على المتعارف عليه والكثير والفصيح، ولذلك كان البصريون أوّل من هاجم الكوفيين وحملوا عليهم حملات شعواء حيث وجدوهم يتسعون في الرواية على هذه الشاكلة، وخصوا الكسائي بكثير من هذه الحملات قائلين: «إنّه كان يسمع الشاذ الذي الذي لا يجوز من الخطأ واللّحن والشعر غير أهل الفصاحة والضرورات فيجعل ذلك أصلا ويقيس عليه حتى أفسد النحو»[35] ص:160، ويقول اليزيدي منتقدا منهج الكسائي[87]ص:44 :

في القياس: كنا نقيس النحو فيما مضى ⋆ على لسان العرب الأوّل

فجاء أقوام يقيسونه ⋆ على لغى أشياخ قطْرُبُل

فكلّهم يعمل في نقض ما ⋆ به يصاب الحقّ لا يأتلي

إن الكسائي وأشياعه ⋆ يرقون بالنّحو إلى أسفل

ولم يختلف العديد من المحدثين المؤيّدين لمدرسة البصرية أو المحايدين عن رأي أصحابها في منهج الكوفيين في القياس، فهذا محمد الطنطاوي وهو لا يهاجم الكوفيين مباشرة، بل يذكر ما لهم وما عليهم يعدّد مساوئ منهجهم فيقول: «وقد اقتفى الكوفيون طريق الكسائي، فعوّلوا على شعر الأعراب بعد أن امتزجوا و تأشبوا بالمتحضرين و لان جفاؤهم (...) فأصاخوا إلى كلّ مسموع لهم وقاسوا عليه، فعثرت بهم عجلة الرأي ،ولم يدقّقوا تدقيق البصريين بل تدرّجوا مطاوعة لمناديهم إلى الاكتفاء بالشاهد الواحد ولو خالف الأصل المعروف المتفق عليه بين الفريقين»[6] ص:140.

وهو يرى أنّ الكوفيين بفتحهم الباب أمام كل مسموع والقياس عليه جعلهم يضعون قواعد كثيرة، بل وقد وضعوا للشيء الواحد متى ورد على صور متغايرة قواعد بقدر صوره ،فكثُر عندهم التجويز للصور المتخالفة، والشواهد التي يتخلّص منها البصري يعتمدها الكوفي ويضم ما يستفاد منها إلى قواعد مذهبه ويجعلها دعائم أقيسة أخـــــــــرى تضاف إلى أقيسته، وهو يرى أن هذا التعدد

في الأقيسة، وإن كان ذريعة من ذرائع التنويع في التعابير إلاّ أنّ فيه الكثير من الإسراف والإرهاق لطالب النّحو.[6] ص:143

ومن المحدثين الذين دافعوا بقوة على منهج البصريين في القياس وخطّؤوا منهج الكوفيين ، ورموه بكل العيوب الدكتور "شوقي ضيف"، ذلك أنّه تتبع كلّ نقائصه ودرسها جيّداً ،ففيما يتعلق بقياسهم على أقوال وأشعار المتحضرين من العرب، وتلك الأقوال الشاذّة التي سمعوها على ألسنة الفصحاء ممّا خرج على قواعد البصريين وأقيستهم، وممّا نعتوه بالخطأ والغلط ،يرى شوقي ضيف أنهم قاسوا عليها كثيراً ممّا أحدث اختلاطاً وتشويشاً في نحوهم ،لما أدخلوه على القواعد الكلية العامّة من قواعد فرعية قد تنقضها نقضا ، و هذا ما يؤدي إلى خللٍ في القواعد، وخلل في الأذهان ،حيث لا يمكن فهما إلا بإعادتها مرارا وتكراراً لاختلاط القواعد وتضاربها [35] ص:161-162 .

ويستنكر شوقي ضيف بشدّة موقف بعض المعاصرين الذين يطعنون في منهج البصريين، ويحمدون للكوفيين منهجهم ،معتبرين أنهم كانوا أدق من البصريين في فقه طبيعة العربيّة ، والإحساس بدقائقها التي لا تخضع دائما لمنطق العقل، ويرى أن هذا الكلام لا يقوله إلاّ من لا يعرف كيف توضع القواعد في العلوم، وما تقتضيه من مناهج دقيقة في وضعها لتحقق فيها شروط "الطّراد والتعميم والشّمول"، وهو ما لا يتوفّر في قواعد الكوفيين بقياسهم على الشّواذ النادرة[35] ص:177 .

كما يرى أنهم لم يكونوا دائما يبنون قياسهم على السّماع كما يَزعم المتشيعون لهم، بل كانوا يجافونه أحيانا، حيث كانوا يخضعون هم أيضا للمنطق والفلسفة ،بل ربّما كانوا أكثر خضوعاً له من البصريين، فمن المسائل التي رفضوا فيها السّماع، و حجبهم عنها التعليل المنطقي الخالص عدم الاعتداد بما رواه سيبويه من أقوال العرب وأشعارهم: فيما يخص عمل صيغ "فَعول ومفعال وفَعيل"،في مثل:"أما العسل فأنا شَرَّاب" بنصب العسل مفعولاًبه لشرّاب، فالكسائي والفرّاء ينكران عمل هذه الأسماء محتجين بأنّها فرع من أسماء الأفعال، وأسماء الأفعال فرع من الفعل المضارع، ولذلك ضعف عملها[35] ص:165 .

وهكذا يخلص شوقي ضيف إلى أنّه من الخطأ رفع المدرسة الكوفية فوق البصريّة في الحسّ اللغوي وتبيّن روح اللغة، وهم قد تعدّوا حدود الرواية وحدود القياس السّديد.

8.3.2.1. القياس الكوفي في نظر المدافعين:

هناك الكثير من الدارسين المحدثين من دافع عن مدرسة الكوفة ومنهجها في القياس والرواية معاً معتبراً أنّ اتساعها فيهما شيء إيجابي له دوافعه ومبرراته العلميّة ،وحتى الدّارسون الذين ذكروا عيوبها –ممّن ذكرناهم سابقا- لم يغفلوا الجانب الإيجابي في منهجهم ؛بل أشاروا إليه فالشيخ محمد الطنطاوي يرى أن الكوفي «قد حمله على مسلكه احترامه كل ما ورد مسموعاً من العرب وكفى، والتيسير للناس أن يستعملوا استعمالاتهم على مقتضى ما أثر عنهم، فلا ضير على القائل متى حاكى أي استعمال كان، وما القواعد إلاّ وليدة اللغة، فهي ذات السلطان عليها دون العكس»[6] ص:149.

كما يرى شوقي ضيف أنّ المدرسة الكوفية باعتدادها بالشاد والنادر والقياس عليه «فتحت الأبواب للاحتفاظ بشواذ اللغات واللهجات وصونها وحمايتها من الضياع»[35] ص:177 .

أمّا تمام حسان فيرى أنّ الكوفيين ربّما رموا إلى غاية نبيلة ، وربمـــا تصدوا بالاعتداد بالقليل لكي لا يهدروا نصا اعتبروه فصيحا، وبما أن أعراب الحاضرة كانوا في زمانهم ما يزالون –في رأيهم- على سليقتهم الأولى في الفصاحة، قاسوا على كلام هؤلاء المتحضرين وغيرهم من أصحاب الشواذ من أعراب البادية، وبنوا على ذلك بعض ما يسميه "قواعد التوجيه الكلية الأصوليّة" التي خالفوا بها البصريين كقولهم مثلا: كثرة الاستعمال تفيد ترك القياس والخروج عن الأصل[36]ص:39 .

ويذهب عبده الرّاجحي إلى أن النحو الكوفي لم يلق حتى الآن ما يستحقه من عناية رغم أن ما ذهب إليه الكوفيون أقرب إلى واقع اللغة ممّا ذهب إليه البصريون، فقد كانت السِّمة الغالبة على الكوفيين أنهم درسوا المادة اللغوية على أساس وصفي، أي بطريقة تقريرية تبتعد عن التعليل الفلسفي، كما أن تتبّع ما قدّمه الكوفيون من شأنه أن يُعين على دحض كثير من الشبهات التي يثيرها بعض الدارسين حول النحو العربي[37]ص:54-55 .

ويبدو أنه يشير هنا إلى قضية المعيارية في النحو العربي، فهناك من يرى أن النحو وخاصة البصريّ منه - فهو الذي غلب في نحونا – كان معياريا ،بينما النحو الكوفي كان وصفيا استقرائيا ، يستنبط القاعدة مما يسمعه وليس مما يفترضه.

ويمكننا اعتبار الدكتور "مهدي المخزومي" من خلال ما كتبه في كتاب "مدرسة الكوفة" من أكبر المدافعين عن منهج هذه المدرسة في القياس والسّماع ،حيث يضعه موضع قوّة معتبرا أن الكوفيين

كانوا أميل من البصريين إلى فهم الطبيعة اللغوية، وإدراك أن القضايا النّحويّة سبيلهـــا السّماع والاستقراء لا الإمعان المنطقي في القياس، فلا يزال الكوفي يخضع في أحكامه لذوقه الطبيعي متحررا من قيود الاطرّاد الذي شغف به البصريون، وهو يرى أن اعتدادهم بالمثال الواحد وقياسهـــــــم عليه شيء مبرّر، لأن ما هو في نظر البصري شاذ خارج عن الأصول يمثل لهجة بعينها يجب أن يحسب حسابها، فالمثال الذي سمعه النحوي من أعرابي أو أعرابية ينبغي أن يُنظر إليه على أنه لهجة لغويّة تحتلّ مكانها بين البيئات اللغويّة المختلفة، وفي إهدارها إهدار لهذه البيئة ،ومَضْيَعة لجانب لغوي لا تتمّ الدّراسة إلا بالإحاطة به.

كما أنّ الكوفيّ لا يرمي المسموع بالخطأ والشذوذ أو يذهب إلى التأويل البعيد، بل يتقبله إن سمعه ممّن يثق بهم، ثم يعيد النّظر في أصوله التي توصّل إليها ليطمئن إلى تمثيل اللغة في النحو تمثيلاً صادقاً، وإذا اتسع الكوفيون في الرواية وجعلوها مصدر قواعدهم الأوّل ،وقاسوا على كلّ تعبير صحّت روايته كان نحوهم أوفر حظّا في تمثيل اللغة العربية ولهجاتها المختلفة، ومذهبهم أقرب إلى تصوير العربية تصويرا صادقا حقيقيا، وهكذا خلص المخزومي إلى أن منهج الكوفيين قريب الشبه ممّا ينادي به أصحاب الدرس الحديث.[32] ص:378-379 .

وبهذا نخلص إلى أنّ المنهج الكوفي هو منهج وصفي استقرائي بعيدٌ كلَّ البعد عن التعليل الفلسفي، يستنبط القواعد مما سُمِع عن العرب، مع احترام كلِّ ما صدر عنهم ، وهو بهذا يمثل اللغة بكل لهجاتها المختلفة، وهذا ما يتماشى مع الدراسات اللغوية الحديثة.

الفصل الثاني: الدراسة الصوتية

تمهـــيـــد:

لقد أدرك علماء العرب أهمية الحفاظ على اللغة العربية الفصحى عامة ،وعلى أصواتها بوجه خاص، وذلك لعلاقتها الوشيجة و القوية في الحفاظ على تجويد القرآن و تلاوته غضاً نديًّا ، كما أقرأه جبريل -عليه السلام- لرسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلم- ولهذا تميزت الدراسات الصوتية العربية بالدقة و العمق ، لأن الهدف كان الحفاظ على أصوات اللغة العربية باعتبارها البنية الأساسية في البناء الهيكلي العام لهذه اللغة الشريفة .

و الكوفيون في ذلك شأنهم شأن باقي العلماء من مختلف الأمصار ، حيث تناولوا القضايا و المسائل الصوتية في ثنايا دراساتهم القرآنية ،و الغوية،و النحوية،و لم يفردوا لها مؤلفات خاصة ، لأنها في تلك الفترة لم تكن قد استقلت عن باقي العلوم .حيث اهتموا بمعرفة الأصوات واستكناه قوانينها ، وما يعترضها من إدغام ، وإمالة ، من جراء تجاورها ،بيد أنّه لم يصل إلينا من جهودهم في الصوتيات ، إلا النزر اليسير ، فقد عفا الزمن عليها ، ومعظمه ورد إلينا بلفظ البصريين والمتأخرين .

فما وصلنا من مؤلفات الكوفيين قليل جداً ،إذ ضاعت مصنفاتهم التي عالجت البحث الصوتي أمثال : كتاب "الوقف والابتداء الكبير و الصغير" لأبي جعفر الرؤاسي ، وكتاب ثعلب أيضا فيه والفراء، وفي كتاب الحدود للفراء حدان : "حد الإدغام وحد الهمز" ، ولعل الآراء التي نسبها أبو سعيد السيرافي في رسالته "ما ذكره الكوفيون من الإدغام" منها، وللفراء أيضا "كتاب الواو" ، ولأبي بكر الأنباري : "كتاب الألفات"..[14] ص:96،100،111.

و كتب الكوفيين التي وصلتنا لا تخرج عن كونها كتباً لغوية جُمع فيها مفردات ظواهر لغويـــة بحســـب موضوعاتها : كالمذكر والمؤنث والمقصور والممدود للفراء، ومختصر المذكر والمؤنث للمفضـــل بـــن سلمه ، أو معالجة لحن العامة : ككتاب الكسائي : ما تلحن فيه العامة ،وإصلاح المنطق لابـــن الســـكيت ، والفصيح لثعلب ، والزاهر للأنباري ، والفاخر لابن سلمة ،أو معالجة بعض ظواهر الإبـــدال والأضـــداد: ككتاب الإبدال لابن السكيت، والأضداد لأبي بكر الأنباري ، أو شروح الدواوين: كشـــرح ديـــوان زهيـــر صنعه ثعلب ، وشرح القصائد السبع الطوال لأبي بكر الأنباري .

وقد اشتملت هذه الكتب على جملة من آراء الكوفيين ، إلا أن الكثير منهـا ضـنين بعـرض الجانـب الصوتي ، وبيان جهودهم فيه ، ولولا وصول : معاني القرآن للفرَاء ما أمكننا الاتصال المباشر بجهـودهم في البحث الصوتي.

فقد أحسن ثعلب وصفه حين قال : (لم يعمل أحد قبله مثله ، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه) [14] ص:99، وهو إيماء منه إلى قيمته التاريخية والموضوعية ، لأنه من أوائل الكتب التي درست القراءات درساً مستفيضاً، ونسبتها إلى قارئيها ، فضلا عن اشتمـاله على طائفة من المعالجات النحوية واللغوية و صوتية وصرفية ، وبيان مصطلحاتها .

لهذا سنحاول في فصلنا هذا جمع الآراء الصوتية الكوفية المتناثرة في كتبهم ومـن قـراءة قرائهـا ، وسنركز بشكل خاص على كتاب :"معاني القرآن" للفراء ، و قراءة الكسائي ، باعتبار أنهما إماما مدرسـة الكوفة.

وقبل أن نتحدث عن الدراسات الصوتية عند الكوفيين، يجدر بنا الإشارة إلى المقصود بعلم الأصوات العام .وقد عرفه العديد من العلماء اللغويين القدامى منهم والمحدثين، و قد اخترنا منها تعريف الدكتور رمضان عبد التواب، لأنا ارتأينا فيه التعريف الشافي الوافي لهذا العلم ،حيث يقول: « **هو العلم الذي يدرس الأصوات اللغوية ، من ناحية وصف مخارجها. وكيفية حدوثها وصفاتها المختلفة، التي يتميز بها صوت عن صوت كما يدرس القوانين التي تخضع لها هذه الأصوات في تأثرها بعضها ببعض عند تركيبها في الكلمات و الجمل....»** [29] ص:13.

أي أنه العلم الذي يتناول المستويين : المستوى الفونيتيكي ،و المستوى الفونولوجي، كما سنوضح في فصلنا هذا .

1 .2 .الدراسة الفونيتيكية :

تمهيد:

لقد اختلف الدارسون في تحديدهم لمصطلح "phonetics" ، فقد اعتبره دي سوسير« ذلك الفرع من العلم التاريخي الذي يحلل الأحداث و التغيرات و التطورات عبر السنين »[88] ص:65 ، أي أنه علم تاريخي يبحث في تطور الأصوات .

أما علماء مدرسة براغ – التشيكية- فقد ذهبوا إلى أنّ " phonetics" هو علم أصوات الكلام ، حيث أنّ « وظيفته دراسة الأصوات المنطوقة بالفعل في الكلام ، فينظر في حركات أعضاء النطق وأوضاعها، كما يلاحظ الذبذبات الهوائية الناتجة مباشرة عن هذه الحركات و الأوضاع »[89] ص:76 ، ومعنى ذلك أنه يختص بدراسة ما يحدث في جهاز النطق عند نطق الأصوات ، إذ يقول تروبتسكوي « إنّ الفوناتيك يهتم بما ينطق الإنسان في الحقيقة و الواقع عندما يتكلم، »[90] ص:76 ، فرغم تأثر رواد مدرسة براغ بآراء "دي سوسير" خاصة فيما يخص التمييز بين اللغة و الكلام ، إلاّ أنّ استخدامهم لهذا المصطلح كان على عكس استخدام "دي سوسير" له.

في حين استعمل علماء اللغة في انجلترا و أمريكا مصطلح "phonetics" للدلالة على« العلم الذي يدرس و يحلل و يصنف الأصوات الكلامية من غير إشارة إلى تطورها التاريخي ، وإنما فقط بالإشارة إلى كيفية إنتاجها و انتقالها و استقبالها »[88] ص66 . وهذا هو الاستعمال الذي تعتمده الدراسات الصوتية الحديثة.

أما في الدراسات الصـــوتية العربيـــة فقد ترجمـــه الدكتور" محمد الخولي" إلى : " علم الأصوات ، و الصوتيات" ، في حين أطلق عليه تمام حسان في كتابه "مناهج البحث" :"الأصوات" ، فقد كثرت ترجمات هذا المصطلح و تعددت لاختلاف وجهات النظر بين الدارسين . إلاّ أننا نجـــــــــد الدكتور "كمال بشر " اعتمد التعريب لا الترجمة ، فأطلق عليه "فوناتيك" ، وذلك من أجل الدقة في التعبير ، فقد رفض ترجمته إلى: "علم الأصوات" لأن هذا قد يؤدي إلى الالتباس عند مقابلته "بالفنولوجيا ".

كما رفض ترجمته إلى "علم الأصوات العام " لأنّ هذه الصورة ترجــمة لمصطــلح إنجليزي آخر؛ ألا و هو "general phonetics" [89] ص:65-66. ونحن نوافق كمال بشر فيما ذهب إليه ،

لذلك عنونا هذا المبحث بالدراسة الفونيتيكية ، و الذي سنتناول فيه دراسة الأصوات مفردة من حيث مخارجها وصفاتها عند الكوفيين و المحدثين .

1.1.2.حروف العربية و مخارجها و صفاتها عند الكوفيين:

استخدم علماء العربية القدامى مصطلح الحرف للدلالة على الصوت اللغوي، إذ أن الحرف و الصوت اللغوي عندهم شيء واحد ، كما اختلفوا في تحديد عدد هذه الحروف و مخارجها ، لأنهم اعتمدوا في دراستهم على الملاحظة الذاتية ، حيث لم تتوفر لديهم الأجهزة و الآلات المتاحة في عصرنا هذا ، و رغم ذلك فقد توصلوا إلى نتائج في غاية الدقة ، لذلك يعتبر العرب من أسبق الشعوب في الدراسات الصوتية ، لأن التاريخ لم يسجل عن أي أمة درست أصواتها بمثل تلك الدقة.

1.1.1.2 . تعريف الحرف:

لغـــــــة: طرف الشيء، وغاية كل شيء طرفه، ويقول ابن منظور:«الحرف من حروف الهجاء: معروف واحـــــد حروف التّهجيّ ، و الحــــــرف الأداة التي تسمّى الرابطة لأنها تربط الاســـم بالاسم، و الفعل بالفعل كعن وعلى و نحوها »[65] 41/9 .

اصطلاحاً: يعرفه ابن سينا بقوله: «هو هيئة للصوت عارضة له، يتّميز بها عن صوت آخر مثله في الحدّة و الثقل تميّزاً في المسموع»[91] ص:08.

أما الفرّاء فقد عرفه« بأنّه صوت معتمد على مقطع محقّق أو مقدّر من مقاطع الحلق و اللسان والشفة » [92] 27/1. ولعل الفراء يقصد بقوله "صوت معتمد على مقطع" أن المتكلم يبذل جهداً في الضغط على عضوي النطق ، و تكييفهما بكيفية خاصة ليكونا بالصورة اللازمة لإبراز الحرف ، وذلك إما بغلق أو تضييق المسافة بين عضوين من أعضاء النطق .كأن يلتقي وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى عند النطق بالشين و الجيم،وكذا التقاء الشفتين عند النطق بالميم والباء... ونحو ذلك.

لهذا نجد ابن جني يقول:«إن الصوت يعرض له في الحلق و الفم مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً»[93] 06/1 .

ومعنى "المقطع المحقق" الذي ذكره الفراء:أن يكون للحرف مكانٌ ينتهي تكوينه عنده و يبرز منه، وذلك يكون في جزء معين من أجزاء الحلق و اللسان و الشفتين، وهكذا يظهر الحرف في منطقة معينة من مناطق الحلق، أو في أقصى اللسان أو وسطه أو أوله أو حافته، أو في الشفتين.

أما " المقطع المقدر" فهو الذي يكون مع حروف المد، و الحركات؛ لأن حروف المد و الحركات - عندهم – لا يوجد مكان معين يحس فيه الناطق بضغط أو تضييق لعضوي النطق، لأن حروف المد يتسع معها مجرى الهواء مما لا يسمح بضغط للصوت و لا حصر له، فهذه الحروف عند القدماء تقع في الجوف.

وقد ذكر الفراء مصطلح " الحرف" - في كتابه – في مواضع شتى مثل:

جدول رقم 02: نماذج من مواضع استخدام مصطلح الحرف في كتاب "معاني القرآن" للفراء

النموذج	الجزء	الصفحة
-(وكذلك يفعلون بها إذا اتصلت بحرف مكسور مثل"بِهِم"و"بِهُم")	1	05
-(تقول:اتّبعتُ أمّه..أذا كان ما قبلها حرفاً مجزوماً لم يكن في الأم إلا ضم الألف	1	06
-(الهجاء...إنما هو كلام جزمه نيَّة الوقوف على كل حرف منه)	1	09
-(وإذا كان الهجاء أوّل سورة فكان حرفاً واحداً؛مثل قوله"ص" و"ن"و"ق")	1	10
....		
-(وفي حرف ابن مسعود.......)	1	16
-(و هي في حرف عبد الله....)	1	26-28
-(و في حرف عبد الله......)	3	11
....		

ففي الأمثلة الأولى استخدم الفرّاء مصطلح الحرف للدلالة على حروف الهجاء .

أما في المجموعة الثانية، نحـــو قوله: " في حرف ابن مسعود " لعله يقصـــد به ما قصده صلى الله عليـــه و سلم من "الحرف".و لقد ذهب الدارسون في تخريج معنى الحرف الذي ذكره صلى الله عليه

و سلم في قوله: (أقرأني جبريل على حرف فراجعته ، ثم لم أزل أستزيده فيزيدني، حتى انتهى على سبعة أحرف) [08] 226/3.

فمنهم من قال إنّه المشكل الذي لا يُدْرَى معناه؛ لأن العرب تسَّمي الكلمة المنظومة حَرْفاً ، و تسمي القصيدة بأسرها كلمة،والحرف يقع على المقطوع من الحروف المعجمة،والحرف أيضاً المعنى و الوجهة، و لهذا ذهبوا إلى أن سبعة أحرف تعني سبعة أوجه.

وذهب بعضهم إلى أن المراد به القراءة ، و هذا ما ذهب إليه الخليل بن أحمد الفراهدي.

أما الرأي الثالث: فيرى بأنها سبعة أنواع ، كل نوع منها جزء من أجزاء القرآن ، بخلاف غيره من أنحائه ، فبعضها أمر و نهي، و وعد ووعيد، و قصص، و حلال و حرام ، ومحكم و متشابه، و أمثال ، و غيره.

و الرابع: يرى أن المراد سبع لغات لسبع قبائل ، أي نزل على سبع لغات متفرقة في القرآن ، فبعضه نزل بلغة قريش ، و بعضه بلغة هذيل ، و بعضه بلغة تميم، وبعضه بلغة أزد ، و ربيعة، وبعضه بلغة هوازن و سعد بن بكر ، وكذلك سائر اللغات؛و معانيها في هذا كله واحدة.

و الخامس: ذهب إلى أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتفقة، بالألفاظ المختلفة، نحو: أقبل، وهلّم، وتعالَ، وعجّل، و أسرع، وأنْظِر، وأخِّر ، وأمهل نحوه.

السادس: ذلك راجع لبعض الآيات، مثل:(**أُفٍّ لَكُمْ**) [سورة الأنبياء:67] ؛ فهذا على سبعة أوجه بالنصب و الجرّ و الرفع؛و كلٌّ وجه،التنوين و غيره، وسابعها الجزم.

وغيرها من الآراء[16] 211/1-226) .

و لكننا نرجح أن الفرّاء قصد بـــ"الحرف" القراءة .

2.1.1.2 .أصالة الحروف وفرعيتها :

كانت اللغة تؤخذ عن طريق السمـــاع والمشافهة،و كان اللغوي يتمعن ما يسمـــع من الأصـــوات لبيان مطابقتها اللغـــة الفصحى ، أو مخالفتها ، لذلك عمد البصريون إلى تقسيم الحروف إلـــى : أصـــلية وفرعية ، وعدوا حروف المباني - والتي تسمى حروف المعجم أيضا - الحروف الأصـــول ، وقســـموا الفرعية قسمين :

- مستحسنة : يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار ،وهي : النون الخفيفة ، والهمزة التـــي بين بين ، والألف الممالة إمالة شديدة ،والشين التي كالجيم ، والصاد التي كالزاي، وألـــف التفخـــيم المسموعة في الحجاز في قولهم : الصلاة والزكاة والحياة .
- غير مستحسنة:لا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر وهي ثمانية حروف:الكـــاف التـــي بـــين الجيم و الكاف، و الجيم التي كالكاف،و الجيم التي كالشين،والضاد الضعيفة،و الصاد التي كالســـين ، و الطاء التي كالتاء،و الظاء التي كالثاء،و الباء التي كالفاء.

فيكون مجموع الحروف عند عدّ الأصلية تسعة وعشرين حرفاً اثنين وأربعين جيـــدها و رديئهـــا [15] 432/1 ، ولكننا عند عدها نجد ثلاثة و أربعين حرفاً ، فلعل سيبويه ذكر حرفين واعتبرهما صوتاً واحداً، وأغلب الظن أنهما :الكاف التي بين الجيم و الكاف، و الجيم التي كالكاف.

ولا يخرج الحرف الفرعي عن كونه من لغات القبائل مثل : همزة بين بين ، وألف الإمالة ، والألـــف المفخمة ، أو بسبب مجاورة حرف لحرف آخر مثل: الصاد المسموعة كالزاي ، لمجاورة الصاد المهموس في نحو (مصدر) حرف الدال المجهور ، أو لكنة أعجمية من نحو: تغيير الطاء تاء ، والتاء حرف شـــديد مهموس ولا فرق بينه وبين الطاء سوى اتخاذ اللسان شكله المقعر المنطبق على الحنك الأعلى ، ورجوعه إلى الوراء قليلاً لذلك عدّ من حروف الإطباق[28] ص:61-62 .

ولسنا نملك شيئاً ذا بال عن تقسيمات الكوفيين للحروف مثل التي وجدناها عند البصـــريين ، ولـــيس بالبعيد معرفتهم بها ففي الكوفة وباديتها قبائل أسد وتميم ، ونزل عند تمصيرها – كما مر سابقاً – قوم من عرب اليمن فضلاً عن وجود أقوام آخرين من النبط والسريان ..و غيرهم ، وفي ألسنة هؤلاء ما يستحسن من الحروف وما يستقبح ، لذا فمن المؤكد أن الكوفيين لم يجهلوا " الألف الممالة " ، كما أننا أشرنا سابقاً

أنّ الكسائي أخذ علمه من بوادي نجد وتهامة والحجاز وما نحسبه جهل " الألف المفخمة " المسموعة في الحجاز ، وما تطرقنا إليه هنا – على سبيل التمثيل – يمكننا قوله عن الحروف الأخرى .

ذهب معظم الدارسين المحدثين إلى أنّ عدد الحروف الأصول عند الفراء ثمانية و عشرون حرفاً، مستدلِّين على ذلك بقوله :« ا ب ت ث ثمانية وعشرون حرفاً ،(...) فإن قلت :إن ألف ب ت ث قد صارت كالاسم لحروف الهجاء »[48] 368/1،وهو رأي لم نجده عند كوفيين آخرين ، أما عددها عند سيبويه والخليل – فيما نقل الليث - فهو تسعة وعشرون حرفاً [54] 50/1 ، ويعزي إلى الزجاج والمبرد أنها ثمانية وعشرين حرفاً [94]1 /192.

ولقد تعقب ابن جني الرأي المعزو للمبرد وردَّه ،حيث قال :« أن جميع هذه الحروف إنما وجب إثباتها ، واعتدادها لما كانت موجودة في اللفظ الذي قبل الخط ، والهمزة موجودة في اللفظ كالهاء والقاف وغيرها فسبيلها أن تعد حرفاً »[93] 192/1، والحق أن المبرد لم يسقط الهمزة ، لأنه عدّ الهمزة من مخرج أقصى الحلق كما ذكرنا سابقا .

لم يصرح الفراء بالحرف الساقط، وهذا ما يؤدي بنا إلى التساؤل عما إذا كان الألف أو الهمزة .إذ نجده يقول:" نصب الألف من (أشهدوا) عاصم ، و الأعمش، ورفعها أهل الحجاز"[48] 329/2

فالهمزة و الألف عند الفراء شيء واحد ، لأنه في البداية يقول الالف ثم يقول الهمزة و كأنهما شيء واحد.

ولا يؤيد المحدثون هذا الرأي . فما أبعد الهمزة عن الألف فالهمزة صوت حنجري ، والألف صوت لين ومد كما سنوضح لاحقا.

وإنما دعا علماء المصرين : البصرة والكوفة إلى هذا لاتفاق الرسمي الكتابي بينهما ، وجرهم إلى التسامح في تسمية كل منهما باسم الآخر كالحاصل عند الخليل الذي سمى همزة الوصل ألف الوصل وسمى سيبويه همزة أكلت وأخذت ألفا[94]203/1 .وهي همزة ،وهمزة أكفل وإيداع آلفا أيضا ، كما سمى المبرد همزة الاستفهام ألف الاستفهام ، وشأن الكوفيين في ذلك شأن البصريين ، فقد قال الكسائي : قد شغلني فلان عن عملي وشغلته بغير ألف أراد الهمزة . وقال مشيت حتى أعييت بالألف وارد أيضا . عند الفراء وثعلب .

ولذلك فالحروف الأصلية عند الفراء تسعة وعشرون . أما إشارته إلى كونها ثمانية وعشرين فشبهة، يقول المبرد إن الهمزة لا صورة لها ، وأراد – كما قدمنا – رسمها الكتابي ، وكل هؤلاء بصريون وكوفيون متأثرون برأي الخليل الذي لاحظ اختلاف رسم الهمزة ألفا ، وواواً وياء فقال باعتلاله ، إنما رسمت واواً على لغة أهل الحجاز في التخفيف [93]41/1.

أما الهمزة (بين بين) التي عرفها علماء المصرين : البصرة والكوفة ففي حركتها خلاف بينهم فالبصريون يرون أنها متحركة والكوفيون – كما نقل ابن الأنباري في الإنصاف– رأوا أنها ساكنة ، ويُستفاد مما أورد أبو القاسم الزجاجي ، أنها لا ساكنة ولا متحركة عند ثعلب ، ولم أجد للرأيين ذكراً في مصادر الكوفيين المطبوعة ، ونقل ابن الأنباري أن الكوفيين – عدا ثعلباً كما أوردت – عدوها ساكنة لعدم إمكان وقوعها مبتدئة ، لأنها لو كانت متحركة على رأي البصريين ، لجاز الابتداء بها ، فلما امتنع ذلك دل على أنها ساكنة ، لأن الساكن لا يبتدئ به، واستدل البصريون على حركتها بوقوعها مخففة في الشعر ، وساقوا بيتاً للأعشى [15]47/1 ، بحيث لو اجتمع ساكنان لانكسر وزن البيت ، ولتعذر اجتماع همزتين في شيء من كلام العرب إلا في بيت واحد انشده قطرب.

والكوفيون يجيزون اجتماع همزتين ، وفي القراءة الكوفية : (أئمة) قرأ بذلك عاصم وحمزة و الكسائي وقرأ بذلك ابن عامر ، وكان ابن أبي اسحق يحقق الهمزتين في (أناس) وليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا ، وبنو تميم يخففون الهمزة الثانية عند اجتماعهما .

همزة الوصل:

سمى البصريون همزة الوصل : ألف الوصل والألف الموصولة [13] ص:491، وبالاسم الأول عند الكوفيين ووصفها سيبويه فقال : وهي زائدة قدمت لإسكان أول الحروف فلم تصل إلى أن نبتدئ بساكن ، فقدمت الزيادة متحركة لتصل إلى التكلم والزيادة هاهنا الألف الموصولة وأكثر ما تكون في الأفعال[15] 144/1 ، وهي عند البصريين – عدا قطرباً والأخفش – همزة ليست بألف .

وهي كذلك عند الكسائي والفراء من الكوفيين ، ولم أجده في كتب الكوفيين . وثمة اتفاق بين علماء البصرة والكوفة في هذه (الهمزة) واختلاف ، أما الاتفاق : فكونها زائدة متحركة ، وذهبت طائفة من البصريين والكوفيين -فيما ذكر ابن الأنباري - إلى سكون أصلها كأنهم عدّوها ألفا لا حركة لها ، ثم تحركت، فصارت همزة أو الالتقاء الساكنين كما ذهب إليه بعض الكوفيين ممن لم يسهم ابن الأنباري.

أما الاختلاف ، ففي أمور ثلاثة :

أ- سبب تسميتها مهمزة الوصل ، أو ألف الوصل.

ب- نوع حركتها عند من يراها متحركة .

ج- جواز نقل حركة هذه الهمزة الى الساكن قبلها ، وعدمه.

أما سبب تسميتها بهمزة الوصل ، فقد عزا الأشموني إلى الكوفيين أنها سميت بذلك اتساعاً ولم أجده في المطبوع من كتبهم – وهي عند البصريين ليوصل بها إلى كلام بما بعدها [77] 739/2.

ولأن الفريقين – إلا طائفة – اتفقتا على حركة هذه (الهمزة) ، فقد ذهب الكوفيون أنها حركت للإتباع، فهي مكسورة إتباعا لكسرة العين في نحو : اضرب ، وضمت في نحو : ادخل : إتباعا لضمة العين ، ولم تتبع في المفتوح لئلا يلتبس الأمر بالخبر ومن ذهب من الكوفيين إلى كونها ساكنة ، فقد رأي أن زيادتها توجب تحريك الهمزة لالتقاء الساكنين ، لئلا يؤدي إلى الابتداء بالساكن وقد تبين لي انه رأي الأخفش أيضا.

أما البصريون فأنكروا الإتباع في حالتي كسر العين – كما رأي الكوفيين – بحجة عدم اطراده، لأنه جاء في ألفاظ معدودة ، وأوجبوا في حركتها الكسرة : لأنها زيدت على حرف ساكن فكان الكسر أولى من غيره ، لان مصاحبتها لساكن أكثر من غيره ، وإنه الأكثر في التقاء الساكنين ، وإنما فتحت في بعض المواضع تخفيفاً وضمت في بعضها إتباعا.

- وأجاز الكوفيون – كما نقل ابن الأنباري – نقل حركة همزة الوصل إلى الساكن قبلها ، ولم يجزه البصريون ، وأجمع علماء البصرة والكوفة على جواز نقل همزة القطع إلى الساكن قبلها . واعتمد الكوفيون في إثبات حجتهم على القياس والنقل فلأنها همزة متحركة لذلك أجازوا نقل حركتها إلى الساكن قبلها كهمزة القطع في نحو قولهم : من أبوك ؟ وكم أب لك؟ واعتمدوا في النقل على قراءة لأبي جعفر يزيد بن القعقاع المدني ، ولعلي بن حمزة الكسائي ، وأولَّ البصريون هذه القراءات وضعفوها بحجة كونها ضعيفة في القياس قليلة في الاستعمال .

و لجأوا إلى المنطق في دحض خصومهم الكوفيين بحجة أن هذه الهمزة تسقط في الوصل ، فلا يصح أن يقال إن حركتها تنقل إلى ما قبلها لأن نقل حركة معدومة لا يتصور . والمحدثون مع رأي الكوفيين

في أن همزة الوصل حركت للإتباع والمجانسة ، لأنها بحسب رأيهم صويت وليست بهمزة قطع لأنها فـــي مثل هذه الحال تنقض الأساس الذي ابتغوه فيها : وهو عدم جواز البدء بالساكن إنما لجأ إليـــه المتكلمـــون العرب – يعنون هذا الصويت – في حقبة تاريخية من الزمن لتسهيل عملية النطق بالساكن ، لذلك جـــيء به لتصحيح بناء المقطع العربي ، ولاحظوا قلة وروده في اللغات [77] 738/2-744.

و لقد أيد المحدثون رأي الكوفيين في أن همزة الوصل حرّكت للإتباع و المجانسة.

3.1.1.2 . مخارج الحروف :

يعتبر موضوع مخارج الأصوات من أهم مباحث علم الأصوات ، ولقد حظي بعناية القدماء واهتمامهم ، وقد اختلفوا في عدد مخارج أصوات العربية ، وذهب كلٌ منهم مذهبا معيناً إذ اعتمدوا في تحديدها على الملاحظة الذاتية . فما هو المخرج ؟ و ما هي عدد المخارج عند الكوفيين ؟

1.1.3.1.2. تعريف المخرج:

لغـــة : هو محل الخروج، نقول خرج يخرج ومخرجا ، فهو خارج قال الجوهري : قد يكون المخرج موضع الخروج ، يقال مخرجا حسنا وهذا مخرجه [65] 149/2. ومنه فإنّ المخرج هو موضع الخروج.

المعنى الاصطلاحي : هو الطريق أو المنفذ الذي يتسرب منه النفس إلى الخارج ومكان اتصال العضوين لإصدار الصوت، و منه فإن مخرج الحرف هو الموضع الذي ينشأ منه ، فهو: " محلّ الخروج و موضع ظهور الصوت ، وتميزه عن غيره ،إذ ان المخرج نقطة يحدث فيها حبس الهواء، أو تضييق مخرجه، بحيث يحدث الصوت الذي نسمعه" [95] ص:48

و قد استعمل الفراء هذا المصطلح في كتابه ،نحو قوله **:**" لتقارب المخارج" [48] 384/2 ، وقوله : "وذلك أنها قريبة المخرج منها"[48] 353/2 ، وهو مصطلح سيبويه أيضا إلى جانب مصطلح الموضع [15] 453/4-479.، وآثر الخليل مصطلح الحيز للدلالة على ما هو أعم من المخرج على نحو ما نجده عند سيبويه الحروف المرتفعة حيز واحد[15] 101/4.

و هذ ما ذهب إليه المبرد.

2.3.1.1.2. عدد المخارج عند الفراء:

لقد خصصنا دراسة المخارج عند الفراء دون الكوفيين لأننا لم تتجد فيما اطلعنا عليه من كتبهم من تناول مخارج الحروف قبله.

فقد عُزي إلى الفراء ، وطائفة من البصريين أمثال : المبرد و قطرب وابن دريد والجرمي وابن كيسان أن عدد المخارج أربعة عشر مخرجاً إذا أخرجنا النون الخيشومية .

فما هي المخارج التي أسقطها الفراء ؟ يذهب أنصار هذا الرأي إلى أنه جمع " اللم و النون و الـراء " في مخرج واحد ، و هو طرف اللسان في حين أن سيبويه جعلها في ثلاثة مخارج [96] ص:85.

وعلى اعتبار أن مخارج الحروف عند سيبويه ستت عشر مخرجا ، فإن عدد المخارج عند الفراء يكـون أربعة عشر مخرجا.

ولكننا نجد في معاني القرآن للفراء ما ينقض ذلك ، إذ يقول الفراء في كتابه :(العرب تدغم اللام عنـد النون إذا سكنت اللام و تحركت النون ، وذلك أنها قريبة المخرج منها) [48] 353/2.، و منه فإن قـول الفراء قريبة المخرج منها تصريح منه بأنها ليست من مخرجها .

أما الرضي فيرى أن الفراء خالف سيبويه في موضعين : (أحدهما أنه جعل مخـرج اليـاء و الـواو واحدا..وأنه جعل مخرج الياء و الواو واحدا، و الأخر أنه جعل الفاء و الميم بين الشفتين) [97] 3 /254

وذهب مهدي المخزومي إلى أن (ترتيبها عنده هو ترتيبها عند سيبويه كما جاء فـي كتابـه، إلا أنـه خالفه في شيئين اثنين: - أنّه جعل مخرج الياء و الواو واحدا.. – و أنه جعل مخرج الفاء و المـيم بـين الشفتين..) [32] ص:169-170.

و لعل ما دفعهما إلى ذلك ما نقله السيرافي عن الفراء أنه قال: " و الياء و الواو أختان ، وإنما تآختا كلّ التآخي ، لأنّ مخرجهما من حروف الفم ، لا يلتقي بهما موضع من الفم كما يلتقي مع غيره" [98] ص:38

وهو بهذا يذهب مذهب الخليل الذي كان يرى أنّ الياء و الواو و الألف و الهمزة هوائية في حيِّـز واحـد وهو الجوف [13] 58/1.

و كذلك الأمر بالنسبة إلى لمخرج الفاء إذ يقول : (و أبعد الحروف من الحاء و أخواتها ، الباء و الميم و الفاء، و ذلك أن الفاء و أختيها من الشفتين مخارجهن، فهن الغاية في البعد من الحاء و أخواتها) " [98] ص: 39. إذ يوافق الخليل في هذا.

ومن هذه الآراء نستنتج أن الفراء اعتمد في ترتيبه المخارج على سيبويه [15] 4/433-434 ، ولكنه خالفه في بعض الحروف ، ولهذا يمكننا القول أنه رتبها كما يلي:

1- من أقصى الحلق: الهمزة و الهاء.
2- من وسط الحلق: العين و الحاء.
3- من أدنى الحلق إلى الفم: الغين و الخاء.
4- من أقصى اللسان و ما فوقه من الحنك الأعلى : القاف.
5- من أسفل موضع القاف من اللسان قليلاً ، و مما يليه من الحنك الأعلى : الكاف.
6- من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى : الجيم و الشين.
7- من بين أول حافة اللسان ، وما يليها من الأضراس: الضاد.
8- من حافة اللسان من آخرها إلى منتهى طرف اللسان ، و ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الثنايا مخرج: اللام.
9- من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ،و ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فوق الثنايا : النون.
10- من مخرج النون ، غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام : الراء.
11- مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا : الزاي و السين و الصاد.
12- مما بين طرف اللسان و أصول الثنايا : الطاء و الدال و التاء، إذ يقول :" الطاء و الدال يدغمان عند التاء... تخرج الطاء في لفظ التاء ، و هو أقرب إلى التاء من الحرف الأول ، تجد ذلك إذا امتحنت مخرجيهما " [48] 1/172.
13- مما بين طرف اللسان و أطراف الثنايا مخرج: الظاء و الذال و الثاء، حيث يقول: "الثاء و الذال مخرجهما ثقيل...ألا ترى أن مخرجهما من طرف اللسان " [48] 1/172.

أما بالنسبة للياء و الواو فإنه لا يلتقي بها موضع في الفم .

و بهذا يمكننا القول إن عدد مخارج الحروف المحققة عند الفراء إذا استثنينا مخرج النون الخفيفة لأنه لا يعتبر من الحروف الأصول هو أربعة عشر مخرجاً.

و قول الفراء عن الياء و الواو أنهما أختان دون أن يتطرق إلى الألف ، إن دلّ على شيء إنما يدل على أنه أدرك الفرق بين الواو و الياء في مثل : بيت و قوم ، فهي حروف مثلها مثل الباء و التاء ، ويطلق عليها حروف اللين فقط، وبين الواو و الياء في مثل :"أبيع و أقول" و التي تعتبر حروف مدٍّ و لين بالإضافة إلى الألف . ولقد وضع المحدثون ذلك و فصلوا بينها .

مخارج الحركات:

كما حاول الفراء تحديد مخارج الحركات الثلاث حيث يقول:(إنما يستثقل الضم و الكسر لأن لمخرجيهما مؤونة على اللسان و الشفتين ، تنضم الرفعة بهما فيثقل الضّمة و يمال أحد الشدقين إلى الكسرة فترى

ذلك ثقيلاً .و الفتحة تخرج من خرق الفم بلا كلفة) [48] 13/2 . من هذا القول نستنتج أن :

- **الضمة:** من الحركات القصيرة، وهي مأخوذة من الضم أو الرفع ،لذلك استخدم الفراء مصطلح"الرفعة" و قد استخدم هذا المصطلح سيبويه للدلالة على الضمة ، حيث يقول (و غنما حملهم على هذا انهم أنزلوا الرفعة التي في قولك :"زيدٌ بمنزلة الرفعة في راء" امرؤ" ، وأما إذا كانت علامة بناء فلا تسمى إلا الضمة) [15] 204/2.

و خروجها عند الفراء مرتبط باللسان و الشفتين، حيث تكون هناك مؤونة على اللسان، ولعل تسميتها بالرفعة لارتفاع اللسان عند النطق بها نحو الحنك الأعلى ، ولكنه لم يحدد أي جزء منه.

كما تكون الشفتان في حالة ضم.

- **الكسرة :** هي علامة الجر أو الخفض كما اصطلح عليه الكوفيون ، وقد ذكر الفراء أن الكسرة مثلها مثل الضمة من حيث دور اللسان في إنتاجها ، ولم يحدد أيضاً أي جزء من اللسان.

أما بالنسبة لوضع الشفتين فيمال أحد الشدقين عند النطق بها ، ولعل اصطلاح الكوفيين بالخفض للدلالة عليها إنما كان لوعيهم بانخفاض الشفتين عند نطقها .

- **الفتحة:** مأخوذة من الفتح و النصب، يرى الفراء أنها تخرج من خرق الفم بلا كلفة، بمعنى أن اللسان يكون فيها في وضع راحة ، أي أنه يكون في قاع الفم ، وكذلك الأمر بالنسبة للشفتين، حيث

لا يحدث فيها ضم أو إمالة، أي تكون في وضع راحة. ولعلها سميت بالفتحة لانفتاح الشــفتين عنــد النطق بها .

وبهذا يكون الفراء قد قدم تحديداً دقيقاً لهذه الحركات ، معتمداً فيه على وضع اللســان " جهــد أو راحــة" ووضع الشفتين.

ويمكننا تلخيص مخارج الحرف عند الفراء في المخطط التالي:

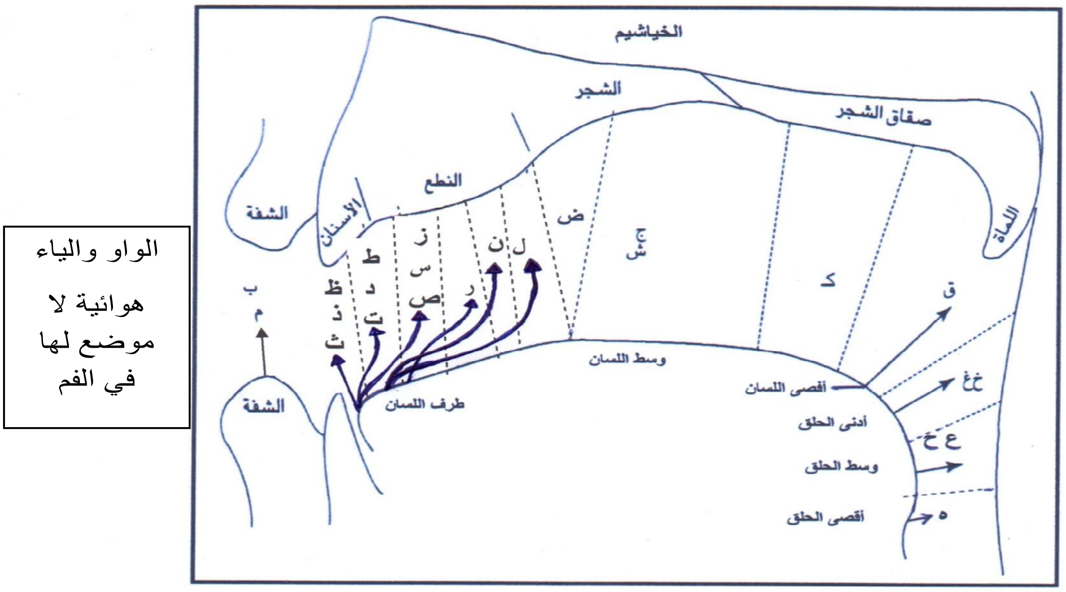

مخارج الحروف عند الفراء

4.1.1.2.صفات الأصوات عند الكوفيين:

أيقن علماء العربية أن تحديد مخرج الصوت لا يكفي لتوضيح خصائصه التي تميزه عن غيره من الأصوات، ذلك أن هناك أصواتاً تشترك في المخرج الواحد ، فكيف يمكن التمييز بينها ؟

أثناء العملية النطقية هناك مجموعة من العناصر تساهم في منح الصوت خصائص مميزت فبالإضافة إلى المخرج هناك جملة من الصفات يمكننا من خلالها التفريق بين الأصوات المشتركة في المخرج مثل: " الذال و الظاء و الثاء". و هذه الصفات هي الجهر و الهمس، الشدة و الرخاوة، التفخيم و الترقيق. بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الصفات و التي تخص بعض الأصوات دون سواها.

والصفة هي: (كيفية عارضة للحرف عند حصوله في المخرج، وتتميز بذلك الحروف المتحدة بعضها عن بعض) [99] ص:43 ، ونستنتج من هذا أن لكل حرف صفات يتميز بها .

وقد حدد سيبويه صفات الأصوات بشكل دقيق مفصل لا نجد مثله عند الكوفيين ، ولكن هذا لا يعني عدم معرفتهم بها ، ولكنهم لم يقدموا لنا دراسة مفصلة عنها . و الأرجح أنهم وافقوا سيبويه في ذلك بالاستثناء ما نقل السيرافي عن الفراء أنه لقب الصوت الشديد بـ" الأخرس" ، الصوت الرخو بـ" المصوت"

1.4.1.1.2.الأخرس و المصوت: لقد استخدم علماء العربية القدماء مصطلحي : الشدة و الرخاوة ، اللذين وضعهما سيبويه ، ولم يؤثر عنهم استخدام مصطلحات أخرى للدلالة عليهما، إلا ما روي عن الفراء أنه كان يلقب الصوت الشديد بالأخرس وذلك في قوله عندما وصف الباء:(الشفتان تنضمان انضمام الأخرس لا صوت له، وضعف الانضمام بالميم ، لأن الصوت من الخيشوم يبقى في الميم مع انضمام الشفتين) [98] ص:43.

ويقول أيضاً :(إنّ تاء افتعل إذا كان فاء الفعل من حروف الإطباق ، إنما قلبت طاء ، لأن التاء أخرص لا يخرج له صوت، إذا بلوت ذلك وجدته، فكرهوا إدغام مصوت في حرف أخرس) [98] ص:43.

وما يمكننا استنتاجه من هذين القولين هو:

- اعتبر الفراء كلاً من" الباء و التاء" صوتاً أخرساً، لأنه لاحظ انغلاق المجرى التنفسي على مستوى

الشفتين عند نطق الباء ،وهي المرحلة الأولى من إنتاج هذا الصوت، لذلك سماه بالأخرس لأنــه شــبهه بالأخرس الذي يتعثر في إخراج الأصوات فكذلك يتعثر الهواء عند نطق هذا الصــوت عــل مســتوى الشفتين، و لكن هذا الصوت لا يتم بهذه المرحلة فقط، وهذا ما سنبينه عند حديثنا عن المحدثين .

و كذلك الأمر بالنسبة للتاء حيث يتم تعثر الهواء عند النطق بها على مستوى مخرجها ، وهذا ما أشار إليه سيبويه في تعريفه الصوت الشديد بأنه (الذي يمنع الصوت أن يجري فيه ، وهو : الهمزة و القــاف و الكاف و الجيم و الطاء و التاء و الدال و الباء) [15] 434/4. و لابدّ من أن الفراء قــد أدرك أن هــذه الأصوات كلها تتميز بصفة الأخرس.

- سمى " الصاد" و"الضاد"و "الطاء" بالصوت المصوت وهو عكس الأخرس، كما يبين في قوله الثــاني عند مقارنتها " بالتاء" ،فإذا كان الأخرس : هو الذي لا يخرج له صوت ،فإن المصوت هــو الــذي يصدر نوعاً من الصفير وذلك نتيجة لاحتكاك الهواء بمخرج الصوت، بحيــث لا يــتم فيــه غلــق المخرج مما يؤدي إلى استمرار خروج الصوت وعدم انقطاعه، لذلك سماه بالمصوت.
- كما لاحظ نوعا آخر لا هو بالأخرس و لا هو بالمصوت ومثله بــ "الميم" حيــث يكــون انضــمام الشفتين فيه ضعيفاً، أي لا يتم المنع على مستواه كما لا يتم استمرار الصوت معــه ، وهــذا النــوع الذي قال عنه سيبوسه أنه بين الشديدة و الرخوة وهي عنده: العين و الميم و النون و الراء والــلام و الألف، و الواو و الياء. [15] 435/4.

2.4.1.1.2 . الجهر و الهمس: لم نجد أي دراسة خاصة لها عند الكوفيين و لعل السبب كما قلنا ســابقاً موافقتهم سيبويه فيما ذهب إليه. و قد جمعت الأصوات المهموسة عند القدماء في قولهم: " ســكت فحثــه شخص" ، وباقي الأصوات هي مجهورة. وما ينبغي الإشارة إليه أن تحديد القدماء لمفهوم الجهر و الهمس فيه نوع من الغموض، حيث يقول سيبويه:(فالمجهورة : حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع الــنفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت ... أما المهموس فحرف أضــعف الاعتمــاد فــي موضعه حتى جرى النفس معه..) . [15] 435/4 . وهذا يؤدي إلى نوع من الارتبــاك خاصــة عنــد مقارنتها بالشديدة و الرخوة، و لعل السبب في ذلك عدم إدراك القدماء للأوتار الصوتية، فالمجهورة يــتم منع النفس فيها على مستوى الأوتار الصوتية، أما الشديدة فيتم المنع على مستوى مخرج الصوت.

3.4.1.1.2. الإطباق و الإنفتاح: تحدث الفراء عن صفة الإطباق في المثال الذي ذكرناه سابقً: (إن تاء افتعل إذا كان فاء الفعل من حروف الإطباق إنما قلبت طاءً ، لأن التاء أخرس لا يخرج له صوت ،

إذا بلوت ذلك وجدته، فكرهوا إدغام المصوت في حرف أخرس) [98] ص:43.

و حروف الإطباق هي : الطاء و الصاد و الضاد الظاء، وقد سميت بذلك لارتفاع اللسان عند النطق بها إلى الحنك الأعلى و انطباقه عليه، و تتميز باقي الحروف بصفة الانفتاح و هي عكس الإطباق .

4.4.1.1.2. التفخيم و الترقيق: التفخيم هو:" اعتدال الصوت و تقريبه من بعضه البعض حتى يربو الحرف و يغلظ" [100] ص:67.

و يرادف التفخيم التغليظ ، و لكنهم يستعملون التفخيم مع الراء و التغليظ مع اللام ، و حروف التفخيم هي حروف الاستعلاء: القاف و الظاء و الخاء و الصاد و الضاد و الغين و الطاء.

أما باقي الحروف المستفعلة ترقق إلا اللام و الراء و الألف فإنها تفخم في مواضع معينة.

و هناك مجموعة من الصفات الأخري التي تناولها القدماء و التي تشترك فيها مجموعة من الأصوات و منها

الغنة: لقد كان الكسائي من القراء لهذا كان على دراية بهذه الصفة، كما أدرك الفراء دور الخيشوم في إنتاج صوت الميم ، حيث يرى أنّ " ضَعف الانضمام بالميم ، لأن الصوت من الخيشوم يبقى في الميم مع انضمام الشفتين "[98] ص:43، فالغنة إذن تكون في الصوت الذي يخرج من الخيشوم ، وتكون في الميم و النون.

الصفير: " إنما سُميت بحروف الصفير لصوت يخرج معها عند النطق بها يشبه الصفير"[98] ص:65 ، و خصَّ القدماء هذه الصفة في ثلاثة حروف ،وهي :الصاد و السين و الزاي.

القلقلة: وهي عند جمهور العلماء تخص خمسة أصوات جمعت في قولهم" قطب جد" ، فهي تجمع الأصوات الشديدة و المجهورة عندهم.

وقد يتساءل الدارس لما قدمنا مفاهيم سيبويه لهذه الصفات ، في حين أننا ندرس صفات الأصوات عند الكوفيين ،وجوابنا على ذلك أن الكوفيين لم يقدما تحديداً لهذه الصفات لأنهم على أغلب الظن وافقوا سيبويه و البصريين فيها لا لأنهم كانوا يجهلونها .

و الجديد الذي أتى به الكوفيون في هذا المجال أنهم أطلقوا على الصوت الشديد " الصوت الأخرس" ، وعلى الصوت الرخو" الصوت المصوت" .

2.1.2. مخارج الأصوات وصفاتها عند المحدثين

تمهيـــــــــــد:

لقد أشرنا سابقا إلى أنّ القدماء كانوا يستخدمون الحرف بمعنى الصّوت ، أمّا المحدثون فيرون أنّ الصّوت يمثّل الجانب النطقي الحركي ،أما الحرف فهو الرّمز الكتابي للصوت المنطوق حيث يقول تمام حسان :

«الحروف وحداتٌ من نظام، وهذه الوحدات أقسامٌ ذهنيةٌ لا أعمالٌ نطقية على نحو ما تكون الأصواتُ، والفرق واضحٌ بين العمل الحركي الذي للصوتِ وبين الإدراك الذهني الذي للحرف، أي بين ما هو مادِيٌّ محسوس وبين ما هو معنويٌّ مفهوم »[101] ص:73.

ومنه فإن الصوت هو عمل نطقي أي شيء مادي محسوس ،أمّا الحرف فهو يمثّل الجانب الذهني الإدراكي فهو شيء معنوي، وهذا ما ذهب إليه داود عبده حيث يقول:«ذلك أنّ الصوت اللغوي شيءٌ والحرف الذي هو مجرّد رمزٍ كتابي لهذا الصوت شيء آخر»[95]ص:96.

وبهذا نخلص إلى أنّ المحدثين كانوا أكثر دقة ووضوحاً في تحديد مصطلح الصوت والحرف والتمييز بينهما، إذ اعتبروا الحرف الرمزَ الكتابي للصوت المنطوق .

1.2.1.2.أصناف الأصوات:

قسم الأصواتيون المحدثون الأصوات اللغوية حسب درجة الانفتاح في أعضاء النطق عند إنتاجها كما يلي:

1.1.2.1.2 .القسم الأول :

هذا القسم لا يحدث احتكاكاً مسموعاً في مخرج الصوت، إذ يحدث عند النطق به اعتراض محدود على مجرى الهواء، مع اهتزاز في الوترين الصوتيين، ليمر الهواء حراً من خلال الحلق والفم .

فهو «الصوت المجهور الذي يحدث في أثناء النطق به أن يمر الهواء حراً طليقاً خلال الحلق والفم،دون أن يقف في طريقه عائق أو حائل، ودون أن يضيق مجرى الهواء ضيقاً من شأنه أن يُحْدِث احتكاكاً مسموعاً» [96] ص:75.

وهي : الألف الساكنة المفتوح ما قبلها، والواو الساكنة المضموم ما قبلها، والياء الساكنة المكسور ما قبلها، والحركات الثلاث: الفتحة والضمة والكسرة.

وقد أطلق الأصواتيون العرب المحدثون مصطلحات متعددة على هذا النوع من الأصوات، فهذا الدكتور إبراهيم أنيس والذي يعتبر رائد الدراسات الصوتية الحديثة يطلق عليها "أصوات اللين "vowels"، حيث يرى أن هذه الأصوات لها صفة تميزها ،وهي «مرور الهواء في الحلق والفم وخلو مجراه من حوائل وموانع»[28] ص:26 .

وسماها الدكتور كمال محمد بشر: "الحركات" ويرى أنها «تسمية جيدة مقبولة، وإن كان من الجائر تسميتها "بالصائتة أو المصوتة" »[90] ص:73 .

والحركات عنده ثلاث: الفتحة والكسرة والضمة قد تكون قصيرة، ويشار إليها في الكتابة بالعلامات التقليدية المعروفة [ـــَـــِـــُـــ] ، أو طويلة: وهي حروف المد –حروف اللين- وعلامتها الألف، والياء والواو. [90] ص:83

وقد سماها أحمد مختار عمر " العلل" أو "الصوائت" ولكنه استخدم مصطلح "العلل"، حيث يرى بأنها تتميز «بنطق مفتوح، وغياب أي عائق، كما أن العلة بطبيعتها مصوتة أو رنانة أكثر من السواكن » [88]ص:153.

أما غانم قدوري فقد استخدم مصطلح "المصوِّت " في البداية لاتصاله بالتراث الصوتي العربي، ثم استخدم مصطلح "الذائب" تأثراً بعلماء التجويد ،ليرجح بعد ذلك الاستخدام المزدوج "الذائب (المصوِّت)"[96]ص:78.

2.1.2.1.2. القسم الثاني:

يحدث هذا القسم نتيجة لتضييق كبير، أو غلق مجرى الهواء أثناء نطق هذه الأصوات،

وبالتالي حدوث احتكاك تتفاوت شدته، بتفاوت درجة التضييق أو الغلق، وقد يهتز الوتران الصوتيان

عند النطق بها ، وقد لا يهتزان. و يمثل هذا القسم «الصوت المجهور أو المهموس الذي يحدث في أثناء نطقه اعتراض لمجرى النّفس في مخرج الصوت، اعتراضاً كاملا أو اعتراضا جزئياً يؤدي إلى حدوث احتكاك مسموع»[96] ص:75.

وقد أُطلق على أصوات هذا القسم مصطلحات متعددة أيضاً، حيث سماها إبراهيم أنيس "الأصوات الساكنة" "consonsants" والتي «إما ينحبس معها الهواء انحباساً محكمًا فلا يسمح له بالمرور لحظة من الزمن يتبعها ذلك الصوت الانفجاري، أو يضيق مجراه فيحدث النفس نوعا من الصفير أو الحفيف » [28] ص:26 .

وسماها كمال بشر "الأصوات الصامتة" ويرى أن تسميتها بذلك أفضل وأوضح من تسميتها بالأصوات الساكنة ؛لأن هذه الأخيرة قد تؤدي إلى اللبس إذ يفهمها البعض على أنها الحرف "المشكل بالسكون" إلا أنها في الدرس الصوتي تعني كل الأصوات ما عدا الحركات سواء كانت ساكنة أو متحركة[90]ص:73.

وقد أطلق عليها أحمد مختار عمر "السواكن" أو "الصوامت" ولكنه استخدم مصطلح "السواكن"[88] ص:135.

أما غانم قدوري فقد استخدم مصطلح "الصامت" ثم "الجامد" ليستقر أخيراً على الاستخدام المزدوج: "الجامد (الصامت)"[96] ص:78.

3.1.2.1.2. القسم الثالث:

وهو الذي يحدث نتيجة لتضييق بسيط في المخرج ، وقد أطلق عليه كمال بشر "أنصاف الحركات" ، وسماها أحمد مختار عمر"أنصاف العلل" ، أما إبراهيم أنيس فقد سماها "أشباه أصوات اللين" ، ويشمل هذا

القسم " الواو" و "الياء" (في مثل "بيت ويوم" ففي الياء نلاحظ أن اللسان يكون تقريباً في موضع النطق بصوت اللين (i) غير أن الفراغ بين اللسان ووسط الحنك الأعلى حين النطق بالياء يكون أضيق منه في حالة النطق بصوت اللين(i) ....فالياء لأنها تشتمل في النطق بها على حفيف، يمكن أن تعد صوتاً ساكناً، أما إذا نظر إلى موضع اللسان معها فهي أقرب شبهاً بصوت اللين...)[28] ص:42 ، و كذلك الأمر بالنسبة للياء .

ولكننا ونظراً للتضييق الذي يحدث أثناء النطق بها ،و الحفيف الذي يُسمع نرجح دراستها ضمن الأصوات الصامتة .

2.2.1.2 .مخارج الأصوات الصامتة عند المحدثين :

المخرج عند المحدثين هو نفسه عند القدامى فهو : « موضع في آلة النطق يخرج منه الصوت ، أو يظهر فيه ويتميز»[95]ص:82.

كما تعرفه الدكتورة "نور الهدى لوشن" بأنه «المكان الذي يحدث في الصوت، وعلى وفقه نصنف الأصوات اللغوية في الجهاز النطقي لدي الإنسان »[102] ص: 103.

ومنه فإن المخرج هو الموضع أو المكان الذي يتم فيه اعتراض الهواء في جهاز النطق فيصدُر الصوت، ولقد اختلف علماء اللغة المحدثين عن علماء اللغة القدماء في ترتيبهم لمخارج الأصوات،حيث رتبوها ترتيبا تنازليا يبدأ من الشفتين راجعاً إلى الخلف حتى الحنجرة، وقد اعتمدوا في ذلك على المخابر الصوتية.

إلا أنه مثلما اختلف القدماء في المخارج اختلف المحدثون ، فهناك من عدها عشرة مخارج وهو الشائع والغالب، وهناك من عدها تسعة مخارج، وذهب آخرون إلى أنها أحد عشر مخرجاً ،وسوف نركز على الرأي الغالب دون أن ننسى الآراء الأخرى.

حيث كان توزيع الحروف على المخارج عند المحدثين كما يلي[103] ص:30-55 :

1.2.2.1.2. الشفتـــــــــــــــان: يسمى الصوت الصادر عنهما "شفوياً" ، والأصوات الشفوية هي الباء والميم والواو ، فإن «كان الإقفال تاماً حدثت الباءُ والميمُ، وإن كان الإقفال ناقصا حدثت الواو»[95] ص:63، وإن كان كمال بشر يرى أن للشفتين دوراً في إنتاج هذا الصوت إلا أن « الوصف الأدق أن يقال: إن الواو من أقصى الحنك، إذ عند النطق به يقترب اللسان من هذا الجزء من الحنك»[89] ص:183 ، وهذا ما ذهب إليه أحمد مختار عمر[88] ص:318 .

ولكننا نؤيد ما ذهب إليه معظم الدارسين من أن الواو صوت شفوي يحدث نتيجة لضم الشفتين دون إقفالهما تماما ورفع أقصى اللسان نحو سقف الحنك .

أما الباء فتنتج بعد إقفال الشفتين إقفالاً تاماً ،ورفع الطبق فيغلق ما بين الحلق والتجويف الأنفي، مع ذبذبة الأوتار الصوتية.

كما تنطق الميم بانطباق الشفتين ، مع حبس الهواء خلفهما ،وانخفاض أقصى الحنك ليخرج الهواء من الأنف ، ولقد سمى أحمد مختار عمر الصوت الشفوي "شفتاتي"[88]ص:117 .

2.2.2.1.2. الشفة مع الأسنان: ويسمى الصوت " شفوياً أسنانياً" وينتج عن هذا المخرج صوت واحد وهو "الفاء"، ويحدث نتيجة لاتصال الشفة السفلى بأطراف الثنايا العليا.

3.2.2.1.2. الأسنـــــــــــــــان: ويسمى الصوت "أسنانيا"، والأسنانية هي الذال والثاء والظاء، وتحدث هذه الأصوات نتيجة لملامسة طرف اللسان الأسنان العليا مع مرور الهواء.

فالذال ينتج بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، حيث يضيق المجرى ، ويكون اللسان مستوياً ، ويرتفع الطبق لغلق المجرى الأنفي وذلك مع ذبذبة في الأوتار الصوتية.

كما تحدث الثاء بنفس طريقة الذال، ولكن مع عدم ذبذبة الأوتار الصوتية.

ولا يختلف الظاء عن الذال إلا في ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق حيث ينطبق اللسان مع الحنك الأعلى.

4.2.2.1.2. الأسنان مع اللَّثة: ويسمى الصوت أسنانيا لثوياً وهذه الأصوات هي الدَال والضاد والتاء والطاء والزاي والسين والصاد .

فالدال يحدث نتيجة لالتقاء طرف اللسان باللثة والأسنان العليا، التقاء محكما مع ذبذبة الأوتار الصوتية ، «يتكون بأن يندفع الهواء ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين، ثم يأخذ مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت فينحبس هناك فتر قصيرة جداً لالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكماً ، فإذا انفصل اللسان عن أصول الثنايا سمع صوت انفجاري نسميه بالدال »[28] ص:48.

وتحدث التاء بنفس طريقة حدوث الدال ولكن بدون ذبذبة الأوتار الصوتية .

ولا تختلف الطاء عن التاء إلا في وضع اللسان حيث ترتفع مؤخرته نحو الطبق، فيأخذ اللسان شكلاً مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى .

أما الضاد فهي تحدث بنفس طريقة حدوث الدال مع ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق فهو :

«لا يختلف عن الدال في شيء سوى أن الضاد أحد أصوات الإطباق، فعند النطق بها ينطبق اللسان على الحنك الأعلى متخذاً شكلاً مقعراً، كما يرجع إلى الوراء قليلاً »[28] ص:48.

وينتج صوت السين « بوضع طرف اللسان في اتجاه الأسنان، ومقدمته مقابل اللثة العليا، مع رفع الطبق لسد المجرى الأنفي، ويحدث كل هذا بدون ذبذبة الأوتار الصوتية »[95]ص: 64، كما أنه عند النطق بها تقترب الأسنان العليا من السفلى [28]ص:75.

أما الزاي فيتمُ بنفس الطريقة التي تحدث بها السين ولكن مع ذبذبة الأوتار الصوتية.

وتعتبر الصاد النظير المفخم للسين حيث تحدث بنفس طريقة حدوث السين ولكن مع ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق.

إلا أننا نجد كمال بشر يضع "السين والصاد والزاي" في مخرج مستقل مع الراء ، وسماها اللثوية ، في حين جعل اللام والنون أسنانية لثوية، ويرى أن المخرج الأسناني اللثوي والمخرج اللثوي

« متقاربان لدرجة يصعب معها أحيانا التفريق بينهما، ومما يفسر هذا التقارب ما سلكه بعض علماء الأصوات من ذكر الزاي والسين والصاد على أنها من مخرج التاء والدال وأخواتهما. ولكنا نشعر – بحسب خبرتنا ونطقنا الشخصي- أن هذه الأصوات أدخل قليلاً في النطق والموضع من أصوات المجموعة رقم (4)، كما نحس كذلك بأن صوت الراء أدخل قليلا من حيث المخرج إذا قورن بأصوات هذه المجموعة نفسها» [89] ص:184.

ومن هذا القول نجد أن كمال بشر يعترف باعتماده على خبرته الشخصية ونطقه الخاص،

لذلك نحن نرجح آراء العلماء الآخرين الذين تجنبوا الذاتية لأنها تنقض العلم .

5.2.2.1.2. اللثــــــة:

ويسمى الصوت الصادر من هذا المخرج: لثويا، والأصوات اللثوية هي: اللام والراء والنون. فاللام يتكون بمرور « الهواء بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين، ثم يتخذ مجراه في الحلق وعلى جانبي الفم في مجرى ضيق يحدث فيه الهواء نوعاً ضعيفاً من الحفيف. وفي أثناء مرور الهواء من أحد جانبي الفم أو من كليهما ، يتصل طرف اللسان بأصول الثنايا العليا وبذلك يحال بين الهواء ومروره من وسط الفم فيتسرب من جانبيه »[28]ص:64.

ومنه فاللام ينتج عن اِلتقاء طرف اللسان باللثة ،كما يرتفع الطبق، مع حدوث ذبذبة في الأوتار الصوتية.

واللام نوعان مرققة ومفخمة، وتتميز اللام المفخمة بارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق على عكس اللام المرققة فالفرق بينهما كالفرق بين الدال والضاد أو التاء والطاء –كما وضحنا سابقا- .

وكذلك الأمر بالنسبة للراء فهناك المرققة والمفخمة والفرق بينهما كالفرق بين اللام المرققة واللام المفخمة، ويحدث هذا الصوت نتيجة « التقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلي الثنايا العليا يتكرر في النطق بها، كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقاً ليناً يسيراً مرتين أو ثلاثا لتتكون الراء

العربية» [28] ص:66 ، ومنه فإن الراء ينتج عن ارتفاع طرف اللسان إلى اللثة وقيامه بضربات متكررة للثة ويكون ذلك مع ذبذبة في الأوتار الصوتية.

أما النون فعند النطق بها « يندفع الهواء من الرئتين محركاً الوترين الصوتيين، ثم يتخذ مجراه في الحلق أولا، حتى إذا وصل إلى الحلق هبط أقصى الحنك الأعلى فيسد هبوطه فتحة الفم ويتسرب الهواء من التجويف الأنفي محدثاً في مروره نوعاً من الحفيف لا يكاد يسمع »[28] ص:66 ، فهي تنتج عن اتِّصال طرف اللسان باللثة اتصالاً محكماً ، مع هبوط الطبق (أقصى الحنك)،ويتم هذا مع ذبذبة في الأوتار الصوتية .

<u>6.2.2.1.2. الغــــــــــار – الحنك الصلب-:</u> ينتج مجموعة الأصوات الغارية وهي: الشين والجيم والياء، وقد سماها كمال بشر :" الأصوات اللثوية الحنكية" .

فالشين يحدث نتيجة لارتفاع مقدمة اللسان باتجاه الغار، مع ترك ممر ضيق للهواء مما يحدث نوعاً من الاحتكاك ، و رفع الطبق، وذلك دون حدوث ذبذبة في الأوتار الصوتية .

أما الجيم فتنتج عن طريق اتِّصال مقدمة اللسان بالغار اتصالاً محكماً، يعقبه وقفة قصيرة يليها تسريح بطيء للهواء، وذلك مع ذبذبة في الأوتار الصوتية.

إلا أننا نجد كمال بشر قد جعل هذين الصوتين –الشين والجيم- من مخرج "اللثة والحنك" وسماها "لثوية حنكية"، في حين جعل الياء من وسط الحنك ، ولكنه أدرك القرب بين هذه الأصوات الثلاثة حيث يقول: «من المهم أن تعلم أن بين الياء والجيم والشين قرباً شديداً في المخرج ،حتى إن بعض الدارسين سمى هذه الأصوات الثلاثة "أصوات وسط الحنك" وهذه الأصوات الثلاثة يسميها العرب في القديم الأصوات الشجرية "نسبة إلى شجر الفم" فهي إذن من حيّز واحد »[89] ص:184.

وهو بفصله بين هذه الأصوات جعل المخارج أحد عشر مخرجاً ، ولكننا نذهب إلى ما ذهب إليه معظم

الدارسين قديماً وحديثاً من أن هذه الأصوات من مخرج واحد .

إذ تحدث الياء برفع مقدمة اللسان باتجاه منطقة الغار بشكل يسمح بمرور الهواء، ولقد اعتبر أحمد مختار عمر هذا الصوت "نصف العلة"[88] ص:317 .

أما إبراهيم أنيس فلم يتطرق له ضمن الأصوات الساكنة(الصامتة) الناتجة من وسط الحنك، وهي عنده الشين والجيم .[28] ص:76-83. وإنما تناوله في عنصر خاص تحت عنوان " أشباه أصوات اللين"، ويرى أن مخرجها ينطبق مع وصف القدماء له أي أنها شجرية.[28] ص:43.

7.2.2.1.2. الطـبَّـــــــــــــــــق:

ويسمى الصوت الناتج عنه طبقياً وينتج عنه الكاف والخاء والغين [89] ص:184، [104] ص:34، [102] ص:12 .

فالكاف ينتج عن اندفاع « الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة، فلا يحرك الوترين الصوتيين، ثم يتخذ مجراه في الحلق أولاً، فإذا وصل إلى أقصى الفم قرب اللهاة انحبس الهواء انحباساً كاملاً، لاتصال أقصى اللسان بأقصى الحنك الأعلى، فلا يسمح بمرور الهواء. فإذا انفصل العضوان انفصالاً مفاجئاً انبعث الهواء إلى خارج الفم محدثاً صوتاً انفجارياً وهو ما نسميه بالكاف »[28] ص:84 .

أما الغين فلا يكون فيه التصاق مؤخرة اللسان بالطبق التصاقاً محكماً حيث يسمح بمرور الهواء الذي يحدث نوعاً من الاحتكاك، وذلك مع ذبذبة في الأوتار الصوتية.

كما يحدث الخاء بنفس طريقة حدوث الغين ولكن دون إحداث ذبذبة في الأوتار الصوتية فهو النظير المهموس للغين.

8.2.2.1.2. اللهــــــــــاة: ويسمى الصوت الصادر منها لهوياً، وينتج عنها صوت واحد وهو القاف، والذي «يتم إنتاجه عن طريق اتصال مؤخرة اللسان بمنطقة اللهاة مع الطبق اللين (بصورة لا تسمح

بمرور الهواء)، يعقبه تسريح فجائي له (انفجاري) »[88] ص:118، ومنه فإن القاف ينتج عن اتصال مؤخرة اللسان باللهاة والطبق اللين، وذلك مع حدوث ذبذبة في الأوتار الصوتية .

9.2.2.1.2. الحلـــــــــــــق:

والحروف الحلقية هي : العين والحاء.

«ويتم إنتاجها عن طريق تقريب جذر اللسان من الجدار الخلفي للحلق، بصورة تسمح بمرور الهواء مع حدوث احتكاك (استمراري)» [88] ص:319.

وتتميز العين عن الحاء في أن الأولى تحدِثُ ذبذبة في الأوتار الصوتية على عكس الثانية إذ تعتبر الحاء النظير المهموس للعين .

10.2.2.1.2. الحنجرة:

ويسمى الصوت الصادر عنها حنجرياً أو "مزمارياً"[88] ص:319، وينتج عنها صوتان وهما الهمزة والهاء.

فالهمزة تنتج عن طريق غلق فتحة المزمار، ثم فتحها فتحاً مفاجئاً .

أما الهاء فتنتج عن طريق تضييق المجري بصورة تسمح بمرور الهواء، مع احتكاك استمراري.

هذا أشهر تقسيم للأصوات لأننا نجده في مختلف الكتب المعاصرة التي تناولت الدرس الصوتي عند المحدثين[102]ص:114، [104] ص:34-35، [96] ص:86، [95] ص:63-68.

ويمكننا تسجيل الاختلاف في مخارج الحروف عند المحدثين في الجدول التالي :

المصادر / المخارج	د: رمضان عبد التواب [29]ص:61	د:كمال بشر[89]ص: 183-185.	د:أحمدمختار عمر[88] 315-319	د:تمام حسان [103] ص: 124	د:إبراهيم أنيس[28] 44-90	د:سلمان حسن العاني[105] ص:49
شفويٌّ	ب م و	ب م (و)	ب م	ب م و	ب م	ب م و
شفوي أسناني	ف	ف	ف	ف	ف	ف
أسنانيٌّ	ظ ذ ث	ظ ذ ث	ذ ث ظ	ث ذ ظ	(ذ ث ظ)	ظ ذ ث
أسناني لثوي	د ض ت ط ز س ص	ت د ض ط ل ن	د ت ض ط س ز ص	ض د ط ت ز س ص	(د ض ت ط)	د ض ت ط س ص ز ل رن
لثوي	ل ر ن	ر ز س ص	ن ل ر	ل ر ن	(ل ن ر) (س زص)	
لثوي حنكي		ج ش				
غاري	ش ج ي	ي	ي ش ج	ش ج ي	ش ج ي	ج ش ي
طبقي	ك غ خ	خ غ ك و	و ك خ غ	ك	ك و ق	ك خ
لهوي	ق	ق	ق	ق غ خ		ق غ
حلقي	ع ح	ع ح	ع ح	ع ح	غ خ ع ح هـ ء	ع ح
حنجري	ء هـ	ء هـ	ء هـ	ء هـ		ء هـ

جدول رقم 03: مخارج الحروف عند المحدثين

ولقد عدّ الدكتور أحمد مختار عمر عدد المخارج أحد عشر مخرجاً جمع فيها الأصوات الصامتة والمصوتة - العلل، أنصاف العلل (و، ي) ، السواكن- ، وهو يتفق مع ترتيب المخارج الذي ذكرناه باستثناء أنه زاد مخرج الغار والطبق اللين مع وسط اللسان للفتحة والألف، كما أنه نقل مخرج الواو من الشفتين إلى المخرج الطبقي [88] ص:315-319.

أما كمال بشر فقد عدها أحد عشر مخرجاً للأصوات الصامتة فقط، حيث أضاف المخرج "اللثوي – الحنكي" وضع فيه الجيم والشين، وسمى المخرج الغاري: وسط الحنك ومنه الياء، وسمى الطبقي: أقصى الحنك وجعل فيه الواو ولم ينكر دور الشفتين في إنتاجه [89]:183-185.

ولقد عد سلمان حسن العاني المخارج تسعة حيث جمع الأصوات الأسنانية اللثوية والأصوات اللثوية في مخرج واحد سماه أسناني، وسمى المخرج الأسناني "بين أسناني".[105] ص:49.

يبدوا أن إبراهيم أنيس قسم المخارج إلى ستة مخارج ، ولكننا بعد تصفحنا لكتابه بدقة وجدناه قسمها إلى :

- شفوية : ب ، م .
- شفوي أسناني: ف .
- طرف اللسان وأطراف الثنايا: ذ ، ث ، ظ .
- طرف اللسان وأصول الثنايا: [(د، ض، ت، ط) ، (ل، ن، ر) ، (س، ز، ص)] .
- وسط الحنك: ش ج .
- أقصى الحنك : ك .
- اللهاة : ق .
- الحلق : غ، خ، ع، ح .
- المزمار: ء ، هـ[28] ص:44-104 .

3.2.1.2 .مخارج الأصوات الصائتة (المصوتة) عند المحدثين :

حدد أحمد مختار عمر مخارج الأصوات الصائتة كما يلي:

1.3.2.1.2.الكسرة وياء المد : مخرجهما من الغار، وذلك عن طريق رفع مقدمة اللسان باتجاه منطقة الغار، وذلك بترك فراغ يسمح بمرور الهواء دون احتكاك مسموع[88]ص:317، مع ذبذبة في الأوتار الصوتية.

2.3.2.1.2 الفتحة والألف: مخرجهما من الغار والطبق اللين مع وسط اللسان وذلك عن طريق إراحة اللسان في قاع الفم، مع ارتفاع طفيف جداً لوسطه في اتجاه منطقتي الغار والطبق [88] ص:318، مع ذبذبة في الأوتار الصوتية .

3.3.2.1.2. الضمة وواو المد: مخرجهما من الطبق اللين مع مؤخر اللسان حيث ترتفع مؤخرة اللسان في اتجاه منطقة الطبق اللين، مع ترك فراغ يسمح بمرور الهواء دون احتكاك مسموع [88] ص:318، مع ذبذبة في الأوتار الصوتية . فهذه الصوائت كلها مجهورة.

ومنه نستنتج أن مخرج الياء والواو المصوتتين من نفس مخرج الياء والواو الصامتتين والفرق بين هاتين الحالتين أن الصوتين المصوتين عند نطقهما لا يعترض الهواء أي عائق أو مانع أي اتساع كبير في المخرج، أما الصوتان الصامتان فإن نطقهما يتم بتضييق مجرى الهواء ، حيث يسمح بمروره ولكنه يحدث احتكاكاً مسموعاً[90] ص:134 ، وقد أضاف على ذلك أحمد مختار عمر: - قلة وضوح الصوتين الصامتين – أنصاف العلل- عن الصوتين المصوتين (العلل الطويلة).

- كما أن الخواص الوظيفية لكل منهما مختلفة عن الأخرى حيث يرى أن الواو والياء كنصفي علة تقومان بدور الأصوات الساكنة، وتقعان موقعهما تماماً في الترتيب الصوتي، مثل: بلد ولد، يخت بيت، كما أنهما تتبعان بالحركات[88] ص:330-331.

ولقد شكلت هذه الأصوات مشكلة كبيرة في تحديد مخارجها لأنه لا يتم عند النطق بها تضييق واضح أو حبس في جهاز النطق، وبعد جهود كبيرة تمكن العالم الإنجليزي "Daiel Jones" من وضع مقاييس دقيقة لهذه الأصوات أطلق عليها "Cardinal vowels" ترجمها كمال بشر إلى "الحركات المعيارية" وذلك بالنظر إلى الشفتين واللسان، وبنى مقاييس على :

1- النقطة التي تتصعد من اللسان نحو الحنك الأعلى .
2- مقدار انفتاح بين النقطة المتصعدة من اللسان والحنك الأعلى.
3- الشكل الذي تتخذه الشفتان عند النطق بالصوت.

ويمكن تمثيل ذلك في رسم هندسي كما يلي:

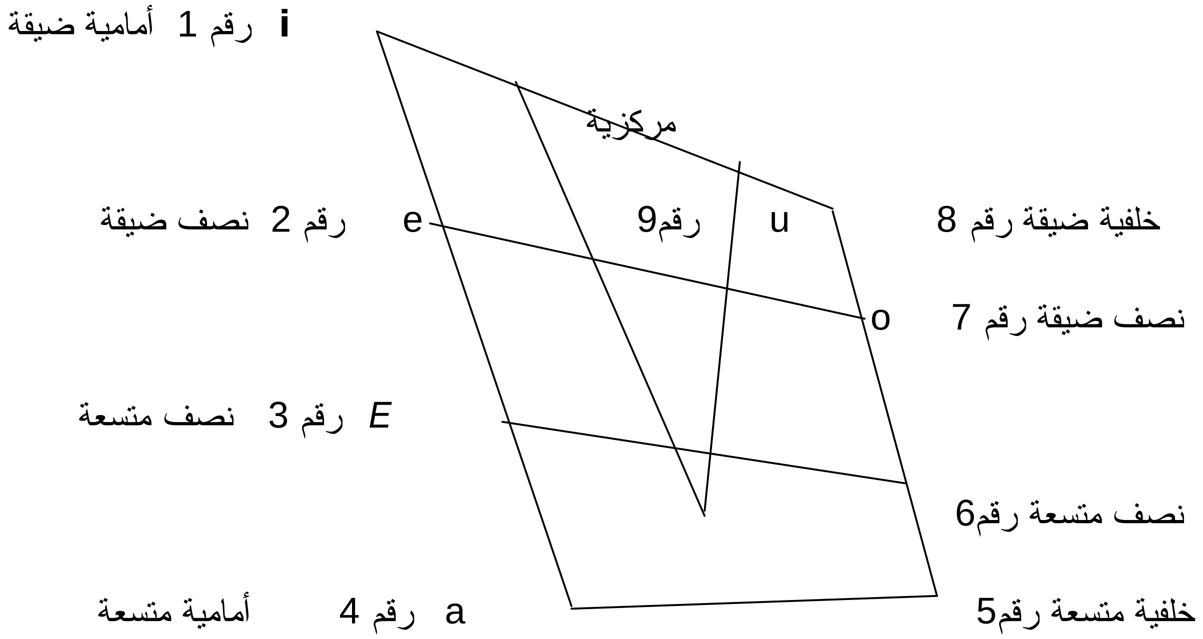

شكل رقم:07 :مخارج الحركات المعيارية عند كمال بشر

تفسير الشكل الهندسي :

- رقم (1): i: الصوت الذي يرتفع مقدم اللسان عند النطق به اتجاه الحنك الأعلى إلى أقصى ارتفاع قد يبلغه النطق بصائت، لأنه إذا ارتفع أكثر ينتج صوت صامت وهو الياء، وتكون الشفتان عند النطق بهذه الحركة منفرجتين .

- رقم (5): *(a)*: الصوت الذي ينخفض مؤخر اللسان حال النطق به إلى أقصى حدٍ ممكن أن يبلغه النطق بصائت، مع رجوع هذا الجزء من اللسان إلى الخلف وتكون الشفتان عند نطق هذا الصوت غير مضمومتين .

- رقم (2،3،4): (e ، *E* ، a): هي مجموع الصوائت الأمامية والتي تنتج عن الجزء الأمامي للسان، حيث ينخفض تدريجيا حتى يصل إلى قاع الفم .

- رقم (6،7،8): (o ، u ،): تسمى الصوائت الخلفية مثل رقم (5) ، وذلك نسبة إلى الجزء الخلفي للسان والذي يرتفع تدريجيا من (5) إلى(6) إلى (7) إلى (8) تجاه الحنك الأقصى مع ترك مسافة تسمح بمرور الهواء دون حدوث احتكاك، لأن ارتفاعه أكثر يصير صوت الواو.

- رقم (9):(   ):ينسب هذا الصائت إلى وسط اللسان حيث يرتفع نسبياً عند النطق به،[90] ص: 139 -145.

فبالنسبة للمقياس الأول تنقسم الصوائت المعيارية إلى : صوائت أمامية، صوائت خلفية، صوائت مركزية أو وسطى وذلك على حسب جزء اللسان الذي يرتفع .

أما بالنسبة للمقياس الثاني تنقسم إلى: صوائت ضيقة، صوائت متسعة، صوائت نصف ضيقة، صوائت نصف متسعة.

أما بالنسبة للمقياس الثالث : والذي يتحدد بالوضع الذي تتخذه الشفتان فقد تكون منفرجة أو مضمومة (ضماً شديداً أو خفيفاً) أو محايدة (وضع ليس منفرجاً وليس مضموماً).

ولقد مثل كمال بشر الصوائت العربية الثلاث" الفتحة والضمة والكسرة" داخل الشكل الهندسي والذين رمزنا لهم بلون أحمر .

حيث يمثل الرمز[i] الكسرة العربية وهي قريبة من الصائت المعياري رقم (1) إذ تختلف عنه في كونها حركة ضيقة بدرجة أقل من المعيارية مقدمة اللسان عند نطقها أقل ارتفاعاً منه ارتفاعها مع المعيارية، كما أنها أمامية ولكن أي مقدمة اللسان ولكنها تنحو نحو الخلف قليلا مقارنة بالمعيارية.

ويمثل الرمز [a] الفتحة وهي بين الصائتين رقم (4) ورقم (5) لأن أعلى نقطة في اللسان حالة النطق بها هي وسطه (لا مقدمته ولا مؤخرته) .

ولكنها ليست مركزية [a] لأن اللسان عند نطقها يكون مستوياً في قاع الفم مع ارتفاع خفيف في وسطه فهي متسعة ولكن ليست باتساع الصائتين (4) و (5) .

كما يمثل الرمز [u] الضمة العربية وهي أقرب ما تكون للصائت المعياري رقم (8) فهي ليست بضيقها.

كما أن أعلى نقطة في الجزء الخلفي من اللسان مع الضمة تكون أمام أعلى نقطة في الجزء الخلفي للسان عند النطق بالمعيارية رقم (8) ، ومنه فإن الضمة صائت خلفي ولكنها لا تبلغ المعيارية رقم (8) .[90] ص:150-152.

وقد تنطق الفتحة أو الضمة أو الكسرة صوائت مفخمة أو مرققة أو متوسط مثل :

صَبر فتحة مفخمة .

قـــــَبر فتحة مرققة .

سَبر فتحة بين بين (متوسطة)

فالفتحة صوت صائت واحد ولكنه ينطق بثلاث طرق مختلفة وكذلك الأمر بالنسبة للضمة والكسرة .

وسنقوم بتوضيحها في مخطط بالعلامات التالية :

الكسرة: المرققة [i] ، المفخمة [I] ، الوسطي (البينية) [i].

الفتحة : المرققة [ ] ، المفخمة [a] ، الوسطي (البينية) [a].

الضمة: المرققة [u] ، المفخمة [c] ، الوسطي (البينية) [u].

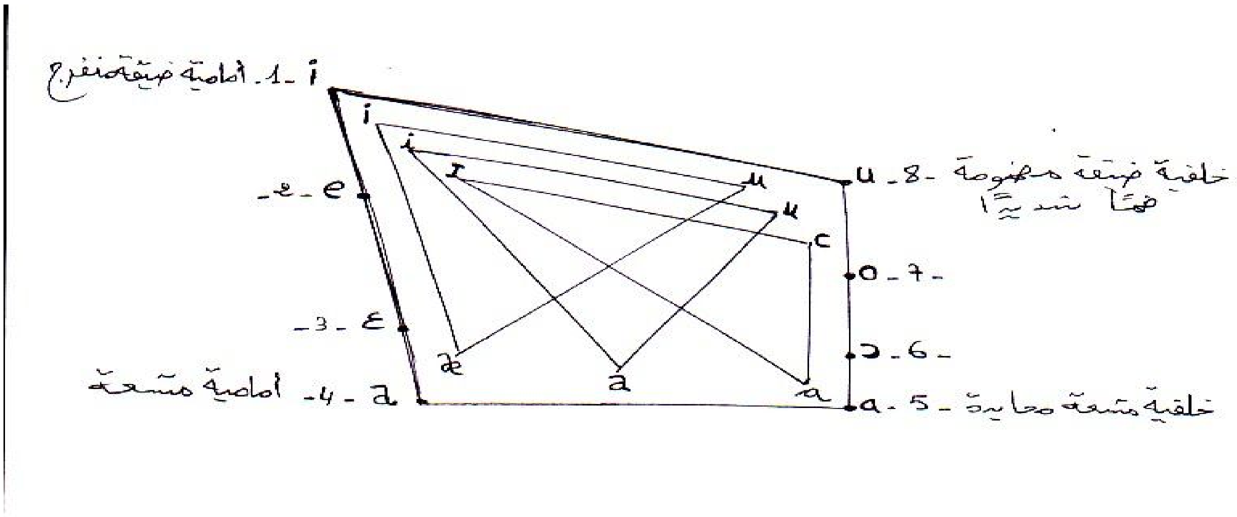

شكل رقم:08: شكل هندسي يوضح كيفية نطق الصوامت القصيرة

ويتضح من الشكل أن الكسرة المرققة هي أقرب الكسرات إلى المعيارية رقم (1)، وذلك من حيث مقدمة اللسان ودرجة ارتفاعه .

أما الفتحة المرققة فهي في المركز الوسط بين المعيارية رقم (3) والمعيارية رقم (4). أما الفتحة المفخمة فهي أقرب ما تكون للمعيارية رقم (5) .

أما الضمة المرققة فهي قريبة من المعيارية رقم (8) من حيث درجة علو مؤخرة اللسان ولكنها بعيدة عنها نوعاً ما من حيث أعلى نقطة من الجزء الخلفي من اللسان .

وهكذا يمكننا تفسير باقي الرموز في الشكل .

أما فيما يخص الصوائت الطويلة (الألف، الواو، الياء) فقد مثلها أحمد مختار عمر مقارنة مع الصوائت القصيرة كما يلي:[88]ص:330.

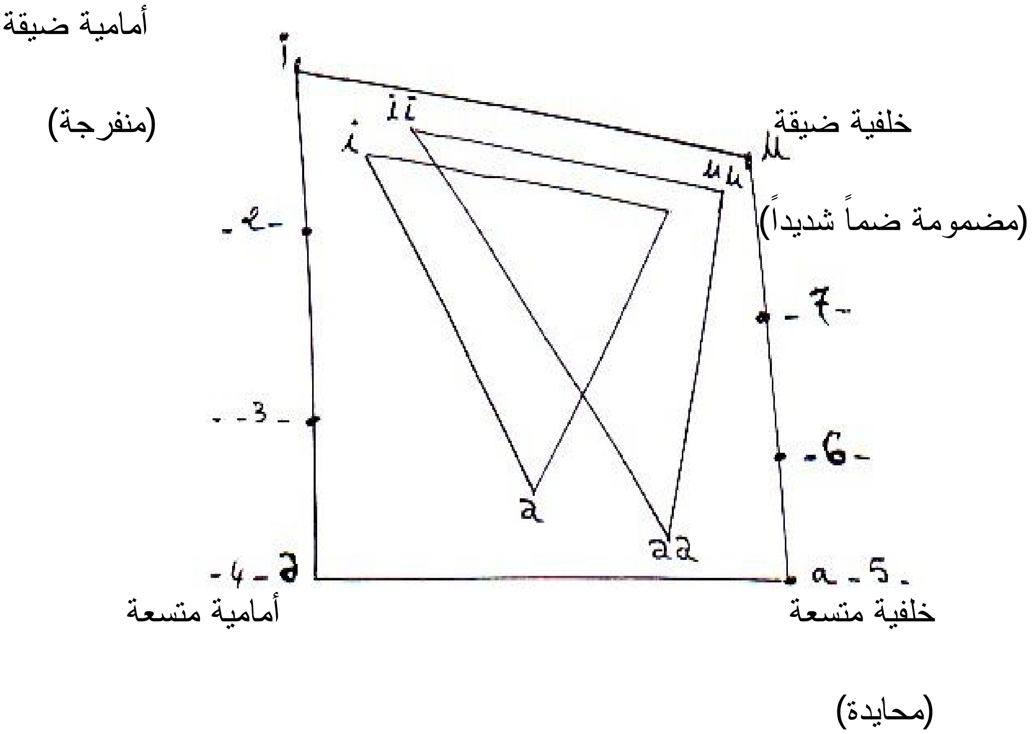

شكل رقم 09: شكل هندسي يوضح مخارج الصوائت الطويلة

[ii] : ترمز للياء .

[aa] : ترمز للألف.

[uu] : ترمز للواو .

ويفسر هذا الشكل مثل الشكلين السابقين حيث نلاحظ أنّ :

- الياء (الصائتة) أقرب إلى المعيارية رقم (1) من الكسرة وذلك من حيث درجة ارتفاع اللسان ولكنها بعيدة عنها من حيث أعلى نقطة من الجزء الأمامي للسان .

- الواو أقرب إلى المعيارية رقم (8) من الضمة من حيث درجة ارتفاع اللسان وأعلى نقطة في مؤخرة اللسان .

- الألف أقرب إلى المعيارية رقم (5) من الفتحة التي تكون في الوسط من حيث النقطة المتصعدة من اللسان وقرب منها أيضا من حيث درجة انخفاض اللسان في قاع الفم .

وهكذا تمكن المحدثون باعتماد الوسائل و الأجهزة الحديثة من تحديد مخارج هذه الصوائت بشكل دقيق ، أكثر من القدماء الذين اعتمدوا الملاحظة الذاتية.و رغم ذلك فقد توصلوا إلى نتائج قريبة مما توصل إليه المحدثون ، وخير مثال على ذلك تحديد الفراء لمخارج الحركات - كما وضحنا سابقاً – والذي بناه على ارتفاع اللسان ، و وضع الشفتين ، وقد أصاب في كل ما ذهب إليه، و أضاف المحدثون على ذلك تحديد الجزء المرتفع من اللسان (المقدمة، أو المؤخرة) . وكذا مقدار الانفتاح بين النقطة المتصعدة و الحنك الأعلى .

4.2.1.2:صفات الأصوات العربية عند المحدثين :

اهتم المحدثون بصفات الأصوات وضمَّ معظمهم مبحث المخارج إليها، وعرضوها في إطار واحد، ألا وهو "تصنيف الأصوات" والذي يعتمد على:

1- تصنيف الأصوات حسب المخارج.

2- تصنيف الأصوات حسب وضع الأوتار الصوتية .

3- تصنيف الأصوات حسب حالة ممر الهواء في أثناء النطق [89]، ص:143، [103] ص:86.

حيث اعتمد المحدثون في ذلك على طريقة الغربيين «لتلقي معظم الجيل الأول منهم مبادئ علم الأصوات وأصوله في جامعات غربية، ولضعف اتصال كثير منهم بالتراث الصوتي العربي، وعدم اطلاعهم على كثير من مصادره الأساسية »[96] ص:100-101(2)، ولعل هذا السبب وراء وضع مصطلحات جديدة لمفاهيم كانت معروفة عند العرب بمصطلحات واضحة ومعروفة .

وهذا لا يعني عدم اعتماد كل المحدثين على مصطلحات القدماء ، لأن هناك من فضل استخدامها مثل عبد الصبور شاهين في كتابه "علم الأصوات" ، وعبد القادر مرعي علي الخليل في كتابه "المصطلح الصوتي".

ونحن نرجح استخدام المصطلحات التراثية لهدف تحقيق التواصل مع التراث الصوتي العربي مع الإفادة مما توصل إليه الدرس الصوتي الحديث .

فكانت الصفات عند المحدثين كما يلي :

<u>1.4.2.1.2. الجهر والهمس:</u> ربط علماء اللغة المحدثون صفة الجهر أو الهمس بفتحة المزمار وبالوضعية التي يتخذها الوتران الصوتيان عند النطق بالصوت، إذ أن « انقباض فتحة المزمار وانبساطها عملية يقوم بها المرء في أثناء حديثه، دون أن يشعر بها في معظم الأحيان ، وحين تنقبض فتحة المزمار يقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر فتضيق فتحة المزمار، ولكنها تظل تسمح بمرور النفس خلالها، فإذ اندفع الهواء خلال الوترين وهما في هذا الوضع يهتزان اهتزازاً منتظماً ، (...) والأصوات

اللغوية التي تصدر بهذه الطريقة (...) تسمى أصواتاً مجهورة »[28] ص:20.

ومنه فإن الصوت المجهور هو الصوت الذي يهتزُّ فيه الوتران الصوتيان بسبب احتكاكهما بالهواء المندفع من الرئتين.

أما الصوت المهموس فهو الذي لا يحدث ذبذبة في الوترين الصوتيين لأنهما يكونان فيه متباعدين وتكون فتحة المزمار مفتوحة فيندفع الهواء عبرها دون أن يحتكّ بالوترين الصوتيين، وذلك كما هو موضح في الرسم التالي[88]ص:130:

شكل رقم: 10: وضع الوتريين الصوتيين في حالتي الجهر و الهمس

والأصوات المجهورة في العربية: (م و ب ، ذ ظ ، د ض ز ، ن ر ل ، ج ي ، غ، ع) .

أما المهموسة فهي : (ف، ث ، ت ط ص س، ش، ك خ، ق ، ح ، هــ).

أما الهمزة فقد اختلف فيها المحدثون فهي عند بعضهم " لا هي بالمهجور ولا هي بالمهموس" ، لأن فتحة المزمار معها تكون مغلقة إغلاقاً تاماً، فلا نسمع ذبذبة في الوترين الصوتيين ولا يسمح للهواء بالمرور إلى الحلق إلا حين تتفرج فتحة المزمار[28] ص:90، [88] ص:324.

وذهب آخرون إلى أنها صوت مهموس، لعدم حدوث ذبذبة في الوترين الصوتيين .

وفسر كمال بشر مذهبهم هذا بأنهم ركزوا على المرحلة الثانية في تكوين الهمزة، وهي مرحلة الانفجار حيث تكون الأوتار الصوتية منفتحة مثلما هي عليه حالة الهمس[89] ص:288.

إلا أن المعروف أن الهمزة تتكون بمرحلتين مرحلة انطباق الوترين وحبس الهواء، ثم مرحلة انفجار الهواء المضغوط، وإن كانت لا تحدث ذبذبة في الأوتار الصوتية إلا أن وضع الوترين معها يخالف وضعه في حالة الهمس أو حالة الجهر، لذلك فالأصح اعتبارها لا هي بالمهموس ولا هي بالمجهور،

حيث تكون الأوتار الصوتية كالتالي[88] ص: 130 :

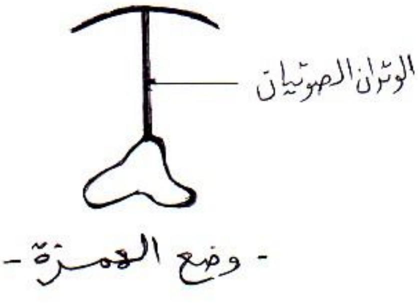

شكل رقم 11: وضع الوترين الصوتيين عند النطق بالهمزة

<u>2.4.2.1.2. الشدة والرخاوة:</u> سمى علماء اللغة المحدثون الصوت الشديد "صوتاً انفجارياً"، وهو الذي يحدث نتيجة لانغلاق تام لمجرى الهواء المندفع من الرئتين في المخرج ، يتبع ذلك انفتاح مفاجئٌ فيندفع الهواء مصدراً صوتاً انفجارياً، ومثال ذلك « حين تلتقي الشفتان التقاء محكماً فينحبس عندهما مجرى النفس المندفع من الرئتين لحظة من الزمن بعدها تنفصل الشفتان انفصالاً فجائياً ، يحدث النفس المنحبس صوتاً انفجارياً، وهو ما نرمز إليه في الكتابة بحرف الباء »[28] ص:23 .

ويرى كمال بشر أنه يمكن تسمية هذه الأصوات باعتبار الحبس أو الوقف (في مجرى الهواء) "وقفات"، ولكنها سميت انفجارية باعتبار الانفجار، فأطلق عليها "الوقفات الانفجارية"[89] ص:247 ، لأنها تتكون باجتماع أمرين هما : حبس ووقف الهواء، وانطلاق النفس المضغوط بشكل انفجار .

والأصوات الانفجارية هي : (ب، ط ض ت د ، ك ، ق ، ء).

أما الأصوات الرخوة فقد سموها الأصوات الاحتكاكية ، وهي أصوات لا ينغلق مجرى الهواء عند نطقها وإنما «يضيق مجرى الهواء الخارج من الرئتين في موضع من المواضع ويمر من خلال منفذ ضيق نسبيـــًّـــا يُحدث في خروجه احتكاكاً مسموعاً »[89] ص:297.

والأصوات الاحتكاكية عند المحدثين هي (ف، ث ظ ذ ،س ص ز، ش، خ غ، ح ع، هـ) ويمكن اعتبار الواو والياء الصامتتين من الحروف الرخوية [69] ص:114.

ولقد أيقن المحدثون باعتماد التجارب الحديثة أن الجيم العربية الفصيحة يختلط صوتها الانفجاري بنوع من الحفيف يقلل من شدتها [28] ص:34، لذلك جعلها المحدثون في قسم خاص أطلقوا عليه **"الأصوات المركبة"** ، وقد سماها كمال بشر "الوقفات – الاحتكاكية"، ويرى أن " الجيم" هو الصوت العربي الوحيد الذي ينتمي إلى هذا القسم لأنه عند النطق به يتم حبس الهواء بسبب التصاق اللسان بالغار ثم لا ينفصل عنها فجأة كما هو الحال مع الوقفات الانفجارية حيث يتم الانفصال ببطء فيحتك الهواء بالأعضاء المساعدة فهو يتم بمرحلتين وقفة ثم احتكاك [89] ص:309ـــ311.

الأصوات المتوسطة (البينية) :حددها إبراهيم أنيس بقوله « رغم التقاء العضوين مع بعض الأصوات قد يجد النفس له مسربا يتسرب منه إلى الخارج وحينئذ يمر الهواء دون أن يحدث أي نوع من الصفير أو الحفيف ويلاحظ هذا مع اللام والنون والميم والراء»[28] ص:24، حيث لا يتم معها احتكاك لأنه يغير مجراه الفموي إلى المجرى الأنفي في مثل: الميم والنون، أو لأنه وسط القناة النطقية تكون فيه حبسة كاملة الانغلاق فيمر الهواء على الجانبين مثلما هو مع اللام. وسماها كمال بشر "الأصوات الجانبية"[89] ص:347 .

أو لأن التضييق فيها غير مستقر حيث يكون بشكل ضربات، مثلما هو مع الراء لذلك يسمى الصوت المكرر[89] ص:345-347، أما القدماء فقد أضافوا إليها الألف والواو والياء وهي أصوات صائتة، كما أن الواو والياء: الصامتتين أو أشباه الحركات ليست متوسطة عندهم ، أما العين فهي احتكاكية .

3.4.2.1.2. التفخيم والترقيق: فالتفخيم أثر سمعي ينتج عن ارتفاع مؤخرة اللسان اتجاه أقصى الحنك مما يحدث رنينا مسموعا ورجوع اللسان إلى الخلف بصورة أسرع من رجوعه مع الأصوات المرققة[89] ص:394.

قسم أحمد مختار عمر الأصوات المفخمة إلى ثلاثة أنواع :

- أصوات كاملة التفخيم وهي: ص ، ض ، ط ، ظ ، اللام المفخمة .
- أصوات ذات تفخيم جزئي وهي : خ ، غ ، ق .
- صوت يفخم في مواقع ويرقق في مواقع وهو : الراء .[88]ص:325-326.

فالتفخيم في النوع الأول يعتبر صفة مميزة ويسمى في هذه الحالة الإطباق ويقابله الانفتاح والذي يكون في كل الصوامت باستثناء (ص ض ط ظ)لأنها مطبقة .

أما النوع الثاني فهو من الصفات المحسنة ، أما النوع الثالث فهو تنوع سياقي للصوت في مواقع مختلفة في الترتيب [96]: 116-117.

هذه الصفات تعرف بالصفات المميزة لأنها تساعد على التمييز بين الأصوات المشاركة في المخرج الواحد كما أشرنا سابقاً.

وهناك نوع آخر يعرف بالصفات المحسنة وهي التي تخص بعض الصوامت دون سواها مثل :

4.4.2.1.2. القلقلة: هي صفة الأصوات الشديدة المجهورة عند القدماء، وجمعوها في قولك "قطب جد" ، وقد رد على ذلك كمال بشر بأن الجيم ليست من الأصوات الانفجارية فهو من الأصوات المركبة. هذا فيما يخص صفة الشديدة، أما المجهورة فإن القاف والطاء في الدراسات الحديثة هي حروف مهموسة لذلك فهو يرى أن القلقلة تخص : الهمزة، القاف، الكاف، الجيم، الطاء، الدال، التاء، الباء،والضاد(في نطق المصريين)[89] ص:378-393، وهي الأصوات التي اعتبرها القدماء أصواتاً شديدةً تجمع في قولهم "أجد قط بكت" ، ولقد أضاف لها الضاد في نطق المصريين ومن شابههم.

<u>5.4.2.1.2.التكرير:</u>تكون في الراء بسبب تكرار ضربات اللسان على اللثة تكراراً سريعاً[89] ص:345.

<u>6.4.2.1.2 الانحراف:</u> يكون في اللام، وذلك لأن الهواء ينحرف عن طريقه ويخرج من الجانبين لوجود عقبة في وسط المجرى، تسمى اللام بالمنحرفة أو الجانبية[89] ص:347.

<u>7.4.2.1.2. الغنـــــــــة</u>: وهي الصوت الذي يخرج من الأنف وتكون هذه الصفة في الميم والنون لذلك سماها كمال بشر "الأصوات الأنفية" لصفتها [89] ص:348.

<u>8.4.2.1.2. الصفير</u> : صفة يراد بها شدة وضوح الصوت في السمع، ويكون ذلك نتيجة للاحتكاك الشديد، وقد اشتهرت السين والصاد والزاي بذلك إلا أن المحدثين يرون أنها صفة كل من: ث ، ذ ، ز ، س ، ش ، ص ، ظ ، ف . ويعتبر السين والزاي والصاد أعلاها صفيراً، حيث تختلف نسبة الصفير حسب ضيق مجرى الهواء عند النطق بالأصوات.[28] ص: 74-75.

ويمكن تلخيص هذه الصفات في الجدول التالي :

مخارج الأصوات	صفات الأصوات												
					احتكاكية								
شفوي	ب								و				م
شفوي أسناني							ف						
أسناني					ذ	ظ	ث						
أسناني لثوي	د	ض	ت	ط	ز		س	ص					
لثوي											ل	ر	ن
غاري							ش		ي	ج			
طبقي			ك		غ		خ						
لهوي			ق										
حلقي					ع		ح						
حنجري			ء				هـ						

فقد وصف الأصواتيون المحدثون الأصوات كما يلي:

- الدال: صوت أسناني اثوي، شديد، مجهور، مرقق[103] ص:93.
- الدال : صوت أسناني – لثوي، انفجاري ، مجهور [89] ص:129.
- الدال: صوت شديد مجهور [28] ص:48 .

و نخلص إلى أن المحدثين تناولوا الأصوات اللغوية اعتماداً على الأسس التالية:

1- تعيين مخرج الصوتّ : شفوي ، أسناني .....

2- تحديد طريقة مرور النفس في المخرج: انفجاري ، احتكاكي ،بيني .

3- تحديد حال الوترين الصوتيين: مجهور ، مهموس.

4- تحديد شكل أقصى اللسان : مطبق، منفتح .

5- ويمكن إضافة الصفة المحسنة للصوت، نحو: صفيري، مستعل ، متقلقل...

وبهذا يمكننا القول بأنّ المحدثين قد تمكنوا - بالاعتماد على التقنيات الحديثة – من الوصول إلى نتائج مهمة في مجال صفات الأصوات ومخارجها ، إلاّ أنهم مثل القدماء اختلفوا في عدد المخارج ، كما اختلفوا في المصطلحات التي اعتمدوها ،فهم بذلك لم يخالفوا الكوفيين فحسب بل اختلفوا حتى فيما بينهم كما وضحنا .

2.2.الدراسة الفونولوجية :

تمهيد:

لقد اختلف الدارسون في تحديدهم لمدلول مصطلح "phonology" مثلما اختلفوا في تحديدهم لمصطلح "phonetics" ، إذ حدد "دي سوسور"مجاله «بدراسة العملية الميكانيكية للنطق و عده بذلك علماً مساعداً لعلم اللغة»[88] ص:65 ، أي أنه العلم الذي يدرس الأصوات باعتبارها أنماطاً عامة، ويطلق على هذه الأنماط " الفونيمات" و قد توصل إلى أن لها جانبين؛ جانب عضوي يطابق حركات أعضاء النطق ، و جانب نفسي يتمثل في الانطباع السمعي .

أما علماء مدرسة براغ فقد ذهبوا إلى أن "phonology" علم « يدرس الفونيمات ، وهي العناصر المكونة للمعنى اللغوي،وهي عناصر غير مادية، إنها عناصر عقلية، ويكون تحقيقها المادي بوساطة الصوت الفعلي أو النطق »[89] ص:76 ، و نلاحظ أن استخدامهم لهذا المصطلح كان على عكس استخدام دي سوسور له.

في حين استعمل علماء اللغة في انجلترا و أمريكا مصطلح" phonology" لفترة طويلة لدلالة على « دراسة التغيرات و التحولات التي تحدث في أصوات اللغة نتيجة تطورها» [88] ص:66 ، ومع تطور الدراسات الصوتية ، وانتشار استخدام الفنولوجيا للدلالة على العلم الذي يدرس وظائف الأصوات، فضل الأمريكيون استخدام مصطلح جديد للدلالة على هذا المجال وهو "phoneme" لارتباط الفنولوجيا عندهم بالدراسة التاريخية [89] ص:99-102.

ولقد تعددت آراء العلماء وتنوعت حول مفهوم الفونيم باختلاف الاتجاهات اللغوية الحديثة و تنوعها ، وحتى لا نستغرق في هذه الاختلافات اخترنا تعريف دانيال جونز و الذي يرى فيه أن الفونيم عبارة عن « عائلة من الأصوات في لغة معينة، متشابهة الخصائص، مستعملة بطريقة لا تسمح لأحد أعضائها أن يقع في نفس السياق الصوتي، الذي يقع فيه الآخر»[104] ص:125-126، وهو بهذا يشير إلى الصفات التمييزية التي يتميز بها الفونيم عمّا يشبهه و يتقابل معه من الفونيمات في نفس اللغة، و مثال ذلك" الثاء" في اللغة العربية صفاته التمييزية هي:أسناني، مهموس،منفتح،فصفة أسناني تقابله مع جميع الفونيمات العربية،وتميِّزه عنها باستثناء"الذال والظاء" وصفة مهموس تميِّزه عن"الذال" المجهورة، وصفة منفتح : تميِّزه عن " الظاء " المطبق.

أما في الدراسات الصوتية العربية فقد ترجمه الدكتور " تمام حسان" إلى : " التشكيل الصوتي" في كتابه : مناهج البحث، وقد أطلق عليه الدكتور"كمال بشر" مصطلح " الفنولوجيا" على أساس التعريب ، ويرى أن (أحسن ترجمة له هي"علم وظائف الأصوات" على أساس أنه يبحث في الأصوات من حيث وظائفها في اللغة، ومن حيث إخضاع المادة الصوتية للتقعيد)[89] ص:67.

و ما هو معروف أن الكوفيين شأنهم شأن البصريين لم يفرقوا بين الحروف و الأصوات و التنوعات الصوتية مثلما نجد في الدراسات الصوتية الحديثة ، ولكنهم أدركوا أنّ ترتيب الحروف في ا لكلمات يخضع لقواعد و قوانين صوتية، إذ تساهم هذه القوانين في تحقيق الانسجام الصوتي في اللفظ وذلك عن طريق الإبدال و الإعلال و الإدغام.....و غيرها من الظواهر الصوتية ، لذلك سنخصص هذا المبحث من مذكرتنا لدراسة أحد هذه الظواهر ألا و هو الإدغام ، وذلك من منظور الكوفيين و المحدثين.

1.2.2. الإدغام عند الكوفيين :

تعتبر ظاهرة الإدغام من أبرز الظواهر الصوتية الفنولوجية في اللغة العربية ، التي تُظهر تأثر الأصوات بعضها ببعض عند تجاورها،حيث يؤثر الصوت الذي يكون في الموقع الأقوى مخرجاً أو صفةً في الثاني فيمنحه صفاته كلها أو بعضها، ولقد حضيت هذه الظاهرة بعناية العلماء منذ القديم ومنهم أهل الكوفة و ذلك لعلاقتها الوطيدة بالقراءات القرآنية ، واهتمامهم بهذه الظاهرة كان من باب الاهتمام بالقراءات القرآنية ، لذلك سنحاول التعرُّف على هذه الظاهرة من خلال ما ذهبوا إليه .

1.1.2.2. تعريف الإدغام :

لغـــــــــة: جاء في اللسان العرب:« دَغَمَ الغيثُ الأرض يدغمها ،وأدغمها :إذا غشيها وقهرها ... و الإدغام: إدخال اللجام في أفواه الدوابّ، و أدغم الفرس اللجام: أدخله في فيه ، وأدغم اللجام في فمه كذلك. قال الأزهري: وإدغام الحرف في الحرف مأخوذ من هذا ، و الإدغام إدخال حرف في حرف ، يقال : أدغمت الحرف و ادَّغَمته على افتعلته»[65] 366/4-367 ،من هذا التعريف نستشف أن للإدغام وجهين عل حسب المدغم و المدغم فيه ، وجه يكون فيه المدغم أقوى من المدغم فيه مثل إدغام الغيث في الأرض. و الوجه الثاني يكون فيه المدغم فيه أقوى من المدغم مثل إدغام الفرس اللجام .

اصطلاحاً : الإدغام في اصطلاح النحويين هو:«أن تصل الحرف ساكناً بحرف مثله متحرك من غير أن تفصل بينهما بحركة أو وقف، فيصيران لشدة اتصالهما كحرف واحد، يرتفع اللسان عنهما رفعةً واحدةً

شديدة، فيصير الحرف الأول كالمستهلك لا على حقيقة التداخل و الإدغام»[73] 10/ 121.

ويعرفه الرضي بقوله« و إنّما الإدغام وصل حرف ساكن بحرف مثله متحرك بلا سكت على الأول ، بحيث يعتمد بهما على المخرج اعتمادةً واحدة قوية (...) و ليس إدغام الحرف في الحرف إدخاله فيه على الحقيقة، بل هو إيصاله به من غير أن يفك بينهما.»[97] 235/3 .

نستخلص من التعريفين السابقين أن الإدغام هو النطق بحرفين حرفاً واحداً مشدّداً ،حيث يكون الحرف الأول ساكناً و الثاني متحركاً دون فاصل بينهما ، وهذا هو الأصل في الإدغام.

كما نلاحظ أنهما يقتصران على تصوير العملية الصوتية، حيث نجد وصفاً لوضع اللسان، كما أنهما لم يشيرا إلى ما قد يسبق هذه العملية من حذف للحركة أو قلب للصوت....

كما نستنتج أيضاً أن الإدغام لا يعني فناء صوتٍ في آخر، لقول الأول"كحرف واحد يرتفع اللسان عنهما رفعةً واحدة شديدة..."، و قول الثاني" ليس..إدخاله فيه على حقيقته، بل هو إيصاله به.." .

ويعتبر الإدغام من المصطلحات التي وضعها الخليل إذ يقول:" اعلم أنّ الراء في :اقشعرّ و اسبكرّ، هما راءان أدغمت واحدة في الأخرى، و التشديد علامة الإدغام"[13] 1/ 54 .

ولقد استخدم الكوفيون هذا المصطلح دون أن يغيروا في لفظه أو معناه ، وذلك لاستقراره ووضوح المفهوم الذي يدلّ عليه، وإن كان الفراء قد استخدم الفعل"دخلت"بدلاً من"أدغمت"، إلاَّ أنّ ذلك قليل جداً، نحو قوله: (.. ومدّكر فإنهم وجدوا التاء إذا سكنت واستقبلتها ذال دخلت التاء في الذال فصارت ذالاً ..)[48] 1/ 215، وهو يقصد بذلك الإدغام،فقد ذكره الفرّاء في كتابه بمشتقاته في مثل قوله:«"**وَإنِي عُتُّ بِربِّي و ربِّكُم..**" [الدخان:20] ، فأدغمت الذال أيضاً عند التاء. وذلك أنهما متناسبتان في قرب المخرج ، و الثاء و الذال مخرجهما ثقيل، فأنزل الإدغام بهما لثقلهما؛... فما أتاك من هذه الثلاثة الأحرف فأدغم ، و ليس ترك الإدغام بخطأ...»[48] 172/1 .

ومن قول الفرّاء هذا يمكننا استخلاص ما يلي:

-"عُتُّ" أصلها "عُذْتُ" أدغمت الذال الساكنة في التاء لتقاربهما في المخرج .

-الغرض من الإدغام : هو التخفيف ، لأنه يقول أدغمتهما لثقلهما ، حيث لجأ إلى الإدغام لتخفيف الجهد

العضلي الذي يبذله اللسان، وكذا سهولة النطق ومنه يمكننا القول أنّ الفرّاء كان على دراية بظاهرة الإدغام وأسبابها وغرضها .

2.1.2.2.أسباب الإدغام : أسباب الإدغام وهي العوامل التي ينشأ عنها ، وهي:

1.2.1.2.2.التماثل: وهو أن يتفق الحرفان في المخرج و الصفة كالباء و الباء،والدال و الدال ، والياء و الياء ....الخ

ولإدغام المتماثلين شروط ثلاثة:

- أن يكون الساكن متقدما عن الحرف المتحرك ، مثل :«**مِنْ نَاصِرِينَ** »[**آل عمران:21-22**].
- أن لا يكون الساكن منهما حرف مد ، مثل: «**الَّذِي يُوَسْوِسُ..** »[**الناس:05**] .

«**فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ**»[الماعون: 02] ، فيمنع الإدغام لئلا يذهب المد بسببه.

- أن لا يكون الساكن منهما هاء سكت،مثل « **..مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ**»[الحاقة ، الآية :28-29].

فالأرجح والمقدم الإظهار، وكيفيته أن يقف القارئ على ماليه وقفة لطيفة بدون تنفس في حال الوصل لأنها هاء سكت.

وأما من لم يعتد بهاء السكت فأدغمها فلا يشترط هذا الشرط ،وهذا الخلاف يجري كذلك في نقل حركة الهمز إلى هاء السكت في «..**اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ..**»[الحاقة ، الآية: 19-20]. ، والوجهان مقروء بهما .

فإذا توفرت هذه الشروط وجب إدغام المتماثلين سواء كان في كلمتين ، مثل :« **..اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ..**»" [الشعراء ، الآية: 63] '، أو في كلمة واحدة ، مثل"..«**يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ..** »[الشعراء ، الآية: 63] .

وقد أجاز الفراء إدغام "الرّاء" في " الراء"، في مثل قوله تعالى : « **شَهْرُ رَمَضَانَ...**» [الشعراء :185] ، على وجهين: « أحدهما :أن يجتمع بين الساكنين، الهاء من "شَهْر" و الراء منه ، وهذا عنده جيد ليس بمنكر و الوجه الآخر:أَنْ تُلْقَى حركةُ "الراء" على "الهاء"، فتقول: شهر رّمضان، واستضعف هذا الوجه وأجازه..»[98] ص:82 .

2.2.1.2.2. أن يتحد الحرفان في المخرج ويختلفا في الصفة ، وهذا ما أطلق عليه" أحمد بن أبي عمر الأندرابي" مصطلح "التجانس"[73] 10/ 121 ، ويكون في نحو:

* إدغام التاء في الطاء: في مثل قوله تعالى:«..**فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ...**» [الصّف : الآية:14] .

و في هذا ذكر الفراء أنَّ « تاء افتعل إذا كان فاءُ الفعل من حروف الإطباق ، إنّما قُلِبَت طاء، لأنّ التاء حرفٌ أخرس لا يخرج له صوت ، إذا بَلَوْتَ ذلك وجَدْتَه، فكرهوا إدغام مصوّت في حرف أخرس ، فلمّا فاتهم الإدغام وجدوا الطاء معتدلةً في المخرج بين التاء و الصاد»[98] ص:63.

ومنه فإنّ "التاء" و "الطاء" يتفقان في المخرج ولكنهما يختلفان في الصّفة ،حيث يُرجِع سبب ذلك إلى أنّ " التاء" صوت أخرس (شديد، انفجاري)، وحروف الإطباق حروف مصوتة (رخوة،احتكاكية)، لذلك قُلبت"التاء""طاءً" لمجانسة تلك الحروف في صفة المصوت.

ولكننا ندرك أنّ السبب الذي ذكره الفرّاء ليس صحيحاً ، لأنّ حروف الإطباق هي: الصاد والضاد و الظاء و الطاء ، وهذا الأخير –الطاء- ليس مصوتاً

فهو حرف أخرس مثله مثل "التاء" ، فلماذا تقلب "التاء" بعده "طاءً" وهي من مخرجه ومن صفته؟

ولهذا فالصحيح أنّه يتم إبدال "تاء" (افتعل) "طاء" إذا كان فاؤه أحد حروف الإطباق لأنّ " الطّاء" من حروف الإطباق، وهي من مخرج التاء ، فقلبت التاء لمجانسة حروف الإطباق في هذه الصفة (الإطباق)[15] 460/4 .

3.2.1.2.2.التقارب: وهو أن يتقارب الحرفان مخرجاً أو صفة، في نحو:

إدغام اللام في الراء ، في مثل قوله تعالى:

" **بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ**" [النساء، الآية : 158.]. "**وَقُلْ رَبِّ** " [طه ، الآية:114].

فقد أجمع القراء على إدغام "اللام" في"الراء" ، ويقول الفراء«إن اللام تدخل في الراء دخولاً شديداً»[48] 354/2 ، وذلك لتقارب مخرجَيْهما ،وتقاربهما في الصفات الأساسية كالجهر والانفتاح والتوسط بين الشدة و الرخاوة.

وكذلك الأمر بالنسبة لإدغام "اللام" في "النون"(لأنها قريبة المخرج منها) [48] 353/2.

وقد يتقارب الحرفان المدغمان في المخرج و يتباعدان في الصفة ، مثل إدغام "الدال"في"السين" في مثل قوله تعالى: **(قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الّتِي تُجَادِلُكَ...)** [المجادلة ، الآية : 01.] ، فالدال قريبة المخرج من السين ، إلاّ أن الدال صوت مجهور أخرس (شديد)، أما السين فهي مهموسة مصوتة (رخوة).

وقد يتباعد الحرفان في المخرج و يتقاربان في الصفات المميِّزة ، مثلَ قراءتهم لقوله تعالى:

(وَ إِذْ جّاءوكم...)[الأحزاب:10] بإدغام "الذال" في "الجيم" رغم تباعد مخرجيهما ، حيث تنتج "الذال"

عن التقاء طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا ، أمّا "الجيم" فتخرج من وسط اللسان مع ما يقابله من الحنك الأعلى ، إلاّ أنهما يشتركان في صفة الجهر ، والتصويت (الرخاوة)، والانفتاح مثلما وضّحنا في حديثنا عن الصّفات.

وينبغي الإشارة إلى أن الكوفيين لم يستخدموا مصطلح التجانس-وكذلك الأمر بالنسبة للبصريين- في حديثهم عن الإدغام،حيث ذكروا التماثل،والتقارب-للدلالة على التقارب في المخارج أوالاشتراك-ولقد أوردنا هذا المصطلح لأنه اشتهر وأخذ مكانه في الدراسات الصوتية العربية .

<u>3.1.2.2 . أنواع الإدغام :</u> ينقسم الإدغام إلى :

1.3.1.2.2.الإدغـــــــــــــــام الصغير:

هو "ما كان الحرف الأول منه ساكناً ومنه واجب وجائز وممتنع ، والجائز ما اختلف القراء فيه وينحصر في فصول ستة وهي: إذ ،وقد ،وتاء التأنيث ، وهل وبل، وحروف قربت مخارجها، والنون الساكنة والتنوين" [106]ص:94-95 ، فهو إدغام الأول الساكن - في الأصل- في الثاني المتحرك. وهذا بسبب التماثل أو التقارب ، أو التجانس . و الأمثلة التي ذكرناها سابقاً أثناء حديثنا عن أسباب الإدغام تندرج ضمن هذا النوع. و الذي يكون فيه التأثير رجعياً بين الحرفين المدغمين ، حيث يؤثر الثاني في الأول.

2.3.1.2.2.الإدغـــــام الكبير:

والمقصود به أن يكون الصوت المُدغم متحركاً ، فيلزم للإدغام أن تحذف هذه الحركة.وبذلك يمكن أن يقال: إن الإدغام الكبير يستلزم إجراء عمليتين:

الأولى حذف الصوت المدغم ، ليتم التقاء الصوتين التقاء مباشراً.

الثانية: قلب الصوت الأول من مثل الثاني لتتم المماثلة بين الصوتين على صورة الإدغام[107] ص:239

- وجاء في النشر أنّ المدّغم من المتماثلين وقع في سبعة عشرة حرف وهي : الباء والتاء والثاء والحاء والراء والسين ، والعين والغين والفاء والقاف والكاف واللام والميم والنون والواو والهاء والياء [07] 279/1.

ومن أمثلة الإدغام الكبير من المتماثلين في قراءة الكسائي[108 مرقم على حسب الصور في المصحف الشريف] :

النمـــــــــــــوذج	السبب	السورة	الآيـــة
إدغام الباء في مثلها «...**لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ**...»	تماثل	البقرة	20
إدغام التاء في مثلها«...**الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا**...»	تماثل	المائدة	106
إدغام الثاء في مثلها «...**حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**...»	تماثل	البقرة	191
إدغام الحاء في مثلها «...**النِّكَاحِ حَتَّى**...»	تماثل	البقرة	235
إدغام الراء في مثلها «**شَهْرُ رَمَضَانَ**...»	تماثل	البقرة	185
إدغام الميم في مثلها «...**طَعَامُ مِسْكِينٍ**...»	تماثل	البقرة	184
إدغام العين في مثلها «...**الَّذِي يَشْفَعُ**...»	تماثل	البقرة	255
إدغام النون في مثلها «...**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ**...»	تماثل	البقرة	30
إدغام الهاء في مثلها «...**آَيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا**...»	تماثل	البقرة	231
إدغام الياء في مثلها «...**يَأْتِيَ يَوْمٌ**...»	تماثل	البقرة	254

جدول رقم 05: نماذج من الإدغام الكبير في قراءة الكسائي

ومن شروطه:

- أن يلتقي الحرفان خطاً ولفظاً أو خطاً لا لفظاً ، ليدخل في مثل: "...**إِنَّهُ هُوَ..**" [يوسف: الآية:34]. ، ويظهر نحو: "..**أَنَا نَذِيرٌ..** " [العنكبوت، الآية: 50]. من أجل وجود الألف خطاً.

- وأن يكون المدغم فيه أكثر من حرف إن كان الإدغام في كلمة واحدة ، نحو" خلقكم" ، فأما "خلقك" فلا إدغام فيها ، لأن المدغم فيه على حرف واحد [07] 1/ 278.

- الإدغام الكبير من المتقاربين :

أما المدغم من المتقاربين فهو ستة عشر حرفا وهي: الباء والتاء والثاء والجيم والحاء والدال والذال والراء والسين والشين والضاد والقاف والكاف واللام والميم والنون[07] 1/ 279.

أما موانعه فهي:

1- أن يكون الحرف الأول تاء ضمير للمتكلم أو مخاطب نحو: " **كُنتُ تُرَابا**" [النبأ: الآية: 40]
2- أن يكون الحرف الأول مشدّدا نحو: "**مسَّ سَقَر**" [القمر ، الآية : 48.]
3- وأن يكون الحرف الأول منوناً نحو: "**غفورٌ رحيم**" [الأنعام، الآية:145.] ، "**سميعٌ عليم**" [النور، الآية:21.] .

4.1.2.2 . مواضع الإدغام عند الكوفيين:

بما أن القدماء رتبوا الحروف من الحلق إلى الشفتين ، سنحاول دراسة الإدغام اعتماداً على ذلك الترتيب .

1.4.1.2.2. حروف الحلق :

وهي " الهمزة و الهاء و العين و الحاء والخاء و الغين" وفيها يقول الفراء: «إنّما يعلم ما تناسب من الحروف باللغة أن يُبْدَلُ الحرف من أخيه في قافية واحدة، مثل: مَدَحَ ومَدَه ، والميم و النون في قافية، و العين و الهمزة، مثل: استأديت ،و استعديت ، وهذا كثير يبدل الحرف من أخيه، فيدغم فيه إذا قَرُبَ هذا القرب. »[98] ص:60، وما نفهمه من هذا القول أن الهاء تدغم في الحاء لأنهما متقاربتان في المخرج ، ولأنه يمكن أن تحل إحداهما محل الأخرى كما في المثال الذي ذكره،وكذلك الأمر بالنسبة للهمزة و العين.

وهذا ما ذهب إليه ثعلب حيث يرى إدغام الهاء في الحاء، و الخاء في الهاء وذلك لأن «اللغة قد أوجبت إدغام كلّ واحد منهما في صاحبه ، إذ وجب أن يقوم كلّ واحد منهما مقام صاحبه في قولهم : المدح و المده، فهذا القياس، وكذلك جعل الهمزة و العين متداخلتين من حيّز واحد لإبدال أحدهما من الآخر في قولهم :استعديت ، واستأديت»[98]ص:61.

وقد اعتبر السيرافي هذا خطأ فاحشاً في باب الإدغام ، لأن القبول بمبدأ الإدغام فيما يجوز البدل منه يؤدي بنا إلى إدغام "العين في الهمزة" و "الهاء في الهمزة" ، وهذا غير وارد ، لذلك رفض مبدأ الفراء [98]ص:61.

ولعل الفراء لم يقصد كلّ الحروف التي يتم فيها الإبدال، وإنما قصد هذه الحروف فقط ، ولقد ذكر النحاة إدغام الهاء في الحاء[15] 342/4 ، لقرب مخرجيهما و اشتراكهما في صفة الهمس، ورفضوا البقية ، لأنه من الصعب إدغام حرف من حروف الحلق في حرف أعمق منه مخرجا.

و إذا اجتمعت همزتان في الكلمة و كانتا مفتوحتين ،فقد قرأها الكسائي بهمزهما جميعاً حيث وقعا ، ومثال ذلك قوله تعالى: "..ءَأَنْذَرْتَهُمْ .." [البقرة ،الآية :06]. ، وإن اختلف القراء في اجتماع الهمزتين فمنهم من حققهما ، ومنهم من قرأها بين بين ...الخ ، ولكنهم لم يدغموها في مثيلتها.[109] ص:70-84.

2.4.1.2.2. أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى: ويمثلها

القاف: تدغم في الكاف إذا تحرك ما قبلها، نحو:"**وخلق كلَّ شَيءٍ..**" **[الفرقان:02]**"، وكذلك إذا كان معها في كلمة واحدة وكان بعد الكاف ميم، نحو:"...خَلَقَكُم..." [بالبقرة:26] .

وإذا سكن ما قبل القاف لم تدغم، نحو:"...**وَفَوْقَ كُلّ ذي علْم عَليمٌ**"[يوسف: 76] ، وقوله أيضا :

"...ميثاقكم..." [البقرة:63-84-73].

3.4.1.2.2.أسفل موضع القاف:

الكاف: تدغم في القاف إذا تحرك ما قبلها نحو: "ونقدس لك" [النحل:69]، فإذا سكن ما قبلها لم تدغم نحو:"...**وتَركُوكَ قَائمًا...**"[الجمعة:11] .

4.4.1.2.2. وسط اللسان مع وسط الحنك الأعلى:

-الشين: تدغم في حرف واحد وهو السين، في قوله تعالى: "...**ذي العَرْش سَبيلاً** " [لإسراء ، الآية :42.].

-الجيم: يدغم في موضعين:

- تدغم الجيم في الشين في مثل قوله تعالى:" ..**أَخْرَجَ شَطْأَهُ** .." [الفتح:29.].

- تدغم الجيم في التاء ،في مثل قوله"**ذِي المَعَارِجِ تَعْرُجُ الملائكة..**".[المعارج ، الآية: 3]

5.4.1.2.2. بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس:

-الضاد: تدغم الضاد في الشين في نحو:"...**لبَعْضِ شَأْنِهِمْ...**" [النور، الآية:62]، وذلك لقرب مخرجيهما.

6.4.1.2.2. من بين حافة اللسان وما يليها من الحنك الأعلى:

ـ **اللام:** تدغم في الراء إذا تحرك ما قبلها نحو: "...**سُبُلَ رَبِّكَ...**"[النحل:69] ،وإن سكن ما قبلها أدغمت مضمومة

ومكسورة،نحو:"...**يَّقُولُ رَبَّنَا...**" [البقرة، الآية:201.] ، و"...**سَبِيلِ رَبِّكَ...**" [النحل، الآية: 125.] ، وأظهرت مفتوحة نحو:"...**فَيَقُولَ رَبِّ...**"[المنافقون، الآية:10].
أما "لام" "قال" فإنها تدغم حيث وقعت، نحو:"**قَالَ رَجُلَانِ...**" [المائدة، الآية:23.]
وتدغم اللام الساكنة عند الذال في مثل: " ...**وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَلِكَ...**"[البقرة، الآية :231.] أدغمها أبو الحارث عن الكسائي وأظهرها الباقون) [07] 13/2.

كما تُدغم لام "هل وبل" في ثمانية أحرف قرأ الكسائي بالإدغام في جميعها ،وذلك في : التاء،والثاء،والزاي، والصاد،و الضاد،و الظاء،و السين،و النون[109] ص:119.

أما "لام المعرفة" فقد رُوي عن الفراء أنّه قال: «حكى الكسائي أنه سمع العرب تبيّن اللام ـ يعني لام المعرفةـ عند كلّ الحروف، إلاّ عند اللام مثلها، أو الراء أو النون قال: ـالكسائي ـ قال بعضهم: اَلْصامت، ولم أسمعها من االعرب »[98] ص:69 ، أما البصريون فيرون أنها تدغم في ثلاثة عشر حرفاً[15] 457/4.

7.4.1.2.2. بين طرف اللسان وما فويق الثنايا:

ـ **النون:** (النون تدغم في الراء، ليس بين الناس في ذلك خلاف ، ولا تُدْغم الراء في النون عند الفراء ولا غيره)[98]ص:62 ، كما تدغم في اللام .

وللنون الساكنة أحكامٌ ؛ حيث تظهر من موضع نطقها الأصلي إذا كانت متبوعة بحروف الحلق "ء ،هــ ، ع ، ح ، غ، خ" إذ تساعدها على الظهور التام .

وتقرأ بالإخفاء ــ صفة بين الإظهار و الإدغام ــ عندما تكون متبوعة بالأصوات التالية : ص، ف،ذ، ث،ز،ك،م،ج،ش،ق،س،د ، ظ،ض،ط . وفي هذه الحالة لا تنطق النون من موضعها ، فإذا كانت :

ــ متبوعة بالجيم تصبح غارية. ــ متبوعة بالكاف تصبح طبقية. ــ متبوعة بالقاف تصبح لهوية.

كما اعتبر الفراء النون الساكنة بعد الباء مخفية، في مثل " عنبر" ، وذهب البصريون إلى أنها "ميم"، وهو الصحيح ، كما يجوز نطقها نوناً و لكن بشرط بيانها[98]ص:63.

وتدغم النون إذا كانت متبوعة بالأصوات التالية: الياء، الراء، الميم، النون، اللام، الواو. وينقسم هذا الإدغام إلى نوعين:

الإدغام بالغنة : ويكون مع حروف أربعة مجموعة في كلمة "ينمو" ، فعند وقوع أحد هذه الأحرف

الأربعة بعد النون الساكنة من كلمتين وجب الإدغام بغنة.

الإدغام بغير غنة :يأتي مع حرفين "اللام والراء" إذا أتيا بعد النُون الساكنة أو التنوين في كلمتين، حيث لم يقع منه في القرآن ما كان في كلمة واحدة.

ونستخلص من هذا أن مُصطلح الإدغام بغير غنة يختص بحرفي "اللام والراء" لتقاربهما في المخرج وفي أكثر الصفات ، فالحرف الأول ساكن يدغم تماما ولم يبق له أثر في النطق

حيث يدخل في الحرف الثاني المتحرك ، فلا وجود للغنة ،وهذا لأن(تيار الهواء لا يخرج من الأنف عند نطق المدغم ، بل من الفم، ومثال ذلك في قراءة عاصم ، عندما تكون النون متبوعة بالراء واللام ، "من له" تنطق "ملّه" ،"من رب" تنطق"مِرْرَب")[46] ص:100.

8.4.1.2.2. أدخل من النون في ظهر اللسان:

ــ **الراء:** تدغم في اللام نحو: "...**هُنَّ أَطْهَرُ لَكُم....**" [هود ، الآية: 78].و في قوله : "**...المَصِيرُ لا يُكَلِّفُ...**" [البقرة، الآية: 285ــ286] .

9.4.1.2.2. من بين طرف اللسان وأصول الثنايا: وفيها:

الطاء: تدغم في التاء ؛ حيث يقول الفراء:«و الطاء و الدال يدغمان عند التاء أيضاً إذا أسكنتا؛ كقوله : " ... **أَحَطْتُ بِماَ لَمْ تُحِطْ بِهِ...**" [النمل:22] تخرج الطاء في اللفظ تاء، وهو أقرب إلى التاء من الأحرف الأُوَل، تجد ذلك إذا امتحنت مخرجيهما» [48]172/1 ، ومنه فإن سبب إدغام الطاء في التاء اشتراكهما في المخرج.

الدال: تدغم في عشرة أحرف: التاء، والثاء ،و الجيم ، والذال ،و الزاي ، والسين ،و الشين ، والصاد ، والضاد، والظاء. إلا أن تكون الدال مفتوحة وقبلها ساكن فإنها لا تدغم إلا في التاء لاشتراكهما في المخرج ؛ كما ذكر الفراء في القول السابق.

تدغم في التاء نحو: "...**فِي المَسَاجِدِ تِلْكَ...**" (البقرة :187)

تدغم في الثاء نحو :"..**يُرِيدُ ثَوَابَ..**" (النساء:134)

تدغم في الجيم نحو:"..**دَاوُدُ جَالُوت**.." (البقرة: 25)

تدغم في الذال نحو:"..**والقَلَائِدَ ذَلِكَ**.." (المائدة: 97)

تدغم في الزاي نحو "....**يَكَادُ زَيْتُهَا**......" (النور :35)

تدغم في السين نحو:"..**فِي الأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم..**" (إبراهيم :49-50)

تدغم في الشين نحو:"...**وَشَهِدَ شَاهِدٌ....**" (يوسف:26)

تدغم في الصاد نحو:"..**نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ..**" (يوسف 72)

تدغم في الضاد نحو:" **مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ**" (يوسف :21)

تدغم في الظاء نحو:"... **يُرِيدُ ظُلْمًا...**" (آل عمران :108).

و تدغم الدال الساكنة عند الثاء"...**وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ...**"[آل عمران، الآية: 145.].أدغمها الكسائي و حمزة و أبو عمرو، و علة ذلك أن الدال أقوى من الثاء في الجهر.

التاء: تدغم في عشرة أحرف وهي : الثاء والجيم ، والذال ، والزاي ، والسين ،والشين، وحروف الإطباق. . [7] 287/1-289

إدغام التاء في الثاء « ...**بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ** ...» سورة: المائدة : 32

إدغام التاء في الجيم «...**نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ**...» سورة: النساء : 56

إدغام التاء في الذال « **فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا** » سورة : الصافات : 03

إدغام التاء في الزاي «**فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا**» سورة :الصافات : 02

إدغام التاء في السين «**وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ...**» سورة : يوسف : 19

إدغام التاء في الشين «...**بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ...**» سورة : النور : 13

إدغام التاء في الصاد "..**المَلائِكَةُ صَفًّا..**" سورة: النبأ : 38

إدغام التاء في الضاد «**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا**» سورة: العاديات : 01

إدغام التاء في الطاء «...**الصَّالِحَاتِ طُوبَى...**» سورة: الرعد : 29

إدغام التاء في الظاء «...**حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا...**» سورة: الأنعام : 146 .

وقد قال الفراء في إدغام التاء في الثاء: «وقوله:"**مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ**" [البراءة ، الآية : 38.] معناه و الله أعلم (تثاقلتم) فإذا وصلتها العرب بالكلام أدغموا التاء في الثاء ؛لأنها مناسبة لها ،

ويحدثون ألفاً لم يكن ؛ ليبنوا الحرف على الإدغام في الابتداء و الوصل، وكأن إحداثهم الألف ليقع بها الابتداء، ولو حذفت لأظهروا التاء لأنها مبتدأة، و المبتدأ لا يكون إلا متحركاً »[48] 437/1-438 .

وكذلك الأمر بالنسبة للدال و الزاي و الطاء في مثل قوله تعالي: " ...**ادَّارَكُوا**..."[الأعراف،الآية : 38].

" ...وَازَّيَّنَتْ.." [يونس، الآية: 24]. ، " ...اطَّيَّرْناّ..."[ا لنمل، الآية: 48.]، والمقصود منها حسب الفراء:

تداركوا، تزينت، تطيرنا.[48] 438/1 وأدغمت التاء فيا لقربها أو مشاركتها في المخرج.

ولقد ذكرنا سابقاً في موانع الإدغام أن يكون الحرف الأول تاء ضمير ، ولكننا نجد الكسائي و حمزة يدغمان "تاء التأنيث" مع : الثاء و الجيم و الزاي و السين و الصاد و الظاء.[109] ص:117-118.

10.4.1.2.2. من بين طرف اللسان وفويق الثنايا: ويصدرعن هذا المخرج:

السين و الزاي و الصاد:

تدغم السين في الزاي في قوله تعالى : "**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**" (التكوير:7)

وفي الشين في"..**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا..**" (مريم:4)

وقد ذهب سيبويه إلى أن حروف الصفير تدغم أخواتها فيها ولا تدغم فيهن؛ لأنهن أندى في السمع[15] 461/4-465 ، وهذا مذهب القراء أيضاً إذ لم يذكروا إلا إدغام " السين في الشين" ، أما ثعلب الكوفي فقد اعترض على رفض سيبويه إدغام الضاد في هذه الحروف ــ لاستطالتهاــ بأن النون تدغم في اللام

مع أنها "مغنونة " فما الفرق بينها و بين "المستطيلة" . وما يفهم من مقارنته بين " النون" و "الضاد" هو أنه يعتبر أن النون لا تدغم في غيرها ، وهذا ينافي مذهب الكوفيين، وقد ردّ عليه السيرافي بأنه لو كانت حروف الصفير تدغعم في غيرها لقلنا : "اطّبر" في اصطبر ، ولكن العرب تقول:" اصّبر". [98] ص: 65-66.

11.4.1.2.2. بين طرف اللسان وأطراف الثنايا: ويشمل هذا المخرج:

الظاء و الذال و الثاء:

والذال تدغم في السين نحو: "**فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ** " (الكهف:61-63

و تدغم في الصاد" **...مَا اتَخَّذَ صَاحِبَةً** " (الجن :3).

وتدغم " الذال" من "إذ " في ستة أحرف : التاء ،الدال،الزاي،السين،الصاد،الجيم، ولقد قرأها الكسائي بالإظهار عند"الجيم" فقط [109] ص:116.

وقد قال الفراء في هذه الحروف :«وقد جرى الكلام بالإدغام للثاء؛ لقيت التاء و هي مجزومة، وفي قراءة عبد الله:" اتَّخَتُّم العجل " [البقرة ، الآية : 92.]و " و إني عُتٌّ بربي وربكم" [الدخان، الآية: 20.] فأدغمت الذال أيضاً عند التاء، وذلك أنهما متناسبتان في قرب المخرج،و الثاء و الذال مخرجهما ثقيل ، فأنزل الإدغام بهما لثقلهما ... و كذلك الظاء تشاركهن في الثقل، فما أتاك من هذه الثلاثة الأحرف فأدغم، وليس ترك الإدغام بخطأ، إنما هو الاستثقال»[48] 172/1. ونخلص إلى أن هذه الحروف تدغم في التاء لقرب مخرجها من مخرج التاء ، و تجنباً للثقل.

12.4.1.2.2.الحروف الشفوية:

الفاء و الباء و الميم:

تدغم الفاء عند الباء:" نخسف بهم الأرض" [سبأ، الآية: 09.] أدغمه الكسائي وحده، وعلة إدغامه أن الفاء و الباء تشتركان في المخرج من الشفتين ،و اشتراكهما في منع إدغام لام التعريف، وقد كره البصريون ذلك لزوال التفشي الذي في الفاء، فهي قراءة الكسائي فقط [110] 155/1.

تدغم الباء في الميم "**يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ**"، وذلك في خمسة مواضع "آل عمران: 129، المائدة:18-40، العنكبوت:21،الفتح:14، " أدغمها الكسائي، وهو جائز عند النحاة إلا أنهم يمنعون إدغام الميم في الباء[15] 447/4.

كما أدغم الكسائي الباء في الفاء، في قوله تعالى:"...أَوْ يَغْلِبَ فَسَوْفَ..." [النساء، الآية:74] .

ولقد ذهب الفراء إلى أن كلّ حرف إذا شدِّد أدى مثله إلا الميم ، لأنها إذا شدِّدت صارت نوناً ــ عنده ــ أما السيرافي فيرى أن ذلك توهم منه لأن الميم و النون يشتركان في صفة الغنة[98] ص:67-68 .

13.4.1.2.2. الحروف الهوائية:

الياء: لا تدغم الياء في الشين و لا في الجيم ، وتدغم في مثلها، نحو قوله تعالى:" **وَ يَحْيَ مَنْ حَيّ عَنْ بَيّنَة**" [الأنفال، الآية:42.] (كتابتها على الإدغام بياء واحدة،وهي أكثر قراءة القراء،وقد قرأ بعضهم "حييَ عن بيّنة" بإظهارها ،وإنما أدغموا الياء مع الياء ،وكان ينبغي لهم ألا يفعلوا؛ لأن الياء الآخِرة لزمها النصب في فَعَلَ، فأدغموا لمّا التقى حرفان متحرّكان من جنس واحد، ويجوز الإدغام في الإثنين للحركة اللازمة للياء الآخرة،فتقول للرجلين:قد حَيَّا وحييَا وينبغي للجمع ألا يدغم لأنَّ ياءه يصيبها الرفع وما قبلها مكسور، فينبغي لها أن تسكن فتسقط بواو الجمع، وربما أظهرت العرب الإدغام في الجمع إرادة تأليف الأفعال وأن تكون كلها مشدّدة، فقالوا في حَيِيت حَيُّوا...)[48] 411/1- 412 ،

أما إذا كانت الياء حرف مد فلا يجوز إدغامها لأن الإدغام يخص الصوامت لا الصوائت.

هذه أشهر مواضع الإدغام عند الكسائي[07] 287/1،[111] ص:23-28، ولقد حاولنا أن نضمن فيها آراء الفراء المتناثرة في كتابه ، وفيما نقله عنه السيرافي .

وبهذا نخلص إلى أن الغرض من الإدغام عند الكوفيين هو التخفيف و تجنب الثقل، ويكون بسبب التماثل أو التقارب ، ويشمل هذا الأخير الاشتراك في المخرج و التقارب في المخارج أو الصفات،

كما خالفوا البصريين في عدة مسائل منها :

إن علة إبدال "تاء افتعل" إذا كان فاؤه من حروف الإطباق لأن "التاء" صوت أخرس ، وحروف الإطباق مصوتة في حين ذهب سيبويه إلى أنها قلبت طاءً لمجانسة حروف الإطباق في صفة الإطباق ، لا لمجانستها في صفة المصوت كما ذهب الفراء.

وكذا إدغام "الفاء" في "الباء" مثلما وجدنا في قراءة الكسائي.

وغيرها من المسائل التي عرضناها.

2.2.2 .المماثلة عند المحدثين

لقد حضيت ظاهرة الإدغام في البحث اللغوي الحديث بالاهتمام الكبير مثلما نالته عند القدماء ؛ من حيث التفسير والتحليل والتعليل ووضع القواعد والقوانين الصوتية التي نضبطها.و ذلك ضمن مفهوم المماثلة " ASSIMILATION" الذي ظهر في الدراسات الصوتية الغربية ، و التي تهتم بدراسة تأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض في الكلام .

ولقد اهتم المحدثون بدراسة هذه الظاهرة في التراث النحوي واللغوي والقراءات القرآنية ، وتحدثوا عن القبائل التي كانت تميل إلى الإدغام، والقبائل التي كانت تميل إلى الإظهار والبيان ، ولم يخرجوا في أثناء معالجتهم لهذه الظاهرة عن إطارها القديم الذي وضعه العلماء العرب القدماء ، باستثناء ما أفاده المحدثون من المناهج الغربية في دراسة موضوع المماثلة والتقريب بين الأصوات اللغوية سواء كانت صوائت أو صوامت . فما هي المماثلة؟ وما هي أنواعها؟

1.2.2.2. **مفهوم المماثلة الصوتية:**

عرفها الدكتور احمد مختار عمر بأنها (التعديلات التكييفية للصوت بسبب مجاورته – ولا نقول ملاصقته- لأصوات أخرى.وهي..تحول الفونيمات المتخالفة إلى متماثلة إما تماثلاً جزئياً أو كلياً)[88] ص:378 .

ذلك أن الأصوات في تركيبها تتأثر ببعضها محدثة نوعا من التماثل و التشابه " ليزداد مع مجاورتها قربها في الصفات أو المخارج، ويمكن أن يسمى هذا التأثر بالانسجام الصوتي بين أصوات اللغة"[28] ص:178.

و منه فإن المماثلة تهدف إلى تقريب الأصوات من أجل تحقيق الانسجام الصوتي ، كما يساعد ذلك على تسهيل النطق ، و اقتصاد الجهد العضلي. فهي نوع من أنواع التغيرات الصوتيه التي تحدث في الكلام من أجل الاقتصاد في الجهد العضلي .

كما أن نسبة التأثر تختلف من صوت إلى آخر ، فمن الأصوات ما هو سريع التأثر يندمج في غيره أكثر مما قد يطرأ على سواه من الأصوات ، ومجاورة الأصوات بعضها لبعض في الكلام المتصل هي السر فيما قد يصيب بعض الأصوات من تأثر.

والأصوات في تأثرها تهدف إلى نوع من المماثلة أو المشابهة بينها ليزداد مع مجاورتها قربها في الصفات أو المخارج ، ويمكن أن يسمى هذا التأثر بالإنسجام الصوتي بين أصوات اللغة ، وهذه ظاهرة شائعة في كل اللغات بصفة عامة ، غير أن اللغات تختلف في نسبة التأثر وفي نوعه [112] ص:117-118.

حيث يكون الانسجام في اللغة «بتآلف اللفظ و تآخيه صوتياً ودلالياً مع اللفظ السابق له ، أو اللاحق عليه فيحسن تموقعه و بعلاقته ببقية الألفاظ تحسن ديباجة الكلام ، ويكون ذا طلاوة وحسن عذوبة »[113] ص:13.

كما يعتبر المستوى الصوتي في اللغة أهم المستويات التي يشترط فيها الانسجام ، لأنه يتعلق بالآداء مباشرة، بالإضافة إلى أن تنافر الأصوات يجعل الكلمة ثقيلة على اللسان ؛ حيث يتعسر النطق بها ، فإذا اجتمع في الكلمة الواحدة صوتان يتصف أحدهما بصفة مناقضة للآخر كالجهر و الهمس، أو التفخيم و الترقيق يؤدي ذلك إلى مشقة في تحقيقها ، فيلجأ المتكلم إلى التخلص من صفة أحدهما لتسهيل النطق و تحقيق الانسجام ، كما أن الإنسان يميل بفطرته إلى الاقتصاد في كل الأنشطة ومنها اللغة والتي يسعى من خلالها إلى تحقيق المراد بأقل مجهودٍ.

و بهذا نخلص إلى أن المماثلة هي تأثر الأصوات بعضها ببعض عند نطقها في الكلمات و الجمل مما يؤدي إلى تغيير مخارج بعضها و صفاتها لكي تتفق مع الأصوات الأخرى المحيطة بها في المخرج و الصفة ، وينتج عن ذلك الانسجام بين الأصوات المتنافرة ، و هذا لتسهيل عملية النطق و اقتصاد الجهد العضلي .

و للمماثلة في التراث العربي معانٍ و مصطلحات عديدة ، منها

1- بمعنى المضارعة : وهذا ما نجده عند سيبويه ، الذي عقد في كتابه باباً بعنوان : "هذا باب الحرف الذي يضارع به حرف من موضعه....."[15] 477/4 .

2 ــ بمعنى المقاربة أو التقريب: فقد تعرض الفراء في كتابه لظاهرة المماثلة معبراً عنها بالمقاربة، حيث يقول:(فأمّا الذين يقولون يَدّخِر و يدّكر و مدّكر ، فإنهم وجدوا التاء إذا سكنت واستقبلها ذال دخلت التاء في الذال فصارت ذالاً فكرهوا أن تصير التاء ذالاً فلا يعرف الإفتعال من ذلك ، فنظروا إلى حرف يكون عدلاً بينهما في المقاربة فجعلوه مكان التاء و مكان الذال)[48] 48/1 .

و هذا ما يعرف حديثا بالمماثلة .

ولقد أشار إبراهيم أنيس في حديثه عن المماثلة إلى تفطن النحاة والقراء منذ القديم إلى التغيرات التي تحدث لبعض أصوات اللغة الفصيحة في أثناء النطق ، وخشوا أن يصيب النطق الفصيح والنطق' القرآني شيء من هذا التغير الصوتي الذي يؤدي فيما بعد إلى الغموض والالتباس في الصيغ والمعاني، فعملوا على وضع قوانين صوتية خاصة بتأثر الأصوات في أثناء النطق وميلها إلى الانسجام مع مجاورها ، وتفسير أصولها وتعليل ذلك التغير[28] ص:118.

ولهذا يمكننا القول إن القدماء عرفوا المماثلة وتناولوها في الإدغام و الإبدال .

2.2.2.2 .أنواع المماثلة:

تختلف طريقة التأثر بين الأصوات لذلك تعددت أشكال المماثلة و تنوعت ، وصنَّفها علماء الأصوات وفق اعتبارات متعددة ، نلخصها فيما يلي:

1.2.2.2.2 . حسب اتجاه التأثر :

فإذا أثر الصوت الأول في الثاني كانت المماثلة مَقْبِلة أو تقدمية، و إذا أثر الصوت الثاني في الأول كانت مُدْبِرة أو رجعية ، حيث يقول إبراهيم أنيس (تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض نوعان:
رجعي:وفيه يتأثر الصوت الأول بالثاني.وهذا النوع كثير الشيوع في اللغة الفرنسية و العربية أيضاً
تقدمي: و فيه يتأثر الصوت الثاني بالأول ، و هو الشائع في اللغة الإنجليزية كما أنه قد يوجد في اللغة العربية)[28] ص:180.

ـ مماثلة تقدمية: أو "مقبلة" في مثل : اضترب ———————— اضطرب، " تأثير الضاد المفخم في التاء المرقق بعده".
ـ مماثلة رجعية: أو " مدبرة" نحو: يتصدق ———————— يصَّدق، " تأثير الصاد المفخم على التاء المرقق قبله".

2.2.2.2.2. حسب درجة التأثير:

الأصوات المتجاورة تختلف في درجة تأثر بعضها ببعض فإذا انقلب الصوت إلى مثل الصوت الذي أثر فيه كانت مما**ثلة** كلية أو كاملة، و إذا تأثر الصوت بصوت آخر تأثراً لا يصل إلى درجة تحوله إلى مثله كانت المماثلة جزئية، أو ناقصة.

1.2.2.2.2.2. المماثلة الجزئية:أو المضارعة أو المقاربة كما سماها الفراء؛ هي مماثلة لا تصل إلى درجة فناء الصوت في الآخر ،ولكنّها تُغيِّر بعض صفاته ليقترب من الصوت الآخر ، وهذا لتسهيل عملية النطق،وتتنوع صور المماثلة الجزئية بتنوع الصفة التي تتغير في أحد الصوتين،وهي:

-الجهر و الهمس: إذا تجاور صوت مهموس مع صوت مجهور مباشرة دون أيّْ فاصل حتى لو كان حركة قصيرة ، يجب أن يُقلب أحدها بحيث يصبح الصوتان إما مجهورين أو مهموسين مثل: ازتجر ـــــــــ ازدجر ، قلبت التاء دالاً لمجانسة الذال في صفة الجهر

- التفخيم و الترقيق: ومثال ذلك أن تقع السين قبل صوت مفخم فتقترب منه بقلبها صاداً في مثل قولهم: ساخطـ ـــــــــــــ صاخط، سلخ ـــــــــــــــ صلخ.قلبت السين صاد لمجانسة الخاء في صفة التفخيم

و مثال ذلك أيضاً : أن تقع فاء افتعل صاداً أو ضادًا أو ظاءً ،، فتقلب بها تاؤه طاءً ، نحو: اصتبر ـــــــــــــــــــ اصطبر ، اضترب ـــــــــــــــــــ اضطرب، اظتلم ـــــــــــــــــــ اظطلم.

كما ذكر غانم قدوري صوراً أخرى للمضارعة ، وهي[96]ص:223-224 :

ــ <u>الغنة:</u> حيث تلحق بعض الأصوات القريبة من النون مثل اللام الساكنة قبل النون ، في مثل: جَعَلْنَا، وقُلنَا ... الخ ، وهذا لحن يجب تجنبه.

ــ <u>الإمالة:</u> وتقع في الكلام من أجل تقريب صوت من أخر، في مثل : عَالِم ؛ تقرب فتحة العين من عالم إلى كسرة اللام منه، فتمال الألف نحو الياء .

ــ المضارعة في الحركات: و قد أشار الفراء إلى ذلك في قراءة من قرأ " الحمدُ للّه"[الفاتحة:02] ، بضم اللام "الحمدُ لُلّه"، أو جر الدال "الحمدِ للّه" وإن كانت هذه لغة لا يلتفت إليها ، لكنها تشير إلى طلب الخفة بتقريب النطق بين الحركات[48] 03/1 ، و أمثلة ذلك كثيرة في قراءة الكسائي و حمزة [46] ص:132-147.

2.2.2.2.2.2. المماثلة الكلية: "الإدغام " :

وهو أعلى صور المماثلة بين الأصوات ، فإذا كانت المضارعة تؤدي إلى تقريب صوت من صوت فإن الإدغام يؤدي إلى قلب الصوت إلى مثل نظيره ونطقهما نطقاً واحداً، وينقسم الإدغام حسب العلاقة بين الصوتين إلى ثلاثة أقسام ، وهي:

- إدغام المتماثلين: ويتفق فيه الصوتان في المخرج و الصفة ، كالباء و الباء، التاء والتاء....الخ
- إدغام المتجانسين : يعني الاتفاق في المخرج و الاختلاف في الصفة، مثل:
  إدغام التاء في الطاء ، و الدال في التاء......الخ.
- إدغام المتقاربين: ما تقاربا في المخرج أو الصفة، مثل : التاء و الظاء.......الخ.

3.2.2.2.2 . بحسب الاتصال و الانفصال: و قسمت إلى :

- مماثلة تجاورية: أو" متصلة"،" مباشرة":إذا كان الصوت المؤثر متصلاً بالصوت الآخر، مثل:
  اصتنع ←———— اصطنع. " تأثير الصاد المفخم على التاء المرقق"

- مماثلة تباعدية:أو"منفصلة"،"غير مباشرة" إذا كان الصوت المؤثر منفصلاً عن الصوت المتأثر، مثل : سراط ———← صراط." تاثير الطاء المفخم على السين المرقق ".

و من أمثلة ذلك في قراءة الكسائي:

1- المماثلة التقدمية المباشرة: هذا النوع من المماثلة قليل جدا في قراءة الكسائي ، ومثاله: « قرأ الكسائي "قيل" و"غيض" بالإشمام، و الإشمام هو جعل الياء(و هي حركة أمامية طويلة) مركبة من حركتين: الضمة و الكسرة»[114] 48/1.

2- مماثلة تقدمية غير مباشرة: و فيها يؤثر صوت في صوت لاحق بينهما فاصل. و هذا النوع من المماثلة أكثر من النوع السابق في قراءة الكسائي ، ومن أمثلة ذلك : قراءته لقوله تعالى : " **..وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ..**" [البقرة، الآية: 61] ، بضم الهاء و الميم "عليهُمُ" .

و قوله تعالى: " **...قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا....**" [البقرة ، الآية:142] ، حيث قرأها" قبلتُهُم" .

"عليهم" في الأصل تتكون من "على + هُم" . فالأصل في الهاء الضم .

و تتمثل المماثلة في ضم "ميم الجمع " من أجل أن تماثل ضمة الهاء" ، مع وجود فاصل بينهما و هو الميم وهذا إذا كانت "الميم" متبوعة بساكن .

3- المماثلة الرجعية المباشرة: هذا النوع في قراءة الكسائي كثير ، و من أمثلته أن الكسائي قرأ " الصاد" بالجهر في " أصدق" في قوله تعالى: «...**مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ**...»[النساء: 122].

و " الصاد " في قوله أيضاً " **يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ"[الزلزلة:06]** ، فالصاد صوت مهموس، قرأه بالجهر ليماثل الصوت المجهور الذي بعده" الدال"

وهذه العملية من الناحية النطقية ليست توافقاً بين صوتين فحسب، إنها أكثر من ذلك بكثير ، فهي عملية مرتبطة بميكانيكية النطق ، فإن الوترين الصوتيين في حال نطق الأصوات المهموسة، و "الصاد" منها يبتعد أحدهما عن الآخر ، حتّى تكون المسافة بينهما كافية لمرور الهواء بحرية و طلاقة، فلا يتذبذب الوتران الصوتيان، أما عند النطق بالأصوات المجهورة، و "الدال" منها ، فإن الوترين الصوتيين يقترب أحدهما من الآخر، حتى تكون المسافة بينهما غير كافية لمرور الهواء ، فتحدث ذبذبة في الأوتار الصوتية.[46] ص:210 .

و منه فإن تغيير نطق الصاد ليصبح مجهوراً عند مجاورته الدال ، إنما كان بسبب السرعة في عمل الوترين الصوتيين.

ونخلص من هذا أن ما تناوله المحدثون في المماثلة عرفه القدماء و الكوفيون على وجه الخصوص وتناولوه في الإدغام و الإبدال . و قد درسوها بشكل دقيق مفصل ويتماشى مع الدرس الحديث باستثناء بعض القضايا التي اختلفوا فيها ، مثل إدغام الكوفيين اللام في الراء بسبب التقارب، ولكنها عند المحدثين بسبب التجانس لأنهما من نفس المخرج .

خاتمـــــــــــة:

الحمد لله الذي لا يخيب لديه أمل الآملين ،و لا يضيع عنده عمل المحسنين،حمدا كثيرا مباركا فيه،أما بعد :

لعل أهم مميزات البحث أن يفتح آفاقاً جديدة للدراسة و البحث لم تدرس من قبل ، و إلا فعليه الوقوف على نتائج لم يتوصل إليها الباحثون الأوائل ، لا سيما إذا كانت الدّراسة في نفس المجال، فلكل بحث مهما كان منهجه في الدراسة جملة من النتائج ، وقد استطعنا من خلال بحثنا هذا أن نخرج بجملة من النتائج ،منها :

1- البحث الصوتي عند العرب كان ثمرة من ثمار الدراسات القرآنية ، ودليل ذلك ما ذكره الفراء في ثنايا كتابه – معاني القرآن – والذي خصه لتفسير معاني القرآن، وبعض التفسيرات اللغوية و وجوه الإعراب.
2- اللّحن هو السبب الأول و الرئيس في دراسة الأصوات عند العرب .
3- إذا كانت المدرسة تعني وجود مجموعة من الدارسين يشتركون في وجهة النظر،ولهم منهج خاص ، فإن الكوفة تشكل مدرسة لغوية مستقلة .
4- شهدت الكوفة منذ تمصيرها هجرة العرب إليها من مختلف القبائل ، كما هاجر إليها جمع من صحابة رسول الله ،فانتشرت فيها الثقافة العربية،و الثقافة الدينية الإسلامية بقراءاتها ،وحديثها ، وتفسيرها، وفقهها.
5- البداية الحقيقية للمنهج الكوفي كانت مع الكسائي ، فهو مؤسس المنهج الجديد ، ليكتمل على يد الفراء فهما عماد المدرسة الكوفية.
6- اعتمد الكوفيون في استقرائهم للغة على كلِّ من وثقوا بعروبتهم من سكان القبائل و أعراب المدن ، لذلك كان أطلسهم اللغوي أوسع من أطلس البصريين .
7- منهجهم منهج القراء عماده الرواية وذلك دليل اعتمادهم على السماع و توسعهم فيه، وحرصهم على أن تكون الأصول خاضعة في شكلها النهائي للأمثلة المستعملة المسموعة.
8- احتج الكوفيون بالقراءات المتواترة و الآحاد و حتى الشاذة كما كانوا أقل تخطئة للقراءات من البصريين ، فقد عرف عن الفراء أنه كان يقبل القراءات المخالفة للقياس إذا وقف على شاهد مؤيد لها من كلام العرب.
9- احتج الكوفيون بالأحاديث في المعاجم اللغوية ، واستخلصوا منها النادر، و شرحوا بها الغريب ، أما احتجاجهم بها في القواعد النحوية فهو نادرٌ جداً.

10- عُرف عن الكوفيين القياس على المثال الواحد ، واحترامهم لكل ما سمعوه لإيقانهم بأنه يمثل بيئة لغوية لا ينبغي إغفالها ، ولكننا وجدنا أنّ هذا موقف الكسائي ،أما عند الفراء فهو نادر.

11- المنهج الكوفي منهج وصفي استقرائي بعيدٌ كُلَّ البعد عن التعليل الفلسفي، يستنبط القواعد مما سُمِع عن العرب ، مع احترام كلِّ ما صدر عنهم ، وهو بهذا يمثل اللغة بكل لهجاتها المختلفة، وهذا ما يتماشى مع الدراسات اللغوية الحديثة.

12- الحرف عند الفراء هو صوت معتمد على مقطع محقق أو مقدّر من مقاطع الحلق و اللسان و الشفة ، و هو بهذا يشير إلى أعضاء جهاز النطق و دورها في إنتاج الحروف.

13- عدد مخارج الحروف عند الفراء أربعة عشر مخرجاُ ، حيث جعل مخرج الفاء من الشفتين مع الباء و الميم . أما عددها عند جمهور المحدثين فهو عشرة مخارج، حيث جمعوا اللام و الراء و النون في مخرج واحد ، كما جمعوا الضاد مع الشين و الجيم في المخرج الغاري . وجعلوا الهمزة من الحنجرة .كما جمعوا السين و الصاد و الزاي و الطاء و التاء و الدال و الضاد في المخرج الأسناني اللثوي.كما جعلوا مخرج الخاء و الغين من الطبق.

14- أطلق الفراء على الحرف الشديد مصطلح "الأخرس" لأنه أدرك أن صدوره يتم عن طريق غلق مجرى الهواء غلقاً تاماً فيتوقف الهواء على مستوى المخرج ، و لقد أثبتت الدراسات الحديثة ذلك، إذ يعتبر هذا الغلق أو الوقف المرحلة الأولى في إنتاج هذا الصوت، لذلك سمى كمال بشر الحروف الشديدة وقفات ، ويتبع هذا الوقف مرحلة ثانية ينفجر فيها الهواء لذلك سماها" الوقفات الإنفجارية".

15- حدد الفراء مخارج الحركات بالنظر إلى وضع اللسان و الشفتين ، وهذا ما ذهب إليه المحدثون و أضافوا إليه تحديد الجزء المسؤول عن ذلك من اللسان ، وكذا درجة ارتفاع ذلك الجزء.

16- خالف المحدثون القدماء في صفات بعض الأصوات حيث توصلوا إلى أن القاف والطاء من الأصوات المهموسة ،كما اعتبروا الجيم صوتاً مركبًا تختلط صفته الانفجارية بنوع من الحفيف ، كما أن الحروف البينية عندهم هي اللام و الميم و النون و الراء.أما الأصوات الانفجارية فهي :
(ب،ط،ض،ت،د،ك،ق،ء). وغيرها من الصفات التي تمّ توضيحها.

17- من أسباب الإدغام عند الفراء تقارب المخارج، ومثال ذلك ما ذكره في إدغام "اللام" في " النون" ، واعتبره المحدثون بسبب التجانس لا التقارب، لأنهما من نفس المخرج .

18- أدغم الكوفيون "الراء" في " اللام" . وهذا يتماشى مع ما ذهب إليه المحدثون .

19- كما أدغموا الفاء في الباء في إحدى قراءاتهم ــ قراءة الكسائي ــ وهذا جائز عند المحدثين لقرب المخرج.

20- نقل السيرافي عن الفراء جملة من الآراء المتعلقة بالإدغام، و هي في مجملها كما وضحنا لا تتماشى مع مذهب البصريين ،وكذا مع الدرس الصوتي الحديث .

21- أدرك الفراء المماثلة واصطلح عليها بالمقاربة.

22- مفهوم المماثلة عند المحدثين أوسع من مفهوم الإدغام عند القدماء ، فهذا الأخير لا يشكل إلا نوعاً من أنواع المماثلة ألا وهي المماثلة الكلية، أما المماثلة الجزئية فقد تناولوها في ظاهرة الإبدال.

وما نرجوه في الأخير هو أن نكون قد وفقنا ولو بالقدر اليسير في الإلمام بقضايا بحثنا ، فإن وفقنا فذلك ما كنا نصبو إليه، وإن لم نوفق فحسبنا أجر المجتهدين . فبحمد الله تعالى أنجزنا هذا البحث المتواضع، ونسأله التوفيق والسداد، وأن يكون عملنا هذا مفيداً، ومخلصا لله وحده، وأن يكون تمهيدا لآفاق أوسع من الدراسات.

قائمة المصـــادر والمــــــــــراجــع

القرآن الكريم

1. عرفات محمد حمور،"أسواق العرب، عرض تاريخي للأسواق الموسمية العامة عند العرب"، دار الشروق، الطبعة الثانية ، بيروت ، (1981م).

2. سعاد سناسي، " التحولات المرفولوجية و التركيبية في ضوء الدراسات الصوتية"، رسالة دكتوراه ، إشراف :د مكي درار،كلية الآداب اللغات و الفنون، قسم اللغة العربية آدابها ، جامعة وهران السانية، (2005-2006 م).

3. ابن الأثير ،" النهاية في غريب الحديث و الأثر" ، ت:أحمد الزاوي، دار إحياء الكتب العربية، دون طبعة ، دون تاريخ .

4. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا،" معجم مقاييس اللغة "،ت: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، دون طبعة ، بيروت،(1411هـ ـ 1991م) .

5. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر،"البيان و التبيين"، ت: عبد السلام هارون، دون طبعة ، القاهرة، (1984م) .

6.محمد الطنطاوي،" نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة "، دار المعارف، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، (2005م) .

7.ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد،" النشر في القراءات العشر:، أشرف على تصحيحه ومراجعته: علي محمد الضباع ، دار الكتب العلمية، دون طبعة ، بيروت– لبنان، دون تاريخ.

8. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ،" صحيح البخاري" ،شركة الشهاب، دون طبعة، الجزائر.

9. ابن مجاهد،" كتاب السبعة في القراءات"، ت:د شوقي ضيف،دار المعارف ،الطبعة الثالثة، القاهرة، (دون تاريخ) .

10.ابن فارس ،" الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها و سنن العرب في كلامها"، علق عليه و وضع حواشيه: أحمد حسن سبيح ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، بيروت. لبنان،(1418هـ- 1997م) .

11. ابن جني ، أبو الفتح عثمان ،" خصائص "، ت :محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ،دون طبعة ، بيروت ــ لبنان (دون تاريخ) .

12.السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ،" المزهر في علوم اللغة و أنواعها" ، شرحه و ضبطه و صححه و عنونه موضوعات و علق على حواشيه:محمد أحمد جاد المولى بك ،على محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم ، منشورات المكتبة العصرية ،دون طبعة ، صدا – بيروت ، (1408هـ – 1987 م) .

13. الخليل بن أحمد الفراهدي،" كتاب العين"، ت:د مهدي المخزومي،و د إبراهيم السمرائي ، مؤسسة دار الهجرة، الطبعة الثانية ،إيران، (1409هـ) .

14. ابن النديم ،" الفهرست" ، المطبعة الرحمانية، دون طبعة، مصر ، (دون تاريخ).

15. سيبويه،أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر،"الكتاب" ،ت:عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية ،القاهرة، (1982م) .

16. الزركشي، بدر الدّين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن ،ت:محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى،(1376هـ- 1957م) .

17.مهدي عبد الحميد ،"أمة القرآن "، دار البعث للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى، قسنطينة، الجزائر، (1403هـ-1983م) .

18. الداني عمرو عثمان بن سعيد الداني،" المقنع في رسم مصاحف الأمصار"، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، مكتبة الكليات الأزهرية، دون طبعة ،القاهرة، (1978م).

19. محمد حسان الطيان، " القراءات القرآنية وعلاقتها بالأصوات واللهجات " ، مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة، مصر، المجلد72، الجزء2 .

20. عبد العال سالم مكرم ،" القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية" ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت ، لبنان ، (1996م).

21. أحمد محمد قدور، "اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي"، دار الفكر ،الطبعة الأولى، دمشق ، سوريا، (2001م).

22. عبده الراجحي ،" فقه اللغة في الكتب العربية "، دار النهضة العربية ، دون طبعة، بيروت، لبنان،(دون تاريخ).

23. الداني،" المحكم في نقط المصحف"، ت: حسن عزة، دون طبعة ،دمشق،(1960م) .

24. نخبة من الباحثين العراقيين،" حضارة العراق"، دون طبعة ، بغداد ، (1985م) ، الجزء السابع .

25. صالح بلعيد ،" مقالات لغوية "، دار هومة للطباعة والنشر،دون طبعة، الجزائر ،(2004 م).

26. محمد حسين آل ياسين،" الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث "، منشورات دارمكتبة الحياة، الطبعة الأولى، بيروت ، لبنان ،(1400ه/1980م) ، رسالة دكتوراه في اللغة العربية.

27. أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي،" مراتب النحويين"، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية،الطبعة الأولى، صيدا- بيروت، (1423هـ /2002م).

28.إبراهيم أنيس،" الأصوات اللغوية" ، مكتبة الأنجلو المصرية، دون طبعة ، القاهرة،(1990 م) .

29. رمضان عبد التواب،" المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي "، مكتبة الخانجي ، الطبعة الأولى ، القاهرة، (1403هـ ــ 1982م)، (الطبعة الثالثة :1992م).

30. مجمع اللغة العربية بالقاهرة،" المجمع الوسيط" ، مكتبة الشروق الدولية ،الطبعة الرابعة ،القاهرة ، (1429هـ/ 2008م) .

31. إبراهيم السمرائي،" المدراس النحوية أسطورة وواقع"، دار الفكر للنشر و التوزيع ،الطبعة الأولى، عمان ، (1987م) .

32. مهدي المخزومي،" مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة و النحو" ، دار الرائد العربي ، الطبعة الثالثة، بيروت ، لبنان ،(1406هـ ــ 1986 م) .

33. أحمد مختار عمر،" البحث اللغوي عند العرب، مع دراسة لقضية التأثير والتأثر"، عالم الكتب، الطبعة السادسة ، القاهرة، (1988م) .

34. مهدي المخزومي، " الدرس النحوي في بغداد" ، مطبعة السعون، دون طبعة ، بـــــــغداد ، (دون تاريخ).

35. شوقي ضيف،" المدارس النحوية "، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة ، (1976 م) .

36. تمام حسان ، "الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب : النحو ــ فقه اللغة ــ البلاغة ". عالم الكتب ، دون طبعة ،القاهرة، (2000 م) .

37. دروس في كتب النحو ، "دار النهضة العربية للطباعة والنشر" ،دون طبعة، بيروت،(1975م).

38. الطبري،" أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، تاريخ الرسّل والملوك"، ت:محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف،الطبعة الرابعة، القاهرة، (دون تاريخ).

39. ياقوت الحموي الرومي، "معجم البلدان"، دار صادر، الطبعة الثانية ، بيروت، (1995م) ،

40. الفيروز ابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، "القاموس المحيط"، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة 1301هـ،مصر ، (1399هـ/ 1979م).

41. صلاح روّاى ،" النحو العربي، نشأته، تطوره، مدارسه، رجاله"، دار غريب، دون طبعة ، القاهرة، (2003م).

42. ابن الجزري، "غاية النهاية في طبقات القراء"، نشره ج برجستراسر، مطبعة السعادة،دون طبعة ، مصر، (دون تاريخ) .

43. ياقوت الحموي الرومي ، "معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" ، ت :الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت ، لبنان ، (1993م).

44. الزبيدي ،" طبقات النحويين واللغويين" ، ت:محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف،دون طبعة، مصر ، (دون تاريخ).

45. ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي،" شذرات الذهب في أخبار من ذهب "، دار الكتب العلمية ،دون طبعة، بيروت، لبنان ، (دون تاريخ) .

46. سمير شريف استيبتية ،"القراءات القرآنية بين العربية و الأصوات اللغوية" ،عالم الكتب الحديث، دون طبعة، المملكة الأردنية الهاشمية، (2005 م).

47. عبد العال سالم مكرم ، "الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي" ،مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع ،الطبعة الثانية، بيروت ، (1413 هـــ 1993 م).

48 .الفراء أبو زكريا يحيى بن زياد،" معاني القرآن"، تحقيق أحمد يوسف التجاني ومحمد علي النجار، عالم الكتب ، الطبعة الثالثة، بيروت، (1403هــــ - 1983م).

49. عبد الرحمن الحاج صالح ،"السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة"، موفم للنشر،دون طبعة، الجزائر، (2007م).

50.السيوطي، "الاقتراح في علم أصول النحو" ،ت :محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان ،(1418هـــ - 1998 م) .

51. البغدادي،عبد القادر بن عمر،" خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب"، ت: عبد السلام هارون، الطبعة السادسة، مصر،(1997م) .

52. ابن الأنباري، أبو بركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد ،"لمع الأدلة في أصول النحو" ، ت: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية ،دون طبعة، دمشق ،سوريا، (1377 هـــ 1957 م) .

53. صبحي الصالح،" علوم الحديث و مصطلحة عرض و دراسة دار العلم للملايين"، الطبعة السادسة عشر، بيروت ، لبنان، (1986م) .

54. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد ،" تهذيب اللغة" ، ت: عبد السلام هارون ، راجعه محمد على النجار ، دون طبعة، القاهرة، مصر ، (دون تاريخ) .

55. أحمد أمين،" ضحى الإسلام "، دار الكتاب العربي ،الطبعة العاشرة ، بيروت ، لبنان ،

(دون تاريخ).

56. محمود سليمان ياقوت،" أصول النحو العربي"، دار المعرفة الجامعية، دون طبعة،(دون مكان)، (2000م) .

57.الزبيدي،محمد مــرتضى الحسيني ،"تاج العروس من جواهر القاموس"،ت: حسين نصار، مراجعة: جميل سعيد وعبد الستار أحمد فراح.مطبعة حكومة الكويت، دون طبعة، الكويت،(1369ه ــ 1969م).

58. نوزاد حسن أحمد ،" المنهج الوصفي في كتاب سيبويه"، دار دجلة ، الطبعة الأولى ، عمان ، (1426ه ــ 2006م) .

59. فردينان دي سوسور، "علم اللغة العام"، ترجمة الدكتور يوئيل يوسف عزيز، دار الأفاق العربية، دون طبعة ، بغداد ، (1985 م).

60. كمال بشر ، "التفكير اللغوي بين القديم والحديث" ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، دون طبعة، القاهرة، (2007 م) .

61. علي عبد المعطي محمد،" المنطق ومناهج البحث العلمي في العلوم الرياضية و الطبيعية "، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، الإسكندرية،(دون تاريخ).

62. D : Cristalk " Linguistics", Denguin Book , 1957 .

63. محمد الحباس،"محاضرات في فقه اللغة" ، دار غريبي للطباعة والنشر والتوزيع،الطبعة الأولى ، الجزائر(2006.م) .

64. عبد القادر الجرجاني، " دلائل الاعجاز"، ت: محمد رشيد رضا، دون طبعة ، القاهرة ، (1335هــ.) .

65. ابن منظور،" لسان العرب "، دار صادر للطباعة والنشر، دون طبعة ، بيروت ، لبنان ،

(1956 م).

66. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، " مقدمة ابن خلدون"، ت: علي عبد الواحد وافي ، مطبعة الرسالة، الطبعة الثانية، عابدين،مصر،(1388هـ ـ1968م).

67. رمضان عبد التواب ،" فصول في فقه اللغة"، مكتبة الخانجي، دون طبعة، القاهرة، (1980م) .

68. الفرابي، أبو نصر، "كتاب الحروف"، ت: محسن مهدي، دار المشرق،دون طبعة، بيروت ، لبنان، (1986م) .

69. خديجة الحديثي،" الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه "،مطبوعات جامعة الكويت، دون طبعة، (1973م).

70. محمد أحمد نخلة،" أصول النحو العربي"، دار المعرفة الجامعية ، دون طبعة، دون مكان ، (2004 م).

71. السيوطي ، الأشباه والنظائر في النحو، ت: د- عبد العال سالم مكرم،عالم الكتب، دون طبعة، بيروت، لبنان، (دون تاريخ).

72. التواتي بن التواتي،" محاضرات في أصول النحو"، دار الوعي للنشر والتوزيع، دون طبعة، الجزائر، (دون تاريخ).

73 . ابن يعيش، موفق الدين، "شرح المفصل"، عالم الكتب ، دون طبعة ، بيروت ، لبنان ، (دون تاريخ) .

74. أحمد أمين، "فجر الإسلام "، دار الكتاب العربي، الطبعة العاشرة، بيروت، لبنان،(دون تاريخ).

75. ابن حبان،" صحيح ابن حبان "، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، دون طبعة ، بيروت ، لبنان ،(1414هـــ- 1993م).

76. صالح بلعيد ، " في أصول النحو" ، دار هومة ، دون طبعة، الجزائر، (2005م).

77. ابن الأنباري،" الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين"، ت: محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر، دون طبعة، (دون تاريخ).

78. ابن كثير ،" تفسير القرآن العظيم"، ت: طه عبد الرؤوف سعد، شرح أحاديثه: عبد الله المنشاوي، دار الاعتصام ،دون طبعة، القاهرة ،(2008 م).

79. أحمد إدريس عبده ، "أصول الفقه، تسيير المهمات في شرح ورقات إمام الحرمين الجويني"، دار الهدى ، دون طبعة، عين مليلة ، الجزائر، (دون تاريخ).

80. محمد عيد ،" أصول النحو العربي على ضوء علم اللغة الحديث" ، عالم الكتب، دون طبعة، القاهرة،(1973م).

81. محمد مصطفى شلبي،" أصول الفقه الإسلامي"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، دون طبعة، بيروت، لبنان ،(1406هـ - 1986م) .

82.ابن الأنباري ، الإغراب في جدل الإعراب، ت: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية ، دون طبعة ، دمشق، (1377هـ/1957م).

83. محمد حسين عبد العزيز،" القياس في اللغة العربية"، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ، القاهرة، (1415هـ/1995م).

84. سعيد جاسم الزبيدي ،" القياس في النحو العربي نشأته وتطوره "، دار الشروق للنشر والتوزيع، دون طبعة ، عمان ،الأردن ،(1997م).

85. طه الراوي، " نظرة في النحو"، مجلة المجمع العلمي، دمشق، م 14، ج 9-10 .

86. التواتي بن التواتي،" القراءات الشاذة وأثرها في الدراسات النحوية والأحكام الشرعية" ، رسالة دكتوراه ، جامعة الجزائر .

87. أبو سعيد السيرافي،" أخبار النحويين البصريين"، ت: فريتس كرنكو ، المطبعة الكاثوليكية ، دون طبعة ، بيروت ، لبنان ،(دون تاريخ) .

88. أحمد مختار عمر،" دراسة الصوت اللغوي"،(دون مكان)، (دون طبعة)،(1411هـ ــ 1991م).

89. كمال بشر، "علم الأصوات"، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، دون طبعة ، القاهرة، (2000م).

90. كمال بشر، "علم اللغة العام ، القسم الثاني: الأصوات"، دار المعارف ، دون طبعة، مصر، (1973م).

91. ابن سينا،علي الحسيني،" أسباب حدوث الحروف "،راجعه و قدم له:طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، دون طبعة، مصر،(1398هـ -1978م).

92. البستاني ،بطرس ،" قاموس محيط المحيط "، مكتبة لبنان،دون طبعة ، لبنان ، (دون تاريخ) ، نقلاً عن طبعة: بيروت، (1870م).

93. ابن جني،" سر صناعة الإعراب "، ت: حسن الهنداوي، دون طبعة ،القاهرة ، مصر، (دون تاريخ).

94. المبرد، أبو العباس ،" المقتضب "، ت: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب،دون طبعة ، بيروت، لبنان، (دون تاريخ).

95. عبد القادر مرعي العلي الخليل،" المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر"، الطبعة الأولى، عمان ، (1993 م).

96. غانم قدوري الحمد،" المدخل إلى علم أصوات العربية"، مطبعة المجمع العلمي، دون طبعة ، بغداد،(1423 هـ ــ 2002م) .

97. الرضي الاسترابادي، رضي الدين محمد بن الحسن،" شرح شافية ابن حاجب "، ت: محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، دون طبعة، بيروت ، لبنان، (1402هـ ــ 1982م).

98. السيرافي أبو سعيد،" ما ذكره الكوفيون من الإدغام"، حققه و قدم له و علق عليه: الدكتور صبحي التميمي، دار الشهاب للطباعة و النشر، دون طبعة، باتنة، الجزائر، (دون تاريخ).

99. محمد مكي نصر ،" نهاية القول المفيد في علم التجويد" ، مراجعة : الشيخ علي محمد الضباع ، مطبعة مصطفى الباجي الحلبي، دون طبعة، مصر،(1349هـ) .

100. عبد الغفار حامد هلال ،"تجويد القرآن الكريم من منظور علم الأصوات الحديث"، مكتبة الآداب القاهرة، الطبعة الأولى ، مصر ،(1428هـ ــ2008م).

101. تمام حسان، "اللغة العربية معناها ومبناها"، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية، القاهرة ، مصر، (1979م).

102. نور الهدى لوشن ،" مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي" ،المكتبة الجامعية الأزاريطة، دون طبعة ، الإسكندرية، مصر ،(2000م).

103. تمام حسان،" مناهج البحث في اللغة" ، دار الثقافة ، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، (1394 هـ-1974م).

104. حسام البهنساوي ،"الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث "، مكتبة زهراء الشرق، الطبعة الأولى، القاهرة ، مصر، (2005م).

105. سلمان حسن العاني،" التشكيل الصوتي في اللغة العربية"، ترجمة د: ياسر الملاح، الطبعة الأولى، جدة، السعودية ، (1403هـ - 1983 م).

106. السيوطي، "الإتقان في علوم القرآن" ،ت: محمد أبو الفضل إبراهيم،مكتبة المشهد الحسيني، دون طبعة ، القاهرة، مصر، (1967م).

107. عبد الصبور شاهين،" أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي- أبو عمرو بن العلاء – "

مطبعة المدني، الطبعة الأولى، القاهرة ، مصر، (1987 م).

108. محمد كريم راجح، و الشيخ محمد فاروق، "القراءات العشر المتواترة،من طريقي الشاطبية و الدرّة" ، مكتبة الريان للنشر و التوزيع، دون طبعة، المحرق- البحرين (دون تاريخ) .

109. أبو الحسن الطاهر بن عبد المنعم بن غلبون، " كتاب التذكرة في القراءات"، دار الهدى ، دون طبعة ، عين مليلة ، الجزائر ،(دون تاريخ)

110. مكي بن أبي طالب، " الكشف عن وجوه القراءات السبع و عللها و حججها" ، ت: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، دون طبعة، (دون تاريخ) .

111. أبو عمر بن عثمان،" التيسير في القراءات السبع"، المطبعة الدولية، دون طبعة ، اسطنبول ، (1933م).

112. عبد الله بوخلخال،" الإدغام " ، ديوان المطبوعات الجامعية،دون طبعة، بن عكنون ، الجزائر (دون تاريخ).

113. كمال بخوش،" الانسجام الصوتي في بنية مفردة اللسان العربي"، رسالة ماجستير ، إشراف

الدكتور :ساسي عمّار ، جامعة سعد دحلب ، البليدة، 2004 م.

114. محمد محيسن، "المهذب في القراءات العشر"، مكتبة الكليات الأزهرية، دون طبعة،القاهرة، مصر ،(1978م) .